موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

أحاديث رمضان

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ

مكارم الأخلاق

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٠١-٣٢) : المعاتبة - عكسها الحقد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١٠-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

لن تعود أمتنا إلى ما كانت عليه إلا إذا التزمت بأخلاقها:

أيها الأخوة الكرام، في دروس الفجر إن شاء الله سيكون موضوع هذا الدرس كل يوم فجراً بعض مكارم الأخلاق، ذلك لأن الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك بالإيمان، وحينما أثنى الله على رسوله قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم الآية: ٤]

له مئات الخصائص المتميزة، لكن الذي يثني الله عليه هو كسبه الحقيقي، وهو خُلُقه، والخُلق -أيها الأخوة- انتصار على النفس، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، كان سيد البشر، لأنه انتصر على نفسه.

ولو أردت أن تستعرض خصائص الأمة في عصور ازدهارها وحالها الذي لا تحسد عليه اليوم يتعلق بأخلاق الأمة، أما كمظاهر، فمظاهر الإسلام الآن صارخة بشكل لا يصدق، مساجد، مؤتمرات، مكتبات، لقاءات، ألقاب علمية، لكن الحب بين المؤمنين مفقود، فلذلك مكارم الأخلاق هي مؤشر على قوة الإيمان.

مشتقات الأخلاق:



شيء آخر أيها الأخوة: كل إنسان فطره الله فطرة عالية:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: ٣٠]

لا يوجد إنسان في الستة آلاف مليون إنسان إلا ويحب العدل، ويحب الرحمة، ويحب الحلم، ويحب الإنصاف، ويحب الحكمة، لكن أن تحب الرحمة شيء،

وأن تكون رحيماً شيء آخر، أن تحب الرحمة فطرة، أما أن تكون رحيماً فهي صبغة، وبينهما حالة ذكرها النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما قال:

((إنما الحلم بالتحلم، وإنما العلم بالتعلم، وإنما الكرم بالتكرم))

فالإنسان قبل أن يحكم اتصاله بالله لا يعد حليماً، لكنه يتحلم، أي يتصنع الحلم، فمن تصنع الحلم ووثق بنفسه أن الله راض عنه، فأقبل على الله، فاشتق من الله صفة الحلم، فكان يحب الحلم بفطرته، ثم تحلم بفعله، ثم أصبح حليماً بخصائصه، ف:

((إنما الحلم بالتحلم، وإنما العلم بالتعلم، وإنما الكرم بالتكرم))

قانونا العداوة والمحبة:

البعيد عن الله حاقد على الآخرين

أيها الأخوة، الموضوع اليوم المعاتبة، المعاتبة من مكارم الأخلاق، ما بديلها؟ الحقد، إذا كان الإنسان منقطعاً عن الله يحصي على الآخرين أخطاءهم، فكلما زادت خطيئة زاد الحقد عليه، إلى أن تقع الخصومة والعداوة والبغضاء. وبالمناسبة: قانون العداوة والبغضاء في قوله تعالى:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة الآية: ١٤]

كقانون: ما دمت مطيعاً لله، فبيننا مودة لا يعلمها إلا الله:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٦٣]

وما دمت مطيعاً لله، يخلق الله بفعله المودة والرحمة بين المؤمنين، والدليل هذه الآية:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٦٣]

وما تواد اثنان في الله ففرق بينهما، إلا بذنب أصابه أحدهما، وما أخلص عبد لله، إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة.

توسط بين العتاب والجفاء مع أخيك:



فالمعاتبة من مكارم الأخلاق. عتبت عليه؛ أي وجدت عليه، وجدت عليه؛ أي غضبت منه، أعتبني؛ أي ترك ما كنت أجد عليه، ورجع إلى مسرتي، أنا عتبت على أخي؛ أي غضبت منه، أخي أعتبني؛ أي أرضاني.

يقول الإمام علي -رضي الله عليه-: لا أصرم أخاً قبل أن أعاتبه.

المودة والحب بين المؤمنين من خصائص المؤمنين، لو أنه بلغك عن أخيك خبر سيء، إذا نزّهته عن هذا الخبر، وأنت موقن أنه لا يفعل هذا، ليس عليك ألا تعاتبه، لكن إذا تأثرت، ووجدت عليه في نفسك؛ ينبغي أن تسأله، وينبغي أن تعاتبه، وينبغي أن تستوضح الخبر، فقد يكون الخبر كاذباً، وقد يكون صحيحاً، وقدم لك الأسباب الموجبة التي حملته على هذا، وقد يكون صحيحاً وقد اعتذر عن خطئه، وقد يكون صحيحاً وعاهد الله ألا يعود إليه، فعادت بينكما المودة والرحمة. إذاً: المعاتبة من فضائل الأخلاق، لكن العلماء يقولون: لا بد من التوسط في المعاتبة، إذا كثرت آلت إلى القطيعة.

وإن لم تكن معنى ذلك: أنه ليس هناك مبالاة بالعلاقة بينك وبين أخيك، عدم العتاب دليل الجفاء، وكثرة العتاب تودي إلى القطيعة، فلا بد من الحكمة في العتاب، أي من حين إلى آخر إن رأيت من أخيك شيئاً أقلقك ينبغي أن تعاتبه.

المؤمن يستعتب الكافر لا يستعتب:

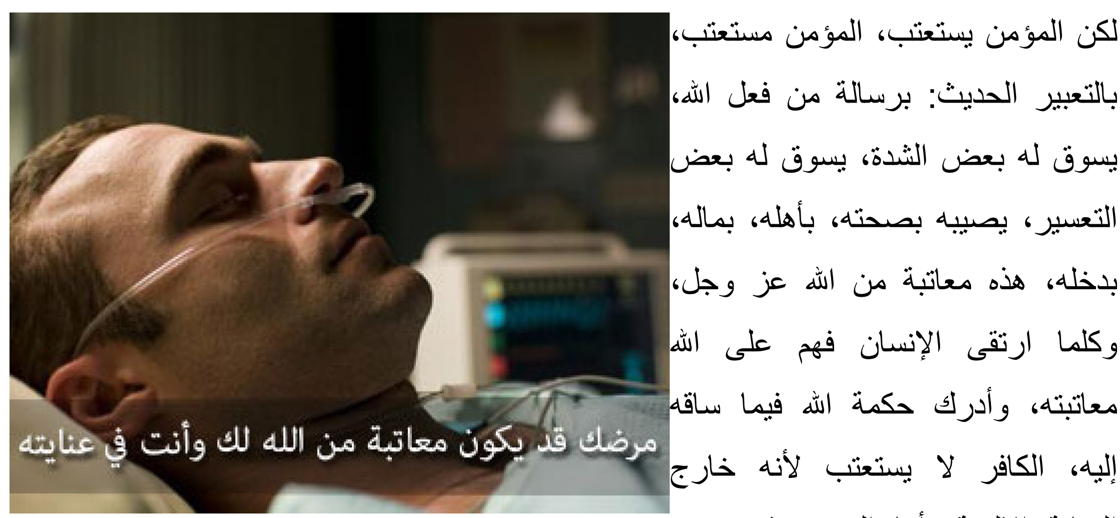
أيها الأخوة، أكبر عقاب من الله عز وجل للكافر قال تعالى:

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

[سورة النحل الآية: ٨٤]

الكافر لا يستعتب.

لكن المؤمن يستعتب، المؤمن مستعتب، بالتعبير الحديث: برسالة من فعل الله، يسوق له بعض الشدة، يسوق له بعض التعسير، يصيبه بصحته، بأهله، بماله، بدخله، هذه معاتبة من الله عز وجل، وكلما ارتقى الإنسان فهم على الله معاتبته، وأدرك حكمة الله فيما ساقه إليه، الكافر لا يستعتب لأنه خارج العناية الإلهية، أما المؤمن فيستعتب،



مرضك قد يكون معاتبة من الله لك وأنت في عنايته

فإذا عاتبك الله لشدة ساقها إليك، فاحمد الله على هذه المعاتبة، فيك خير، وأنت ضمن العناية الإلهية.

عَنْ أُمَيَّةَ، أَنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

((إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ، وَعَنْ قَوْلِهِ: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، فَقَالَتْ: مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ مُنْذُ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: هَذِهِ مُعَاتَبَةُ اللَّهِ الْعَبْدَ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ الْحُمَّى وَالنَّكْبَةِ، حَتَّى الْبِضَاعَةُ يَضَعُهَا فِي كُمِّ قَمِيصِهِ فَيَفْقِدُهَا فَيَفْزَعُ لَهَا، حَتَّى إِنَّ الْعَبْدَ لَيَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التِّبْرُ الْأَحْمَرُ مِنْ الْكِيرِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

ضاع منك شيء، سيقت إليك شدة، تعسر عليك أمراً، نشأت مشكلة، لاح لك شبح مصيبة، هذه معاتبة الله لك، والدليل فيك خير، والدليل مرغوب فيك، والدليل ضمن العناية الإلهية، فهذه معاتبة الله، لذلك: المصائب رسائل من الله.

أنا مرة سمعت في الأخبار أن هجوماً أصاب مؤسسة، فجاء صاحب المؤسسة، ورأى آثار الهجوم، فقال كلمة رائعة، قال: وصلتني الرسالة.

إذا أصيب الإنسان بشيء فهي رسالة من الله، فليتفحصها، ليتأمل فيها، ليتدبر.

ما نسي النبي فضل الأنصار فأزال الجفوة بعتاب:

النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما وزع الفيء عقب معركة حنين، أعطى المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار، فجاء سيد الأنصار إلى النبي .....

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ

الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي ...

-لا يوجد كذب-

: وَمَا أَنَا، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ...

-والشيء الذي لا يصدق: أن النبي في ذلك الوقت دانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، بمنطق الطغاة بإمكانه أن يلغي وجودهم نهائياً، بإمكانه أن يهدر كرامتهم، بإمكانه أن يهملهم، بإمكانه أن يلومهم، ولكنه جمعهم، وذكرهم بفضلهم عليه فقال-:

أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ: فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَتَفَرَّقْنَا))

عاتب أخاك بشكل مستمر لئلا تخسره، أما إذا أحصيت عليه أخطاءه وتراكمت حقدت عليه وقطعته، إذاً: المعاتبة من مكارم الأخلاق.

وسيدنا علي يقول: لا أصرم أخاً قبل أن أعاتبه.

بلاغ رفع إلى النبي:

هناك رواية ثانية لهذه القصة: عن عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُتِيَ بِمَالٍ أَوْ سَبْيٍ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى رِجَالًا وَتَرَكَ رِجَالًا، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللَّهَ ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:



((أَمّا بَعْدُ، فَوَ اللّهِ إِنّي لَأُعْطِي الرّجُلَ وَأَدَعُ الرّجُلَ، وَالّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيّ مِنْ الّذِي أُعْطِي ....

-أي الذي لا أعطيه أحب إلي من الذي أعطيه، هذه قسها على الله عز وجل، قد يعطي الدنيا لمن لا يحب، وقد يزويها عمن يحب.

وإن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام.

وإن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحرم الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلاك. فأحياناً المنع هو عطاء، لو تأملت عميقاً لوجدت المنع عين العطاء، وإذا علمت أسباب المنع انقلب المنع إلى عطاء، ربما أعطاك فحرمك، وربما منعك فأعطاك، يمنعك فيعطيك، ويعطيك فيحرمك-:

وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْغِنَى وَالْخَيْرِ))

هكذا قال عليه الصلاة والسلام.

تمسك بالكتاب والسنة وعض عليهما بالنواجذ:

قَالَتْ عَائِشَةُ:

((صَنَعَ النّبِيُّ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- شَيْئًا فَرَخّصَ فِيهِ فَتَنَزّهَ عَنْهُ قَوْمٌ ...

-والخلق موجود في كل عصر، أي أورع منك، وأقوى إيمانًا منك، وأقرب إلى الله منك، في الشدة يفطر.

مرة في الجهاد في رمضان كان الحر شديدًا جداً، والجهد بالغًا، فأمسك النبي إناء ماء وشرب أمام أصحابه جميعاً، أي أن أفطروا، بلغه أن بعضهم لم يفطر، فقال عليه الصلاة و السلام:

((أولئك العصاة))

بكل عصر يوجد أناس يزايدون على النبي صلى الله عليه وسلم، أي يفعل شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم، هو أورع، قال-:

فَتَنَزّهَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النّبِيّ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-، فَخَطَبَ فَحَمِدَ اللّهَ، ثُمّ قَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزّهُونَ عَنْ الشّيْءِ أَصْنَعُهُ؟ فَوَ اللّهِ إِنّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللّهِ وَأَشَدّهُمْ لَهُ خَشْيَةً))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

ولم يكن عليه الصلاة والسلام سباباً ولا فحاشاً ولا لعاناً، كان يقول لأحدنا عند المعتبة:

((ما له تربت جبينه؟))

حتى العتاب يحتاج إلى لطف، إلى رقة، إلى كلمة لطيفة، على كلمة منتقاة حتى في العتاب.

إذا وجدت على أخيك شيئاً عاتبه فإن لم تجد فلا عليك:

يقول أبو الدرداء -رضي الله عنه-: معاتبة الأخ خير من فقده.

إن لم تعاتبه تراكمت الأخطاء وقطعته.

معاتبة الأخ خير من فقده.

وقيل: العتاب خير من الحقد، ولا يكون العتاب إلا على زلة، وقد مدح العتاب فقيل فيه: هو حدائق المتحابين، هو دليل على بقاء المودة.

من فوائد العتاب: أنه يزيل صدأ البغض والكراهية من القلوب، ويزيد المحبة والألفة، ويذهب نزغ الشيطان، وينقي النفوس ويطهرها من ظنون الإثم، ويقوي أواصر الود والتفاهم في المجتمع.

العتاب يزيد المحبة والألفة

لذلك آخر كلمة: لك أخ تحبه جداً، وتقدره، بلغك عنه شيء، لو أن هذا الشيء لم يؤثر إطلاقاً في حسن ظنك به ما صدقته أبداً، لك ألا تعاتبه في هذه الحالة، أما إن وجدت في نفسك عليه شيئًا غير مكانته عندك، نزل مقامه، شعرت أن هذا ليس بأخ، يجب أن تعاتبه لعل الخبر كاذب، أو لعل هذا الخبر له تفسير، لو كنت مكانه لفعلت مثله، أو لعله تاب من هذا الذنب، فإن وجدت عليه فينبغي أن تعاتبه، وإن لم تجد عليه فلك ألا تعاتبه، والعتاب دليل محبة، ودليل مودة، ودليل حب، فلا أصرم أخاً قبل أن أعاتبه، ومعاتبة الأخ خير من فقده .

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٠٢-٣٢) : المواساة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا كنت في حاجة أخيك فقد واسيته:

أيها الأخوة، الموضوع اليوم المواساة، فالمواساة في الاصطلاح الشرعي: معاونة الأصدقاء والمستحقين، ومشاركتهم في الأموال والأقوال.

وفي تعريف آخر: المواساة: أن يجعل صاحب المال يده ويد صاحبه في ماله سواء.

وفي تعريف ثالث: المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق.

يعني معاونة الأخوة المؤمنين؛ أن تعينهم بمالك، بجاهك، بخدمتك، وببدنك، بالنصيحة والإرشاد، بالدعاء والاستغفار، بالتوجع لهم، إن لم تستطع أن تقدم لهم شيئاً من هذه الأشياء فيجب أن تتوجع لهم، أفضل شاهد على ذلك: أن سيدنا عمر في عام المجاعة خاطب بطنه قال: قرقر أيها البطن أو لا تقرقر، فو الله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين.

وحدثني أخ صالح، هو ميسور، لكن في بعض الأزمات الطاحنة قديماً، امتنع عن شراء الأشياء غير المتوافرة لعامة الناس، مواساة لهم، لئلا يتميز عن الناس.

فالمواساة: أن تواسي أخاك في مالك، وجاهك، وخدمتك، ونصيحتك، وإرشادك، وبالدعاء، وبالتوجع له.

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من أقال عاثراً من عثرته، أقال الله عثرته))

طبعاً أوضح أنواع المواساة: أن تقيل مسلماً من عثرته، وهذا من الأعمال الصالحة الطيبة.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ...))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

أنت في حاجة أخيك، واللهُ في حاجتك:

كن لي كما أريد، ولا تقل لي بما يصلحك.

الله عز وجل شكور، فإذا خدمت عباده، وواسيتهم، أطعمتهم، طمأنتهم، نصحتهم، أقلت عثرتهم، عدت مريضهم، أمددتهم بالمال، فالله في حاجتك، والله في عونك، والله الموفق.

المواساة أنواع -أيها الأخوة-: قد تجد أخاً يحتاج إلى المال فقط، وقد تجد أخاً يحتاج إلى عمل، وقد تجد أخاً يحتاج إلى كلمة طيبة، عنده مشاعر حساسة، هو في موقف ظلم فأحياناً الكلمة الطيبة تكريم لهذا الأخ، وردّ كرامته له هذه أكبر مواساة، إنسان بالمال، إنسان بتأمين عمل، إنسان برفع معنويات، وإنسان مظلوم أكبر مواساة له أن ترفع عنه الظلم، إذا كان لك جاه، ولك صديق قوي، بإمكانه أن ينصفه، هذه أكبر مواساة، وقد تكون المواساة بأن تشارك الناس في أفراحهم، هذه مواساة.



الكلمة الطيبة مواساة

من دعي فلم يلبِّ فقد عصى أبا القاسم.

أو أن تشاركهم في أحزانهم، أو أن تضع الدين عنهم، دخله يكفيه، لكن عليه دين، لا يطيق سداده، أو أن تقنع الدائن أن يرجئه في سداد الدين، هذه مواساة.

وبالتعريف الجامع المانع: المواساة: أن يكون المسلم في حاجة أخيه، وهذا الذي تشير إليه الآية الكريمة:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة الآية: ٢٤٥]

أنت حينما تواسي أخاً مسلماً، أو أخاً في الإنسانية، أو مخلوقاً، حيوانًا أليفًا مكسورة يده، هذه مواساة، أنت حينما تواسي مخلوقاً كأنك تقرض الله قرضاً حسناً، والسداد في الدنيا وفي الآخرة،



مساعدة الحيوان الجريح من المواساة

لأن الله عز وجل شكور، إذا كنت في خدمة عباده كان الله في حاجتك .

يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَن لقي أخاه بما يحب ليسره بذلك، سره الله عز وجل يوم القيامة))

أحد أبواب العمل الصالح أن تدخل على أخيك السرور، ما الذي يسره؟ أن تزوره في بيته، أن تلبي دعوته.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((والله لو دعيت إلى كراع بالغميم لأجبت))

كأن تدعى إلى مكان بعيد يحتاج إلى ساعة على كأس من الشاي فقط، فالإنسان يعد الخطوات مع اللقمات، العوام يوازنون بين الخطوات واللقمات، لكن المؤمن يعد الأجر، فقد تذهب إلى مكان بعيد، والضيافة متواضعة جداً، والناس الذين دعوك ليس لهم شأن كبير في الدنيا، لذلك أنا أقول: تلبية دعوة الأغنياء من الدنيا، تجد الغني إن سافر يهنّأ، مرض يعاد، دعا يلبى، الفقير أحياناً يموت ولا أحد ينتبه له، فهذا الذي يعود مريضاً فقيراً، يلبي دعوة إنسان فقير، يجبر خاطره، هذه من أعظم المواساة، ليست كل تلبية دعوة من الأعمال الصالحة، هناك تلبية دعوات من الدنيا، لكنّ أخاك الذي يدعوك.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((والله لو دعيت إلى كراع في الغميم لأجبت))

تلبية الدعوة من المواساة، أبواب المواساة لا تعد ولا تحصى.

نموذج طرحته لنا السيرة عن المواساة:

سأعطي مما في السيرة من المواساة:

فعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ فَسَلَّمَ، وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَتَمَعَّرُ -أي تذهب نضارته من الغضب-، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ،

فقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ؟ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا))

وفاء النبي بمستوى العقل لا يصدّق، أنه بعثني الله عز وجل والناس كذبوه، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، وفي رواية: فاحفظوا له ذلك.

((ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر))

عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ، أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ، وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ، مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ، قَالَ: لَا مَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أيها الأخوة، لن تقوم لنا قائمة إلا إذا أحب بعضنا بعضاً، وإلا إذا بذل بعضنا لبعض، المسلمون أسرة واحدة، لا يهنأ واحد إذا كان الطرف الآخر في ضيق، طبق نظام الأسرة المتواضع على مجموع المؤمنين.



عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، وَقَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

الحياة تعاون، الحياة بذل، الحياة تضحية، والإنسان كلما كان أشد مواساة لأخوانه، كلما كان أقرب عند الله، أو بالعكس: كلما ازداد إيمانه، اشتدت مواساته لأخوانه.

في الإسلام شيء اسمه: إعجاب سلبي، فكره إسلامي، وعواطفه إسلامية، ومشاعره إسلامية، وأرضيته إسلامية، وخلفيته إسلامية، ونوازعه إسلامية، لكنه ليس مسلمًا؛ الإسلام حركة، الإسلام عمل، الإسلام بذل، الإسلام عطاء، هكذا كان أصحاب رسول الله.

ذكرت في الخطبة: أن المظاهر الإسلامية الآن صارخة، لكن ليس هناك حب، قد تجد أخًا يموت من الجوع، وأخوه معه مئات الملايين، أخوه النسبي، ليس هناك مواساة، لا مواساة بين الجار وجاره، ولا بين الأخ وأخيه، ولا بين المسلم والمسلم، أحياناً أستمع إلى قصص يدمى لها القلب، وحول هذا الشخص أغنياء جداً، لا أحد يعنيه، كل واحد غارق في شهواته وفي مصالحه وملذاته، لذلك تخلى الله عن هؤلاء المسلمين، هؤلاء ليسوا مسلمين بالمعنى الدقيق للإسلام، هؤلاء لهم إطار إسلامي فقط، أما الإسلام فشيء آخر، لذلك:

عَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: فُكُّوا الْعَانِيَ -يَعْنِي الْأَسِيرَ-، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ))

وفي ملمح بالسيرة -أيها الأخوة-: السيدة خديجة لم يأتِ الوحي بعد، لم تأتِ الرسالة، لم يأتِ التشريع، لم يأتِ التوجيه الإلهي إطلاقاً، لما جاءه الوحي ورأته قلقاً، قالت للنبي صلى الله عليه وسلم:

((والله لا يخزيك الله أبداً -من علّمها ذلك؟ الفطرة- إنك لتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر))



يعني هذا الإله العظيم، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يتخلى عن إنسان محسن، الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك؟. هكذا تقول السيدة خديجة: والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر، وتكسب المعدوم.

أقول لكم بالقياس: إذا كان الرجل -من الأخوة الكرام- مستقيمًا محسنًا، مهما تكن الظروف صعبة، مهما تكن العقبات كأداء، مهما تكن الضغوط شديدة، الله معه، وسينصره، وسيؤيده، وسيحفظه، وسيوفقه:

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك؟

إن لم نكن على قلب رجل واحد فلا نعرف الإسلام:



من المواساة: طعام الاثنين كافٍ للثلاثة، وطعام الثلاثة كافٍ للأربعة.

وفي حديث آخر عن المواساة:

((لا يزال الله في حاجة العبد ما دام في حاجة أخيه))

بصراحة الآن قل: ألف مليون دولار، هذا كلام، كم هي المسافة بين أن تنطق بهذا الرقم وأن تملكه؟ كم هي المسافة؟. أشهد الله أن المسلمين اليوم يتحدثون عن الدين، وعن الأخلاق، وعن ... وهم ليسوا في هذا المستوى، كمن ينطق بهذا الرقم ولا يملكه، والمسلمون الأوائل ينطقون بهذا الرقم ويملكونه، لذلك راياتهم رفرفت في الآفاق، أما حال المسلمين الآن فالعقل لا يصدقه، المسلم بلا ثمن، يقتل بلا ثمن، أرضه مستباحة، دياره مستباحة، ثروته مستباحة، كرامته مستباحة، لأن الإسلام عندهم نطق بكلام، وليس فعلا بحال.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((من أقال مسلماً أقال الله عثرته))

يقول إبراهيم بن أدهم: المواساة من أخلاق المؤمنين.

قال بعض الصحابة الكرام: كان سيدنا جعفر أبا المساكين، كان يذهب إلى بيته، فإذا لم يجد لنا شيئاً، أخرج لنا عكة أثرها عسل فنشقها ونلعقها.

بعض الصحابة إن رأى مسكيناً يقول: اذهب واقترض على اسمي.

يقترض على اسم هذا المحسن.

عن أبي حمزة الثومالي -رحمه الله- قال: إن علي بن الحسين كان يحمل الخبز في الليل على ظهره، يتبع في المساكين في الظلمة، ويقول: إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب، ومات علي بن الحسين ووجدوا في ظهره أثراً مما كان ينقل الجرب بالليل إلى منازل الأرامل. أيها الأخوة، من لم يحمل هم المسلمين لم ينتم إليهم، هذا الذي في بحبوحة ويعيش وحده، ولا يعبأ بالناس، ليس من المسلمين، من لم يحمل همهم لا ينتمي إليهم، وهذه الرحمة بقدر الإيمان، بقدر ما في قلبك من الرحمة يكون قربك من الله عز وجل:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الزمر الآية: ٢٢]

من فوائد المواساة: أنها تورث محبة الله عز وجل، وتورث محبة الخلق، ما قولك أن تجمع بين محبة الله ومحبة الخلق، وتشيع روح الأخوة بين المؤمنين، وتقوي العلاقات بين المسلمين، وتساعد على قضاء حاجات المحتاجين، وسد عوز المعوزين، تدخل السرور على المسلم، وترفع من معنوياته، فيقبل على الحياة مسروراً؟

فالمواساة هي الدين، والحقيقة: أن الدين معاملة، والدين بذل، والدين عطاء، إنك في دار عمل والآخرة دار جزاء، إنك في دار تكليف والآخرة دار تشريف.

فيا أيها الأخوة، هذا الموضوع اخترته لرمضان، لأن موضوع رمضان موضوع المواساة، وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وكلما نما عملك الصالح المخلص ارتفع قدرك عند الله عز وجل، والدليل: أن الإنسان لما يأتيه ملك الموت لا يندم إلا على شيء واحد:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون الآية: ٩٩-١٠٠]

والآن العمل الصالح متاح، ولا تنسوا هذا الحديث:

مر النبي -عليه الصلاة والسلام- مع أصحابه بقبر فقال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم، خير له من كل دنياكم))

لو معك ألف مليار؛ ركعتان، أو عمل صالح، أو عبادة، أو صيام، أو صلاة خير له من كل دنياكم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٠٣-٣٢) : الورع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة: موضوع الدرس اليوم الورع فقد قيل في الورع: ترك ما يريبك، ونفي ما يعيبك، والأخذ بالأوثق، وحمل النفس على الأشق.
وقيل: النظر في المطعم واللباس وترك ما به بأس.
وقيل: تجنب الشبهات ومراقبة الخطرات.
والورع أيها الإخوة: اجتناب عن الشبهات إما فعلاً أو تركاً، فقد تفعل شيئاً من الورع، وقد تدع شيئاً من الورع، لكن بعض العلماء يرى أن كمال الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين، وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح.
فقد قال بعض العلماء: الشريعة مصلحة كلها، رحمة كلها، حكمة كلها، عدل كلها، فأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة، ومن العدل إلى الجور، ومن الحكمة إلى خلافها فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل، لكن الورع ليس في الواجبات، وليس في الفرائض، ولكن في المحرمات والمكروهات، هناك ورع واجب، وهو الإحجام عن المحرمات، وهذا فرض، وهناك ورع مندوب ؛ ترك الشبهات، وهناك ورع من الفضائل ؛ هو الكف عن المباحات، والاقتصار على أقل الضرورات، وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين.
ورع فرض، وورع واجب، وورع فضل، فالفرض ترك المحرمات، والواجب ترك الشبهات، والفضيلة أن تدع المباحات احتياطاً.
الورع أيها الإخوة، متعلق أحياناً بالأعضاء، فهناك ورع في النظر، وورع في السمع، وورع في الشم، وورع في اللسان، وورع في اليد، وورع في البطن، وورع في الفرج، وورع في السعي، وورع في الشراء والبيع، وقد قيل: " ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط ".
هذه تعريفات، لكن النصوص الشرعية وعلى رأسها أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة يقول عليه الصلاة والسلام:

((فضل العلم خير من فضل العبادة))

[أخرجه الطبراني في الأوسط والبزار عن حذيفة بن اليمان]

يعني إذا كنت متفوقاً في العلم أفضل ألف مرة من أن يكون العلم قليلاً والعبادة كثيرة،

(فضل العلم خير من فضل العبادة)، لأن العابد ينتفع لنفسه، لكن العالم ينفع غيره ، العالم أمة، أما العابد فهو واحد، مع أن العبادة شيء ثمين جداً، لكن لو وازنا العبادة مع العلم لكان العلم أفضل،

لكن لو وازنا العبادة مع المعصية، العبادة قمة، العبادة شيء ثمين جداً، لكن لو وازنها مع العلم لكان العلم أفضل، أما لو وازنها مع التفلت لكانت العبادة قمة الفلاح والنجاح، يقول عليه الصلاة والسلام:

((فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع))

فأعلى درجة في الدين أن تكون ورعاً.

عن واصبة بن معبد صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، قال:

((جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أسأله عن البر والإثم فقال عليه الصلاة والسلام: جئت تسأل عن البر والإثم، فقلت والذي بعثك بالحق ما جئت أسألك عن غيره، فقال: البر ما انشرح له الصدر والإثم ما حاك في صدرك وإن أفتاك الناس وأفتوك))

[أخرجه أحمد في مسنده]

كأن الله سبحانه وتعالى فطر الإنسان فطرة سليمة، هذه الفطرة تكشف له خطئه، فقد تنقبض نفسه من فعل معه فيه فتوى.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((أيها الناس: اتقوا الله وأجملوا في الطلب ؛ فإن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب: خذوا ما حل، ودعوا ما حرم))

[أخرجه ابن ماجة عن جابر]

هذا من الورع، من أمثلة الورع التي رواه النبي عليه الصلاة والسلام قال: اشترى رجل من رجل عقار له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب.

من يفعل هذا الآن، قال: أنا اشتريت أرض ولم اشترِ منك ذهباً.

فقال الذي باع الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد ؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا.

كما سمعت بُني على هذا الحديث فلم كرتون، للصغار ولقد لاق نجاحاً كبيراً جداً لو أن ما نعطيه للصغار مقتبس من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام لوجدت جيلاً غير هذا الجيل، لكن حتى الذي يعطى للصغار، يعطى فيه الفسق والفجور والإباحية والإلحاد، ونحن في أمسّ الحاجة اليوم إلى مادة تقدم للصغار مقتبسة من دين هذه الأمة، بينما الذي يقدم للصغار مقتبس من قيم ومبادئ بعيد كل البعد عن تراث هذه الأمة، الآن يقول عليه الصلاة والسلام يطمئن الورعين:

((إنك لن تدع شيئاً ـ لن لتأبيد النفي ـ لن تدع شيئاً اتقاء لله عز وجل إلا أعطاك الله خير منه))

[رواه أحمد عن قتادة وأبي الدهماء عن رجل من البادية]

وأنا أذكر دائماً أنه ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خير منه في دينه ودنياه.

((إنك لن تدع شيئاً اتقاء لله عز وجل إلا أعطاك الله خير منه))

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث وحسن خليقة، وعفة في طعمة))

[رواه أحمد والطبراني وعن عبد الله بن عمرو وإسنادهما حسن]

العفة من الورع، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

هناك مقولة شائعة بين الناس: كلما طلبت من إنسان أن يكون مستقيماً، قال لك: أنا لست نبياً، ومن قال لك إنك نبي، لكنك مؤمن، وأنت مأمور أن تفعل ما يفعله الأنبياء ، إذا أمرنا الممرض أن يعقم الإبرة هل صار طبيبًا جراحًا ؟! لكن تعقيم الإبرة مكلف به أعلى طبيب في الأرض، وأقل ممرض في الأرض، وليس المعنى إذا طالبنا أن يعقم هذه الحاجة ارتقى إلى مستوى طبيب جراح، لا، يبقى ممرضًا، فإذا كلفك الله عز وجل أن تستقيم ما معنى أنك نبي، لست نبيًا، ولا واحدًا بالمليار، من آخر مؤمن، لكنك مكلف أن تطيع الله عز وجل.

للتقريب: لو أن أعظم إنسان في الأرض، عنده مستودع للوقود السائل، هل يمكن أن يكون هذا المستودع غير محكم مستحيل ؟ وأفقر إنسان على وجه الأرض عنده مستودع للوقود السائل هل يقبل أن يكون هذا المستودع غير محكم ؟ الإحكام قضية حدية لكل الناس، أما البذل والعطاء بحسب الوسع وبحسب الإخلاص والإيمان، العطاء نسبي أما الاستقامة حدية.

أيها الإخوة: وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن حبان في صحيحه عن الحسن]

إذا تناول واحد منكم طعام الإفطار، اشترى طعام بماله الحال، والزوجة طبخت هذا الطعام، وجلس هو وأولاده على هذه المائدة التي اشتراها من ماله الحلال، وأكل ممكن تجد الإنسان في الأرض يأتي الشيخ، ويسأله أنا هل فعلت شيئاً، بالفطرة ما فعلت شيئاً، لكن لا تسأل عن قضية إلا وأنت شاك فيها، لمجرد أنك تسأل ففي النفس قلق، يا ترى أنا على حق، على باطل ؟ على صواب، على

خطأ ؟ فأنت مجبول جبلة راقية جداً حيث إنك إذا أخطأت نفسك تنبئك أنك أخطأت، من دون إنسان آخر.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨))

(سورة الشمس)

هذه الجبلة العالية، هذه الفطرة، الفطرة تكشف خطأك بنفسك، بل إن هذه الفطرة مركبة في الحيوان والدليل: أن القطة خطفت قطعة لحمة تأكلها بعيدة عنك، لأنها تعلم أنها أخطأت، أما إذا أطعمتها قطعة لحم تأكلها أمامك، ولا تهرب بها، هذه بفطرتها أيضاً، فأنت مجهز بطريقة عجيبة أنك تعرف خطأك بنفسك، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن البر، قال:

((البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس))

يقدِر بائع الحليب أن يضيف الماء إلى الحليب أمام الشاري، مستحيل ؟ لأنه يضيفه خفية عنه فالعمل غير صحيح، الحق تفعله تحت ضوء الشمس، الحق تلقيه في الإذاعة الحق لا يستحي به، ولا يخشى البحث، ولا يحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تبالغ به، ولا أن تقلل من خصومه، الحق هو الله، فالشيء الحق تقوله بملء صوتك وعلى مسمع الناس ومراهم ، وتحت ضوء الشمس، الباطل يحتاج إلى أقبية، إلى أمكنة مظلمة، يحتاج إلى مواربة، يحتاج إلى همس، أما الحق تنطق به جلي واضحاً.

أيها الإخوة: من الورع طلب الحلال، وطلب الحلال من الدين، وطلب الحلال فريضة بعد الفريضة، ملايين الطرق لكسب المال أكثرها محرمة، ولحكمة بالغة بالغة، جعل الله كسب المال الحلال صعباً، وجعل كسب المال الحلال سهلاً، الآن أربح تجارة على وجه الأرض، المخدرات، أحياناً الربح من بلد الزراعة إلى بلد الاستهلاك ألف ضعف، الكيلو ألف بمكان زراعته مكان استهلاكه مليون، ألف ضعف، فقضية كسب المال الحرام قضية سهلة جداً، الآن امرأة تعمل ثماني ساعات ما تأخذه العاهرة في دقائق، فالحلال شاءت حكمة الله أن يكون صعباً امتحاناً للبشر، تصور لو أن الحلال سهل والحرام صعب، لأقبل الكفار على الحلال، ما عاد في جنة التغت الجنة، لكن الله جعل الحلال صعباً، والحرام سهل، غض بصر تأخذ خمس ملايين، إذا كنت بمكان حساس، غض بصره فقط، مستودع تجاهله هذه خمسة ملايين، في بضاعة خمسمئة مليون لأنه، إذا تعمل مشكلة تبيعه كل شيء يملكه، بس غض البصر تأخذ خمس ملايين، فطلب الحلال واجب على كل مسلم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((اتق المحارم تكن أعبد الناس))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

يعني قيام ليل، وصيام أثنين وخميس، وصلاة الضحى، والأوابين، والقيام والتلاوة، والحفظ، ومن لم يقرأ خمس ينسى، لو أنك ورع وتترك المال الحرام تكون أفضل العابدين، لذلك قال بعض العلماء: "ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام".

دانق من حرام، لأنك إذا كسبت المال الحرام هذا المال الحرام حجاب بينك وبين الله.

((اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس))

هذه زوجتك، دائماً ناقم على سوء اختياره لهذه الزوجة، هذه زوجتك الله أكرمك بها.

((وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب))

لكن الورع الذي يرتقي إلى مستوى الواجب، لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس

هذا من أقوال النبي، فما من أفعاله في الورع ؟ للنبي عليه الصلاة والسلام سيرة، وأحاديث، سنة قولية، وسنة عملية، وسنة إقرارية، فمن سننه العملية

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الحسن بن على رضي الله عنهما أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((كخ كخ أما تعرف أنّا لا نأكل تمر الصدقة))

يعلم طفلاً صغيراً ، هذا التمر من تمر الصدقة، أما مثل الجبانة لا يرد ميتًا، كل شيء يأخذه، هيك الناس الآن، ويعد نفسه شاطراً، والمشكلة أيها الإخوة القيم تبدلت ، فالذي يأكل مالاً حرام يعد عند الناس ذكياً شاطرًا، يقول لك: دبر أموره، والفتاة المتفلتة اسمها (سبور)، والإنسان الذي يأكل المال الحرام اسمه شطر، والمنافق اسمه لبق، والذي يقحم نفسه في هموم المسلمين ويبحث عن حل لها اسمه متهور، والذي يتمسك بأهداب الشريعة اسمه متزمت، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: نعم والذي نفسي بيده، وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله قال: كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا ورأيتم المنكر معروفا ؟ قالوا: وكائن يا رسول الله قال: نعم وأشد منه سيكون، يقول الله: بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران))

[أخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة]

تبدلت القيم، القيم كلها تبدلت من سننه العملية أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها))

[عن أبي هريرة رضي الله عنه]

تمرة رآها النبي على فراشه، أمسكها ليأكلها ثم أحجب، قال لعلها من تمر الصديقة، هذا من ورع النبي عليه الصلاة والسلام.

وسيدنا الصديق حينما علم أنه شرب لبناً بمالٍ حرام تقيئه.

أيها الإخوة الكرام: الورع كما يقولون: زينة العلم الورع والحلم، وقد قال بعض العلماء: إنما أهلك الناس فضول الكلام وفضول المال، يعني مال مكتسب من شبهات.

والله زرت صديقاً لي في أحد الأعياد والده عمره ست وتسعون سنة، قال لي بالحرف الواحد: أجريت تحليلات كاملة فكانت النتائج كلها طبيعية، إنسان يجري تحليل دم، وتحليل بول بالستة والتسعين، ولا نسبة غير طبيعية !! قال لي والله ما أكلت في حياتي درهماً حراماً، وأضاف: ولا أعرف الحرام بالمعنى الآخر.

من عاش تقياً عاش قوياً، يعني هذا الشيخ السفرجلاني رحمه الله الذي بدأ بالتعليم بالثامنة عشرة، وتوفاه الله بالسادسة والتسعين، علّم تقريباً ثمانين سنة، فكان إذا رأى شاباً يقول له: أنت كنت تلميذي، وكان يا بني أبوك تلميذي، وكان جدك تلميذي.

هذا الذي تمتع بصحة لا تصدق، قامة منتصبة، بصر حاد، سمع مرهف أسنانه في فمه، وأمد الله بعمر زوجته حتى توفيت بعده، فكان إذا سئل: يا سيدي ما هذه الصحة التي حباك الله بها ؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

يقول بعض العلماء: يكفي من الدعاء مع الورع اليسير منه، تصور دعاء محفوظًا غيباً بأعلى مستوى من اللغة، مأخودًا عن النبي، وتدعو الله نصف ساعة، وليس هناك ورع لا ينفع، لكن إذا دعوت باللغة الدارجة ولم تحفظ ولا دعاء مأثورًا، لكن كنت مستقيمًا فهذا الذي ينفع، فالدعاء مع الورع ينفع من دون ورع لا ينفع.

ويقول بعض العلماء: لا يعجبكم كثرة صلاة المرء، ولا صيامه، ولكن انظروا إلى ورعه، فإذا كان ورعاً مع ما رزقه الله مع العبادة فهو عبد الله حقاً، إذا مع هذه العبادة الرائعة ورع جمع مجدي الخير.

يقال: الورع في الفتنة كعابدة النبيين في الرخاء، نحن مؤمنون إن شاء الله في زمن الشدة، وزمن

الفتنة، وزمن الشهوات، وزمن النساء الكاسيات العاريات، وزمن الضلالات، أن يستقيم أحدنا في هذا الزمن، قال: عبادة المؤمنين في زمن الشدة كعبادة الأنبياء في زمن الرخاء.

قال بعض العلماء لغلام: ما ملاك الدين ؟ يعني ما أهم شيء في الدين ؟ قال الورع، قال فما آفته ؟ قال الطمع، ملاك الدين الورع وآفته الطمع.

وقال بعض العلماء: ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه ، وأفضل العلم الورع والتوكل.

كملخص: الورع من أعلى مراتب الإيمان، ومن أفضل درجات الإحسان ويحقق للمؤمن راحة البال، وطمأنينة النفس، والورع كف عن الحرام وبعد عما لا ينبغي والورع إشاعته في المجتمع يجعله مجتمعاً صالحاً نظيفاً، والورع يحبه الله عز وجل ويحبه من خلقه، الورع يستجاب دعاءه.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٠٤-٣٢) : الاستقامة .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: الموضوع اليوم الاستقامة، وفي القرآن الكريم تسع وأربعون آية عن الاستقامة، وفي الأحاديث الصحيحة ما يزيد على عشرين حديثاً في الاستقامة، وفي الآثار عدد كبير جداً من الآثار التي تشير إلى الاستقامة.

أيها الإخوة: بادئ ذي بدء، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: " الاستقامة هي لزوم المنهج القويم "، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ)

(سورة فصلت)

وبيّن أيضاً أن الاستقامة بعدم الطغيان.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا)

(سورة هود)

الآن هذا الذي أراد أن يستقيم له أحوال، فإن كان من أحواله أنه قوي، أو غني، أو أنه يتمتع بتمكين في الأرض أكبر منزلق له الطغيان، فقد يطغى الغني على الفقير، وقد يطغى القوي على الضعيف، وقد يطغى العالم على طالب العلم، الطغيان مذلة الأقوياء.

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

(سورة هود)

إذا أراد الضعيف أن يستقيم عنده منزلق آخر، المنزلق الآخر أن يركن إلى الذين ظلموا، ليأخذ من مالهم، أو شأنهم، أو ما عندهم من الدنيا، أو من دنياهم.

فلذلك أيها الإخوة: الذي أراد أن يستقيم إذا كان قوياً فالمال قوة، والعلم قوة، والسلطة قوة، إن كان قوياً فمزلقه الطغيان.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (٧))

(سورة العلق)

وإن كان ضعيفاً فمزلقه أن يركن إلى الذين ظلموا، فحينما أمر الله المؤمنين أن يلزموا سبيل الاستقامة ذكّرهم أن أمامهم منزلقين، هذان المنزلقان متعلقان بحال المستقبل، فالقوي منزلقه الطغيان، والضعيف منزلقه أن يركن على الذين ظلموا.

أيها الإخوة: الاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات، وقد قال بعضهم: كن صاحب استقامة لا طالب كرامة، فإن نفس الإنسان تتحرك في طلب الكرامة، والله عز وجل يطالبها بالاستقامة.

قبل أن أتابع الحديث لابد من مثل يوضح الحقيقة، عالم التجارة لو أردنا أن نحصي أنواع النشاطات والحركات التي أراد أن يقوم بها التاجر، فهي عديدة جداً، لا تعد ولا تحصى، بدءاً من شراء محل ومستودع ومكاتب وفروع، وتعين موظفين، واستخدام شركات، وجلب البضاعة، وعرضها، وبيعها، وقبض ثمنها، والمحاسبة.

لو ذهبتُ لأعدّد أنواع النشاطات التي يقوم بها التاجر فهي لا تعد ولا تحصى، كل هذه النشاطات إن لم تحقق في البداية ربحاً، لأن التجارة في النهاية تضغط بكلمة واحدة، التجارة يعني أن تربح، فإن لم تربح فلا معنى لكل هذه النشاطات.

يقاس على هذا المثل أن الإنسان ضمن المجال الديني قد يقوم بآلاف النشاطات، فإن لم يكن مستقيماً فلا معنى لكل هذه النشاطات، كيف أن التجارة كلها ضغطت بكلمة واحدة هي تحقيق الربح، كذلك الدين يضغط بكلمة واحدة، هي تحقيق الاستقامة.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت)

فما لم تكن مستقيماً فلا تنتظر من هذا الدين شيء، لك أن تقوم بأكثر شعائره، ولك أن تتزين، وتتباهى، وتؤلف، وتفعل ما تشاء، أما أن تحقق الهدف من الدين، فإن هذا الهدف لا يحقق إلا بالاستقامة، الآيات في الاستقامة كثيرة جداً، نكتفي بقوله تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا)

(سورة هود)

والآية الثانية:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

فالمستقيم ينبغي ألاّ يطغى، وألاّ يركن للذين ظلموا إذا كان ضعيفاً.

أيها الإخوة: مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ))

(سنن ابن ماجة)

وهذا الحديث أصل في الاستقامة، أي أنك إذا استقمت لن تحصي الخيرات التي تأتيك من الله، الخير كله من الاستقامة، أنت تطلب من الله الكرامة، وهو يطالبك بالاستقامة، وقد ورد:

((استقيموا ونِعْم الاستقامة))

(ورد في الأثر)

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ بَعْدَكَ قَالَ قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

(مسند أحمد)

النبي عليه الصلاة والسلام كما أنه يعلّم بأقواله فإنه يستخدم الوسائل المعينة بالتعبير الحديث، الآن هناك مادة في كلية التربية اسمها الوسائل المعينة، إيضاحات، مصورات...

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَّ خَطًّا وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ فَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ]))

(ابن ماجه، أحمد)

الخط المستقيم هذه الاستقامة الموصلة إلى الله، وعن يمين هذا الخط خطوط مائلة وعن الشمال خطوط مائلة على رأس كل خط شيطان يدعو على هذا الطريق.

مثل آخر: عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ))

(مسند الإمام أحمد)

هذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام، الطريق الموصلة إلى الله واحدة، إلى أن الطريق الموصلة لمرضاته، هذا الطريق متعدد، الطرق الموصلة لمرضاة الله عز وجل لا تعد ولا تحصى.

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ:

((سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))

(صحيح مسلم)

أيها الإخوة: ماذا عن أقوال السلف الصالح، وعلى رأسهم الصحابة الكرام في شأن الاستقامة ؟

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن الاستقامة فقال: " ألاّ تشرك بالله شيئاً "، فهم عن الاستقامة استقامة العقيدة، وسيدنا عمر عندما سئل عن الاستقامة قال: " أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب "، الحيل الشرعية والفتاوى الضعيفة والتأويلات الباطلة، هذا رأي سيدنا عمر، وسيدنا عثمان قال: " استقاموا، أخلصوا العمل لله "، فسر الاستقامة بالإخلاص، وسيدنا علي فسرها بأداء الفرائض، وسيدنا الحسن قال: " استقاموا على أمر الله عملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته" ، ومجاهد قال: " استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله عز وجل "، وبعض العلماء يقول: " أعظم الكرامة لزوم الاستقامة "، ويقول أيضاً: " استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة ".

أيها الإخوة: كما قلت قبل قليل: يمكن أن يضغط الإيمان كله بعد الإيمان بالله بالاستقامة، ولأن تعريف العبادة: طاعة طوعية هي الأصل الطاعة، لكن سببها العلم، ونتيجتها السعادة، ففي العبادة جانب معرفي هو السبب، وجانب سلوكي هو الأصل، وجانب جمالي هو السمع.

فما لم تستقم فلا يمكن أن تقطف الثمرة، وما لم تعلم فلا يمكن أن تستقم، الحقيقة ثلاثة حدود، تعرف الحقيقة فتستقيم، تستقيم فتسعد، وحينما خلقنا الله عز وجل خلقنا ليسعدنا بعبادته بعد أن نعرفه، تعرفه، فتطيعه، فتسعد بحبه، لن تستقيم على أمره إلا إذا عرفته، ولن تسعد بقربه إلا إذا أطعته، تعرفه تستقيم على أمره تسعد بقربه.

فلذلك بالتعبير الدارج بين أصحاب المهن يقول: ضربة معلم، فإذا دعوت إلى الله، وركزت على الاستقامة فهذه ضربة معلم، هذا الإنسان إذا استقام اتصل بالله، وقطف كل ثمار الدين، شعر بالقرب والراحة والطمأنينة والأمن والتوفيق، شعر أن الله يحبه، كل ثمار الدين من الاستقامة.

فيجب أن نلحّ على الاستقامة، أما إذا ألححنا على طلب العلم فقط، يوجد اتجاه خطر في الإسلام الآن يسمى بالتعبير المتداول إسلام صالونات، كل الأوراق الرابحة سقطت الآن، لم يبق في أيدي الناس إلا ورقة الدين، فالذي لا يلتزم منهج الله إذا جلس يتكلم باسم الدين، الآن بعد وقوع كل النظم والمبادئ الوضعية في الوحل لم يبق إلا الدين.

فالذي أراد أن يرتفع بين الناس الآن يتكلم بالدين، ما من طريق لتعلو، إن أردت أن تؤلف كتاباً، وأن يروج يجب أن يكون كتابًا دينيًّا، فعلى مستوى الكتب والمحاضرات الدين، فكل من أراد العلو

في الأرض ليس له من سبيل إلا الدين، فنشأ اتجاه جديد هو الإسلام، ولا علاقة له بالإسلام، إسلام فكري فقط، فهو لا يصلي، وينتهك معظم الحرمات، ولكن إذا أراد أن يتحدث تحدّث بقيم الدين كي يتعامل مع العملة الرائجة.

فلذلك الدين في الأصل استقامة والتزام، ولزوم المنهج، فالإنسان حتى يوفر وقته، ويقطف ثمار اتجاهه لا يفكر أن يربح إذا بقي على مستوى الثقافة، لأن الدين من دون استقامة ثقافة أو عادات أو تقاليد أو فلكلور أو تراث، يقولون: التراث الإسلامي، الدين وحي أو التزام.

وفي القرآن الكريم ما يزيد على مئتي آية تتحدث عن الإيمان، ما من آية تحدثت عن الإيمان إلا وجاء بعد الإيمان العمل الصالح، وأوضح شيء قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

أن تقول: ربنا الله دون أن تستقيم لا معنى لذلك، وكنت أوضح هذه الحقيقية بإنسان مريض في جلده، وقد وصف له الطبيب أن يتعرض لأشعة الشمس، فجلس في غرفة قمئة بعيدة عن الشمس، هو متكلم فصيح أديب، فإذا أسمَعَنا من كلمات في مديح الشمس، يا لها من شمس ساطعة، إنها في كبد السماء، إنها شمس مطهرة لأمراض الجلد، مهما تحدثت عن الشمس وأنت قابع في الظلام فحديثك ليس له قيمة إطلاقاً، ولا يقدم ولا يؤخر، من أجل أن نوفر أوقاتنا، ومن أجل أن نقطف ثمار هذا الدين، ومن أجل أن نلقى الله سعداء بقربه يجب أن ينتقل النشاط الديني من نشاط الأقوال إلى نشاط الأفعال.

فعندما يبقى الدين أقوالا يسمى ظاهرة صوتية، والصوت يختفي فجأة، أنت قد تأتي بأكبر آلة تسجيل، وترفع الصوت إلى أعلى مستوى، هذه الآلة تملأ المكان ضجيجاً ونغماً، يكفي أن تقطع الكهرباء عن هذه الآلة، فإذا بقي الإسلام ظاهرة صوتية أقلّ حدث طارئ يلغي الإسلام، أما الإسلام إذا كان استقامة فإنه يصمد كالجبال، (أَحَدٌ أحدٌ) ما أساسها ؟

المستقيم لا يصرفه عن دينه لا سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، الدين استقامة، لأن بالاستقامة قطف ثمارها، إذا دعي إنسان لطعام، فحضر، لكن لم يأكل، المرة الثانية زهد في هذا الحضور لم يأكل شيئًا، فإذا كان على المائدة صحون وأدوات غالية الثمن جداً، ولا يوجد طعام إذا دعي مرة ثانية لا يأتي، المجيء مملٌّ، فإذا لم يتوج الإسلام بالاستقامة فهو مملّ، تألفُه، والله قال:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

(سورة النساء)

وقال:

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾

(سورة البقرة)

الصلاة صعبة جداً، عشر ساعات يمضيها الإنسان في لهو دون أن يشعر، أما أربع ركعات فيجدها ثقالا ! قرأ الإمام: مدهامتان، قال: أطلت قال: كلمة واحدة في ركعة واحدة ! كل ركعة قل: مد هامة.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾

فهذا الإسلام أساسه الاستقامة، فأنت حينما تستقيم تصبح مع الله، لذلك الأوراد والأذكار من دون استقامة مملّة، وثقيلة على الإنسان، لكن الأوراد والتلاوات مع الاستقامة مسعدة، فأنا اخترت هذا الموضوع في رمضان تحديداً، فما لم تستقم على أمر الله فلا تنتظر من الدين شيئاً، كيف تأخذ شهادة الحقوق ؟ معلومات، تتعلم القوانين والأحكام، مراتب المحاكم، أنواع الأحكام، معلومات. إذا تركت الاستقامة فالدين لا يزيد على أن يكون ثقافة، هذا معه اختصاص طب، هذا هندسة، هذا شريعة، اختصاص من هذه الاختصاصات لا تقدم ولا تؤخر، لكنك إذا استقمت فأنت إنسان آخر.

لذلك أيها الإخوة: كنهاية لهذا الموضوع هناك علم بالله، وبأمره، وبخَلقه، العلم بخلقه الجامعات في الأرض، فيزياء، كيمياء، طب، هندسة، فيزياء نووية، كيمياء عضوية..... هذه علوم الأرض، وعلوم خلقه، من اختصاص الجامعات في العالم.

أنشتاين أعلم علماء الفيزياء مات، وانتهى بموته، والعلم بأمره كليات الشريعة، هنا معلومات، وقوانين، وهنا معلومات وقوانين، طالب الشريعة عنده مراجع ومصادر وكتب ومنهج بحث، وأدلة نقلية وعقلية، علم آخر كالفيزياء تماماً، لكن ما لم تعرف الله، والعلم بذاته، وتتقرب إليه، وتجاهد نفسك وهواك فلن تصل مع الله إلى شيء.

فالحقيقة المُرة أفضل ألف مَرة من الوهم المريح، أحياناً تلاحظ أن الإنسان يتعلق بأشياء في الدين لا تكلفه شيء، يقوم ببعض العبادات، لكن عند الشهوات ضعيف، لذلك هذا لا يستطيع أن يتصل بالله عز وجل، يبقى الدين عنده نماذج أو عادات أو تقاليد، لكن في النهاية الدين من دون استقامة مملٌّ، وفيه تدهور، وتجده ينتقل من حال إلى أسوأ، إلى أسوأ منه، فيترك الصلاة.

أوضح مثل: طالب علم سافر إلى بلد غربي، أول أسبوعين لزم الصلاة، فلما أطلق بصره في الحرام تململ في الصلاة، ثم ارتكب الزنى، الآن بينه وبين الله حجب كثيفة من الصعب أن يخترقها.

ثمة قصة سمعتها قبل أيام عن رجلٍ كان صالحاً جداً، فلما فارق الاستقامة انفتح عليه باب التدهور، وأنت متماسك ما دمت مستقيماً، فإذا خرقت الاستقامة فقدت هذا التماسك، فالذي أتمناه على نفسي وعليكم أن نلزم الاستقامة حتى يأتينا اليقين، وهو الموت، والإنسان أحياناً ينتكس، وقد ينتكس في وقت متأخر، فما لم يكن مع الله، ويلزم حدود الشرع ومجالس العلم يخسر كل شيء.

والله أيها الإخوة، هذا المجلس أو أي مجلس علمي آخر هذا أحد الحصون التي تمنعك أن تنزلق،

عملية شحن، وأنت شبّه نفسك بهذا الهاتف الخلوي، إذا لم تشحنه ينتهي، وأنت تحتاج إلى شحن مستمر حتى تتكلم، المجلس العلمي فيه شحن، الخطبة فيها شحن، التقيتَ مع إنسان صالح تُشحَن، لابد أن يكون لك مرجع أو شاحن، إذا سافرت تأخذ الهاتف مع الشاحن، إذا نسيت الشاحن فلا داعي للهاتف، أليس كذلك ؟ فالشاحن هو الاتصال بالله ومجلس العلم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٠٥-٣٢) : الإنصاف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يعلو شأن الإنسانية عند الله إلا إذا أنصفت ذاتها بذاتها:

أيها الأخوة الكرام، من أبرز صفات المؤمن الإنصاف، ينصف الناس من نفسه، الإنصاف هو العدل، الإنصاف والعدل توأمان، الإنصاف والعدل نتيجة علو همة المؤمن، فمن أنواع الإنصاف: أن ينصف الإنسان نفسه من نفسه، أن يعرف قدرها، فلا يضعها فوق ما تستحق، ولا يذلها فيضعها دون ما تستحق، وإنصاف النفس من أجل صفات المؤمن، فإذا أنصف نفسه أنصف الآخرين، وإذا عرف قدره كان عزيزاً، وإذا عرف قدر الآخرين كان موضوعياً، وما من قيمة يلتقي بها العلم والدين إلا قيمة الموضوعية، فهي قمة صفات العالم، وهي قمة صفات المؤمن: أن تكون موضوعياً.

فالنبي -عليه الصلاة والسلام- بلغه عن طريق الوحي، أن حاطب بن بلتعة، وهو أحد أصحابه، قد أرسل كتاباً إلى قريش، يخبرهم بأن محمداً سيغزوهم، وتعلمون أن هذه خيانة عظمى في كل تاريخ البشر، وفي كل الأنظمة، والذي يقوم بهذه الخيانة يستحق القتل في كل الأنظمة والمجتمعات، فلما جيء بالكتاب من المرأة التي ذهبت إلى قريش، أدركوها في نصف الطريق، وكتب فيه: من حاطب بن بلتعة إلى قريش، إن محمداً سيغزوكم، استدعى حاطباً، وقال:

((ما هذا يا حاطب؟ قال عمر قبل أن يتابع النبي -عليه الصلاة والسلام- تحقيقه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: لا يا عمر، إنه شهد بدراً.

-الآن ارتكب خيانة عظمى، إلا أن له سابقة، إنه شهد بدراً.

لما رأى النبي من بين الأسرى صهره، زوج زينب وقع أسيراً، أي كان مقاتلاً، أي أراد أن يقتل أصحاب النبي، هذه الحرب، فلما نظر إليه قال: والله ما ذممناه صهراً .

صدقوا أيها الأخوة: إنه ما من صفة تسقط الإنسان من عين الله إلا أن يكون غير منصف، فابنته لها معاملة، وزوجة ابنه لها معاملة، أخطاء ابنته مغفورة، أما أخطاء زوج ابنته فليست مغفورة، هذا الذي يستخدم مكيالين.

إن لم تكن منصفاً لدينك فلست منصفاً:

ترون أنتم الآن: كيف أن هذه الدول الكبرى إذا قال إنسان مسؤول كبير عندهم: إله المسلمين وثن، سوف نحاربهم لأنهم شياطين، اتهم ثلث سكان الأرض، اتهم دينهم ونبيهم وإلههم ومقدساتهم، لا أحد ينطق بكلمة، إذا قال شخص في مؤتمر: إن اليهود يخططون للسيطرة على العالم تقوم الدنيا ولا تقعد، أي أن تستخدم مقياسين ومكيالين، فهذه صفة من أسوأ صفات الإنسان، لذلك علامة المؤمن الإنصاف، يعرف قدر نفسه، يعرف مكانة نفسه، لا يضعها فوق ما تستحق، ولا يسمح أن تكون دون ما تستحق.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((من جلس إلى غني فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه))

وأن ينصف المرء خالقه، فلا أن يقبل لخالقه صفات لا تليق به، وأن ينصف دينه، فلا يقبل أن يكون الدين متخلفاً عن روح العصر، وأنه نظام لا يصلح للبشرية، مع أنه دين الله عز وجل، وأن ينصف نبيه، فإذا قرأ قصة لا أصل لها ينبغي ألا يقبلها.

مر النبي في الطريق بباب مفتوح، فرأى امرأة تغتسل عارية، وقعت في نفسه فقال: سبحان الله! فجاء الأمر الإلهي أن يا زيد طلقها وتزوجها يا محمد، هذه ليست أخلاق النبي، وهذه قصة لا أصل لها، أنت حينما تقبل عن النبي الكريم قصة لا تليق بمقامه لم تنصفه، وحينما تقبل عن الله مقولة لا تليق بكماله لم تنصف ربك، وحينما تقبل عن كتاب الله شيئاً بعيداً عن سمو هذا الكتاب لم تكن منصفاً له.

أنصف عدوك تملك قلبه:

الإنصاف صفة في الإنسان قلما تلاحظ في غير المؤمنين، لا تلاحظ إلا في المؤمنين، وينبغي أن تنصف العباد، ولو كانوا خصوماً لك، يقول الله عز وجل:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

-الشنآن: البغض الشديد-:

(اعْدِلُوا)

-مع من؟ مع الذين تكرهونهم؟ مع الذين لا تحبونهم؟-:

(هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٨]

والحقيقة: أنت بطل حينما تنصف الناس من نفسك.

كنت في محل تجاري في أحد أيام الأعياد -عيد الجلاء-، فصاحب المحل ابنه في المحل، وابنه في سن موظف عنده صغير، حمّل هذا الموظف بضعة أثواب حتى ضَعُف عن حملها، قال له: لا أحتمل، قال: أنت شاب احمل، فلما حمل ابنه ثوباً واحداً قال له: انتبه إلى ظهرك يا بني، أرأيت إلى موقف أحقر من هذا الموقف؟ فأنت حينما تنصف الناس يحبك الله، حينما تكون موضوعياً، حينما تعامل الناس بالعدل.

قال تعالى:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: ٧]

ولو لم يكن مسلماً، لأنه غير مسلم ينبغي أن آكل حقه!؟ أنت ساقط من عين الله، ولو كان مجوسياً يجب أن تعطيه حقه:

اتقوا دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب.

هنا البطولة، ضمن الأسرة الابن له معاملة غير الفتاة، الصهر غير الابن، زوجة الابن غير البنت، أي دائماً الناس يكيلون بمكيالين، هذان المكيالان يسقطان عدالة الإنسان-.

قال: لا يا عمر إنه شهد بدراً، تعال يا حاطب، ما حملك على ما فعلت؟ قال: والله -يا رسول الله- ما كفرت ولا ارتددت، ولكنني لصيق في قريش، وأنا موقن أن الله سينصرك، أردت بهذا الكتاب أن أحفظ مالي وأهلي هناك، فاغفر لي ذلك يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

هل تستطيع أن تعامل عدوك بالعدل؟ أن تعطيه حقه؟ ينبغي أن تنصف نفسك، وينبغي أن تنصف ربك، وينبغي أن تنصف نبيك، وينبغي أن تنصف قرآنك، وينبغي أن تنصف دينك، وينبغي أن تنصف العباد.

أي إنسان كان يعمل عندك أخطأ، فهل ينسيك هذا الخطأ كل ميزاته؟ لست منصفاً.

شخص دخل ليصلي مع النبي، أسرع فأحدث جلبة وضجيجاً، شوش على أصحابه صلاتهم، فلما انتهى النبي من الصلاة قال له:

((زادك الله حرصاً -أنت حريص على الصلاة- ولا تعد))

أي أنت إذا كنت منصفاً، تعلقت القلوب بك.

أنصف أهل بيتك من نفسك:

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ:

((إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلَامًا، فقالَ: أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ؟ قالَ: لَا، قالَ: فَارْجِعْهُ))

يجب أن تعامل أولادك بالسوية.

يجب أن تعامل زوجتيك بالعدل، لماذا الناس يكرهون التعدد؟ قد تقول المرأة: اذهب وازن، ولا تأتني بضرة، لماذا؟ لأن الناس ما رأوا العدل في التعدد، رأوا الانحياز مع الصغيرة، مع الجديدة، مع الجميلة، معها ومع أولادها، يهمل القديمة، أما لو رأوا الإنصاف في التعدد لما كرهوا التعدد، أحياناً بالتعدد تحل مشكلات لا تعد ولا تحصى، لكن الناس عرفوا التعدد ظالماً، إذاً كرهوا التعدد، أحياناً لا ينصف الإنسان زوجته، يستغل ضعفها، ويكبر أخطاءها، ويتعامى عن فضائلها، هذا ليس منصفاً.

لك جار إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، ليس منصفاً.

لك رئيس في الدائرة، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأل لم يغفر.

أيها الأخوة، ما من خطأ متفش في الناس كعدم الإنصاف، في العلاقات الاجتماعية، في العلاقات الأسرية، قد يكون الابن غنيًا، لكنه غير منضبط بالشرع، وابن آخر غير غني، هل يعقل أن يهمل الابن الفقير لأنه فقير، وأن يحترم الابن الغني لأنه غني؟ مع أن الفقير أكثر ورعاً من أخيه، وأكثر التزاماً، فالذي يحز في نفوس الأبناء: أن الأب لم يكن منصفاً في معاملته، ولا في إرثه، ولا في وصاياه، ولا في عطاياه، النبي -عليه الصلاة و السلام- يقول:

((اعدلوا بين أولادكم ولو في القبل))

أكبر صفة ينبغي أن تتحلى بها: أن تكون عادلاً، رأى صهره جاء ليقاتله، وقع أسيراً قال:

((والله ما ذممناه صهراً))

كصهر ممتاز، أنصفه، هل عندك إمكان أن تنصف خصومك؟.

آداب أهل الإنصاف:

١-بيان حقيقة الدين:

يوجد بعض القواعد من آداب أهل الإنصاف:

أولاً: أنت حينما تريد أن تقيم الطرف الآخر، ينبغي أن يكون القصد بيان حقيقة للناس، لا أن تجرحه، لا أن يشتفي صدرك منه، لا أن تصغره، القصد بيان حقيقة، لذلك لا تستخدم كلمات قاسية،

لا تستخدم شخصه كي تنهش منه، تتحدث عن فكرة يطرحها غير صحيحة، والأدلة على عكسها، هذا أول أدب: أن تتحرى قصدها، أنت لماذا تهاجم فلاناً؟ أنت كإنسان تنطق بالحق، من حقك ومن حق الناس عليك أن يسمعوا منك كلمة العدل في هذه الدعوة، ليس القصد من ذلك أن تجرحه، أن تفضحه، أن تسحقه، القصد أن تبين للناس حقيقة هذا الدين.

٢ -لا يتسرعون في إطلاق الأحكام:

من آداب أهل الإنصاف: أنهم لا يتسرعون في إطلاق الأحكام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات الآية: ٦]

هذا هو الأدب الثاني.

٣-احمل كلام خصمك على أحسن وجوهه:

الأدب الثالث: احمل كلام خصمك على أحسن وجوهه.

هو قال هذا الكلام، ولكن ما قصد هذا الذي تفنده أنت، احمل كلام الطرف الآخر على أحسن الوجوه، ولا تحمل هذا الكلام على أسوأ الوجوه.

قال لك شخص: لله رجال إذا أرادوا أراد، أنت كافر، أنت مشرك، لماذا؟ إذا أراد بهذا الكلام أنهم مستجابو الدعوة، لا يوجد شيء، لماذا أنت حملت كلامه أنهم لهم إرادة مستقلة عن إرادة الله، لماذا؟ احمل كلام الطرف الآخر محملاً حسناً، احمل كلام الطرف الآخر على أحسن الوجوه.

شخص قال: أنا أصلي بلا وضوء، فسيدنا علي قال: يصلي على النبي، بهذا المعنى، قال: أنا أفر من رحمة الله، قال: لأنه يهرب من المطر، لأن المطر رحمة الله عز وجل، شخص قال: أنا لي في الأرض ما ليس لله في السماء، له زوجة وأولاد، فقد تحمل كلام الآخرين على أحسن الوجوه، وهذا من أدب المؤمنين.

٤-ألا تتحدث عن سيئات الطرف الآخر وتتناسى حسناتهم:

من هذه الآداب: ألا تتحدث عن سيئات الطرف الآخر، وتتناسى حسناتهم.

مرة التقيت مع إنسان قريب، كان في أمريكا، حدثنا عن الرقي، وعن الأناقة، وعن الجمال، وعن الانضباط، وعن النظام، ما تكلم كلمة سلبية واحدة، فإذا تحدث عن أهل المشرق، تحدث عن الفوضى والخطأ، قلت له: ليس لأهل هذه البلاد ولا ميزة، ولا لأهل هؤلاء البعيدين ولا سيئة؟ كن

منصفاً، تحدث عن إيجابياتهم وعن سلبياتهم، وإن تحدثت عن قومك، تحدث عن إيجابياتهم وعن سلبياتهم.

أنا أحياناً أضطر أن أذكر هذه القصة: شاب هناك أحب فتاة فسأل أباه ليتزوجها، قال: لا يا بني إنها أختك وأنت لا تدري، فتركها ثم تعلق بفتاة أخرى، استأذن أباه قال: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري، فقال لأمه: ما حدث؟ قالت: تزوج أياً شئت فأنت لست ابنه وهو لا يدري.

هكذا هناك، نحن عندنا انضباط، يوجد أسر بالشام الخيانة قليلة فيها جداً ونادرة، أليست هذه ميزة؟ هناك تماسك أسري، هناك رحمة.

٥-أن يكون النقد للرأي لا لصاحب الرأي:

بفرنسا جاؤوا بإنسان، ووضعوا عليه حبراً أحمر اللون أمام سيارة فيها حادث على طريق بين باريس وليون، بعد ست ساعات توقفت سيارة، نحن الهرة يهرع الناس إلى معالجتها، وأخذها إلى المستوصف، أليس كذلك؟ هؤلاء قومك ليس لهم ولا ميزة، تحدث عن أخلاقهم، عن تماسكهم الأسري، عن إقبالهم على الدين، عن رحمتهم التي في قلوبهم، فإذا كنت في بلاد الغرب لا مانع أن تذكر إيجابياتهم، وينبغي أن تذكر مع إيجابياتهم سلبياتهم، وأنت إذا كنت في بلاد الشرق تحدث عن بعض الأخطاء ولا تنسى بعض الفضائل، هذا هو الإنصاف.

يجب أن يكون النقد للرأي لا لصاحب الرأي، هذا من آداب أهل الإنصاف.

٦- أن يمتنع الإنسان عن المجادلة التي تفضي إلى المنازعة:

ومن آداب أهل الإنصاف: أن يمتنع الإنسان عن المجادلة التي تفضي إلى المنازعة:

((أنا زعيم في ربض الجنة لمن ترك الجدال وهو محق))

الآن: إذا أردت أن تنتقد الآخرين، خذ ظاهر أقوالهم، لا أن تصل إلى نواياهم، من يعلم النوايا. ما أراد بهذا الكلام الذي فهمتم منه؟ أراد شيئاً آخراً عميقاً، هذا ليس إنصافاً، ابق في حدود النص.

لا تنتصر أمتنا على عدوها إلا بالعدل:

أخواننا الكرام، يوجد قصة لا يصدقها العقل: إن أحد الأنصار اسمه الأبيرق، هذا الأنصاري، سرق درعاً لأحد وجهاء الأنصار -درع ثمين-، فلما وضعها في جراب، والجراب في طحين، والجراب مثقوب، فسار فخطّ من ساحة المعركة إلى بيته، يوجد دليل على أنه سارق، أخذ هذا الجراب وضعه عند يهودي أمانة، وذهب وفد إلى النبي من طرفه؛ أن نحن أنصارك يا رسول الله، نحن قومك، هذا الإنسان ليس سارقاً، السارق هو اليهودي، النبي تمنى أن يكون هذا الكلام صحيحاً،

-إذا أنت هناك خصومة بين ابنك وبين إنسان بعيد، أنت كأب تتمنى أن يكون الحق مع ابنك-، لم ينطق بكلمة، فإذا بقرآن يتنزل عليه فيه عتاب يعد من أشد أنواع المعاتبة، قال الله عز وجل:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

[سورة النساء الآية: ١٠٥]

نزلت تبرئة اليهودي، وهو عدو النبي، واتهامًا للأنصاري، وهو من أتباع النبي، هذا هو العدل. العدل فوق كل شيء، لذلك حينما تفقد الأمة العدل انتهت، فقد تودع منها العدل؛ تتحمل الفقر، نتحمل مليون مشكلة، أما حينما نفقد العدل انتهت هذه الأمة.

النبي -عليه الصلاة والسلام- أرسل عبد الله بن رواحة لتقييم تمر خيبر، وخيبر يهود، فأغروه بحلي نسائهم، فقال: جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم عندي أبغض من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السموات والأرض وبهذا غلبتمونا.

وهذه الأمة الإسلامية لا تشم رائحة النصر إذا ظلم بعضها بعضاً، ما دام هناك ظلم بين المسلمين، لن ينالوا النصر من الله أبداً إلا إذا كان هناك إنصاف، قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٨]

أنصف تؤمن لا تنصف لا تؤمن:

من أبرز الأحاديث الواردة في الإنصاف: عَنْ أَنَسٍ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي والنسائي في سننهما]

وفي زيادة: حتى يكره لها ما يكره لنفسه.

الشيء الذي تحبه لنفسك ينبغي أن تحبه للآخرين، وعندك إمكان: الشيء الذي تكرهه لنفسك أن تكرهه للآخرين.

زينب بنت جحش زوجة النبي -عليه الصلاة والسلام- كانت منافسة للسيدة عائشة، فلما وقعت مشكلة الإفك سأل النبي زينب ضرة السيدة عائشة، تقول السيدة عائشة: سألها عن أمري، فقال: يا زينب، ماذا علمت أو رأيت من عائشة؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي زينب التي كانت تساميني، -أي تنافسني وتكرهني من أزواج النبي-، فعصمها الله بالورع، فلما سئلت قالت: ما علمت عليها إلا خيرًا.

هذه البطولة، نحن إذا غلط خصمنا نشرحه، انتهى، وننسى كل ميزاته، نحطمه.

سيدنا أبو ذر الغفاري لقيه رجل وعليه حلة ثوب جميل، وعلى غلامه حلة مثل حلته، فسأله عن ذلك قال:

((إني ساببت رجلاً فعيرته بأمه وأمه السوداء، فقال: يا بن السوداء، فقال لي النبي -عليه الصلاة والسلام-: يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، أخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، أطعموهم مما تأكلون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، والنهار لكم، والليل لهم، فمن كان أخوه تحت يده؛ فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغرمهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم))

قد يكون عندك خادم ينبغي أن تعامله كابنك، هذا الدين بحاجاته، بمتطلباته، بكرامته، الإنصاف من صفات المؤمن، إذا كنت منصفاً تشعر أن الله يرضى عنك، وأنك عند الله عظيم، وإن لم تكن منصفاً، وإن استخدمت مقياسين ومكيالين كما ترى الآن في العالم كنت صغيرا.

وقعت طائرة في بريطانيا لوكربي، الآن يدفع من اتهم بأنه أسقطها مئتين وسبعين مليار دولار بمعدل خمسمئة مليون ليرة سورية دية كل راكب، يعني عشرة ملايين دولار، ويموت الألوف، ويقولون: خطأ، المسلم ليس له ثمن، من دون ثمن إطلاقاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، فيأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٠٦-٣٢) : المداراة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق بين المداراة والمداهنة:

الخُلق الذي ينبغي أن يتحلى به المؤمن المداراة، ولاسيما إذا كان في عصر يغلب فيه أهل البعد والكفر والعصيان.

فالمداراة خُلق وموقف دقيق جداً، بينها وبين المداهنة خيط رفيع، لخطأ طفيف تنقلب المداراة إلى مداهنة، المداراة مندوبة، والمداهنة محرمة، بشكل مختصر: المداراة بذل الدنيا من أجل الدين، بينما المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا، وفرق كبير بينهما.

أولاً: من تعريفات المداراة أنها الملاينة والملاطفة، وفي تعريف آخر هي خفض الجناح للناس، ولين الكلام لهم، وترك الإغلاظ لهم في القول، والمداراة الدفع برفق، والمداراة يحتاجها المؤمن، لكنه في عصر من العصور تشتد الحاجة إليها، وفي عصر آخر تقل الحاجة إليها، نحن في عصر تشتد الحاجة فيه إلى المداراة.

إن المداراة من المداري صدقة له، وإن المداهنة من المداهن خطيئة عليه، والفرق بينهما كما قلت: المداراة أن تبذل شيئاً من دنياك من أجل صلاح دينك، بينما المداهنة أن تبذل جزءاً من دينك من أجل دنياك؛ الأولى مندوبة، والثانية محرمة.

من أقوال الصالحين:

يقول الماوردي -رحمه الله تعالى-: إذا كان للإنسان عدو، وقد استحكمت شحناؤه، واستوعرت سراؤه، واستخشنت ضراؤه، فهو يتربص بدوائر السوء، وانتهاز فرصة، ويتجرع بمهانة العجز مرارة غصة، فإذا ظفر بنائبة ساعدها، وإذا شاهد نعمة عاندها، فالبعد عن هذا حذراً أسلم، لكف عنه متاركة أغنم، لأنه لا يسلم من عواقب شره، ولا يفلت من غوائل مكره إلا بالبعد عنه أو مداراته.

وقد قال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال: إن الشر بالشر يطفأ، فإذا كان صادقاً فليوقد نارين، ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى؟ وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار.

مسالك الدعوة إلى الله:

من آيات المداراة أيها الأخوة:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة النحل الآية: ١٢٥]

هناك موعظة حسنة، أما إذا جادلته بالتي هي أحسن فلفرق بينهما، استخدم كلمة حسنة في الوعظ والإرشاد، أما إذا كان الجدال، فالجدال من شأنه أن المجادل يربط كرامته بأفكاره، فإذا كان هناك جدال فالقضية حساسة جداً، لا ينبغي أن تختار الكلمة الحسنة، ينبغي أن تختار الكلمة الأحسن، هذا معنى قوله تعالى:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة النحل الآية: ١٢٥]

من الأحاديث الشريفة المتعلقة بالمدارة: أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((مدارة الناس صدقة))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه]

رأي شخصي:

وأنا أصر على التفريق الدقيق بين المداراة والمداهنة، يعني إن لم تصلِ لئلا ينزعج هذا الذي لا يصلي فهذه مداهنة، إن قال شيئاً يخالف العقيدة، وابتسمت، وأيدته بذلك فهذه مداهنة، أما في أثناء الحساب بينك وبين إنسان معاند، إذا سامحته ببعض حقك المادي فهذه مداراة، إن بذلت من المال أو من حظوظ الدنيا أو من راحتك أو من مصالحك من أجل أن تأخذ بيد هذا الذي تحاوره فهذه مداراة، أما إذا بذلت من دينك، من فرائض الدين، من السنن، من سلامة العقيدة، وأرضيت الطرف الآخر بأفكار لا تؤمن بها، وتعارض الدين تقرباً إليه، فهذه مداهنة وليست مداراة.

توجيه نبوي:

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَخْبَرَتْهُ قَالَتْ:

((اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: ائْذَنُوا لَهُ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ أَوْ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ: أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْكَلَامَ، قَالَ: أَيْ عَائِشَةُ: إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ))

إنسان شرير بطاش لا يرحم، فإذا داريته تلطفت معه، بششت في وجهه من أجل أن تدفع شره، فهذا من المداراة.

عَنْ أبِي الدَّرْدَاءِ:

((إِنَّا لَنَكْشِرُ –نكشر: بمعنى نبتسم- فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ، وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ))

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أبِي مُلَيْكَةَ، أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُهْدِيَتْ لَهُ أقْبِيَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ مُزَرَّرَةٌ بِالذَّهَبِ، فَقَسَمَهَا فِي نَاسٍ مِنْ أصْحَابِهِ، وَعَزَلَ مِنْهَا وَاحِدًا لِمَخْرَمَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، فَجَاءَ وَمَعَهُ ابْنُهُ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ، فَقَامَ عَلَى الْبَابِ فَقَالَ:

((ادْعُهُ لِي، فَسَمِعَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَوْتَهُ، فَأَخَذَ قَبَاءً فَتَلَقَّاهُ بِهِ وَاسْتَقْبَلَهُ بِأَزْرَارِهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْمِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، يَا أَبَا الْمِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، وَكَانَ فِي خُلُقِهِ شِدَّةٌ))

وكان في خلقه شيء، ما كان سويًّا، كان شريرًا، خبأ له هذا الثوب وقدمه له.

إذاً: المداراة نصف العقل، والمداراة من صفات الأذكياء، والمداراة من صفات المؤمنين الموفقين، إنسان شرير مخيف إذا جاملته في أفكاره وأقررتها فهذه مداهنة، أما إذا قدمت له ثوباً تتقي به شره فهذه مداراة، إذا قدمت له هدية تتقي بها شره فهذه مداراة، أما إذا أقررته على فجوره أو على فسقه، أو أقررته على عقيدته الزائغة فهذه مداهنة.

إنسان من أهل الكتاب جاءه مولود، فلك أن تزوره، ولك أن تهنّئه بهذا المولود، لكن ليس لك أن تهنّئه بعيده الذي فيه تصريح بما يخالف القرآن، تهنئته بالعيد مداهنة، لكن تهنئته بمولود مداراة، لك أن تزوره إذا مرض، هذا من المداراة، وليس لك أن تقره على شركه، هذا من المداهنة، ففرق واضح بين المداراة والمداهنة؛ المداراة بذل الدنيا من أجل الدين، بينما المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا.

حد المداراة:

يروى أن داود -عليه السلام- جلس كئيباً خالياً، فأوحى الله إليه: يا داود ما لي أراك خالياً؟ قال: هجرت الناس فيك يا رب، قال: أفلا أدلك على شيء تبلغ به رضائي؟ خالق الناس بأخلاقهم، واحتجر الإيمان فيما بيني وبينك.

أنت إنسان موظف في دائرة فيها موظفون من كل الاتجاهات، سلّم عليهم جميعاً، واسألهم عن صحتهم جميعاً، واسألهم عن أولادهم جميعاً، إلى هنا مداراة، إن غادرت المكان فسلّم عليهم، السلام عليكم، قال لك: الطقس بارد، نعم بارد، لا، ليس باردًا، القضية متعلقة بالطقس، متعلقة بالأسعار، متعلقة بالدنيا، جاء بخبر غير صحيح متعلق مثلاً بأسعار الأسهم، اقبل منه هذا الكلام، إذا كانت

القضية لا علاقة لها بالعقيدة، ولا بالدين، بل هي متعلقة بالدنيا، إذا عارضته، وتشبث برأيه، وتشبثت برأيك، والموضوع كله لا يحتمل هذه المعارضة، فالمداراة الآن مطلوبة، إلا إذا نطق بالكفر، أو بالباطل، أو بشيء يرفضه القرآن والسنة، فينبغي ألا تسكت، ينبغي أن تكون مدافعاً عن هذا الدين.

طبع المؤمن:

قال أبو الدرداء لأم الدرداء: إذا غضبت فأرضني، وإذا غضبت رضيتكِ، فإن لم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق.

وبين الأخوة الكرام أخوك له وجهة نظر متعلقة بالعمل، فإذا غضبت منه أرضه، وإذا غضب منه يرضيك، وإذا كان العكس ترضيه أنت.

وسيدنا معاوية يقول: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف؟ قال: إن مدوها أخليتها، وإن خلو مددتها.

خلِّ خيطًا بينك وبين أخيك.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أُرَاهُ رَفَعَهُ قَالَ:

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا ما))

[أخرجه الترمذي في سننه]

خلِّ خيطًا، خلِّ علاقة، خلِّ السلام.

أنصح الأخوة الكرام ألا يبتروا خصومهم، دع بينك وبينهم خيطاً من مودة، دع سلاماً، سؤالا عن صحته، دخل رمضان هنئه، هناك مشكلة؟ لك خصم، وبينكما خلافات مستحكمة، لكن دخل رمضان، أرسل له رسالة تهنئة، يذهب حر صدره.

المداراة: ألا تبذل من الدين شيئاً، لا من عقيدتك، ولا من فرائضك، ولا من واجباتك، ولكن تتقرب إلى إنسان ترجو له الهداية عن طريق مودته.

يروى أن الحسن بن علي -رضي الله عنهما- أعطى شاعراً فقيل له: لمَ تعطِ من يقول البهتان ويعصي الرحمن؟ كيف؟ فقال: إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به من عرضك.

إنسان سفيه، كلامه قاسٍ جداً، كلامه منتشر بين الناس، فإذا داريته بهدية ملكته، فصار معك أفضل ألف مرة من أن تثيره عليك، ويشيع بين الناس ما لا ينبغي أن يقال.

وقد ورد أيضاً عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

((ذبّوا عن أعراضكم بأموالكم))

تملك قلب عدوك بالإحسان إليه:

إنسان سفيه قال عنه مرةً النبي: من يقطع لسانه؟ هناك من فهم هذا الكلام أن تأتي بمقص وتقص له لسانه، لا، من يقطع لسانه بالإحسان إليه.

الإحسان مسكت، يكون على أعلى درجة من العداوة تجده تحجّم، أضرب مثلاً:

يروى أن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- جاءته رسالة من مواطن، كان خليفة المسلمين، هذه الرسالة يقول قائلها: أما بعد فيا معاوية –هكذا، لا يا أمير المؤمنين، ولا أيّ لقب-، أما بعد؛ فيا معاوية إن رجالك قد دخلوا أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن، والسلام، عنده ابنه يزيد، قال: يا يزيد اقرأ ماذا نفعل؟ قال: أرى أن ترسل له جيشاً أوله عنده وآخره عندك ليأتوك برأسه، -هذا الموقف العنيف القمع-، سيدنا معاوية قال: لا يا بني خير ذلك أفضل، أمر الكاتب أن يكتب: أما بعد، فقد وقفت على كتابي ولدي حواري رسول الله ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلها هينة جنب رضاه، لقد نزلت له عن الأرض ومن فيها -هو عبد الله بن الزبير-، فجاء الجواب: أما بعد، فيا أمير المؤمنين -أول كتاب فيا معاوية، الكتاب الثاني يا أمير المؤمنين- أطال الله بقاءك، ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا المحل، فجاء بابنه يزيد، ماذا كنت تريد؛ أن نرسل له جيش أوله عنده وآخره عندك ليأتوك برأسه؟ قال له: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب.

المداراة: قمة الذكاء.

والمداراة: قمة توفير الجهد والوقت والطاقة.

والمداراة: أن تصل إلى أهدافك بأقل تكلفة.

المداري يصل إلى أهدافه بأقل تكلفة، وهذا هو الذكاء، الذكاء هو التكييف، لكن من دون كلمة واحدة فيها تنازل، أو فيها استسلام، أو فيها إقرار على باطل، قضية أرض، سيدنا معاوية اشترى رضاه بهذه الأرض، الأرض ومن فيها، وأنت ابن ولدي حواري رسول الله، هو قال له: يا معاوية، هو قال له: وإنك ابن ولدي حواري رسول الله.

ما قيل عن المداراة:

يقول محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد بداً من معاشرته، يعني هذا قدرك، هناك إنسان يمكن ألا تعاشره، يمكن أن تبتعد عنه، لكن أحياناً طبيعة القرابة أو طبيعة العمل تقتضي أن تكون مع هذا الإنسان كل يوم، شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، لذلك ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد بداً من معاشرته حتى يجعل الله له فرجاً أو مخرجاً.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بُدُّ

الحسن البصري يقول: كان الناس يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول: المداراة هي العقل كله.

يمكن أن تتلافى شرًا كبيرًا وفتنة كبيرة بكلمة، وهذه الكلمة ليس فيها تنازل أبداً، لكن تقدم له شيئًا من الدنيا، ملكت قلبه فأصبح معك بعد أن كان يهاجمك، أنت قصصت لسانه بهذه الطريقة، لكن قص لسان بالإحسان إليه.

وقال أبو يوسف: خمسة يجب على الناس مداراتهم؛ الملك المسلط، والقاضي المتأول، والمريض، والمرأة، والعالم ليقبس من علمه.

قال ابن حبان: من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يدرك -إرضاء الناس جميعاً نفاق-، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بُداً، وإن دفعه الوقت إلى استحسان، -الآن دققوا الظرف العصيب- إلى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها، واستقباح أشياء كان يستحسنها.

القضية ليست متعلقة بالدين إطلاقاً، متعلقة بعادات، لو قال لك شخص قوي: أنا أحب أن أنام الساعة الواحدة بالليل، خير إن شاء الله، نم الساعة الثانية، القضية متعلقة بالنوم، بعادات معينة، أنت تحب أن تنام باكراً، ما دامت القضية متعلقة بالعادات، وقال لك شيء من عاداته، وسألك فأجبه، أما إذا كانت متعلقة بالدين فينبغي ألا تسكت، لك أن تستحسن أشياء من العادات أنت تستقبحها، ولك أن تستقبح أشياء أنت تستحسنها، ما لم يكن مأثماً، فإن ذلك من المداراة:

وما أكثر من دار فلم يسلم فكيف توجد السلامة لمن لا يداري؟

الذي يداري قد لا يسلم، فكيف بالذي لا يداري؟.

المداراة سبب في تقوية أواصر الألفة بين المؤمنين:

أيها الأخوة، قال بعضهم: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي من أقوى أسباب الألفة بينهم. الآن هناك شيء ثان: الآن ضمن الجامع الواحد، ضمن الأخوة الإيمانية الواحدة هناك طباع مختلفة، أنت إذا كنتَ مكلفًا أن تداري الفسقة والكفار الأقوياء، ليس في شأن الدين، في شأن الدنيا، من باب أولى أن تداري أخوانك المؤمنين، هناك أخ انعزالي، وأخ انبساطي، وأخ أنيق جداً، وأخ أقل أناقة، وأخ مضياف، وأخ أقرب إلى العزلة، فإذا عاشرتَ هؤلاء بطباعهم، ولم تأخذ عليهم هذه الطباع فهذه من المداراة، إذا كنت تداري الكافر فمن باب أولى أن تداري المؤمن، فالمداراة من أخلاق المؤمنين، وهي من أقوى أسباب الألفة بينهم، المداراة مندوب لها، والمداهنة محرمة.

فوائد المداراة:

أيها الأخوة، من فوائد المداراة: الراحة في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة.

المداراة: لا بد منها لاتقاء شر الأشرار، ودوام معاشرة الأخيار، مع الأشرار تتقي بها شرهم، مع الأخيار تدوم لك صحبتهم، يحتاج إليها مع الأصدقاء، كما يحتاج إليها مع الأعداء.

المداراة: دليل كمال العقل، وحسن الخلق، ومتانة الدين.

والمداراة: تكون في الأمور الدنيوية فقط، وتحرم إذا كانت في أمور الدين، لأنها تنقلب إلى مداهنة.

المداراة: أن تبذل الدنيا من أجل الدين، والمداهنة: أن تبذل الدين من أجل الدنيا.

أخطاء دفنها التاريخ لا تفتش عنها:

أنت ذهبت إلى بلد إسلامي، ممنوع مثلاً في هذا البلد أن تدعو بصوت مرتفع، ادعُ بقلبك، قضية تحدٍّ، وقضية استفزاز، استووا واعتدلوا، الله أكبر انتهت العملية، ليس هناك مشكلة، كنت هناك فدارهم ما دمت في ديارهم، وأرضهم ما دمت في أرضهم.

دائماً المشكلة ما حجمها؟ أحياناً الحجم كبير، والمكسب صغير، هذا حمق، آدم طوله ستون مترًا، لا، خطأ ليس هذا معقولا، إن كان طوله ستين أم مترًا ماذا ينتج عن هذا الموضوع؟ لا يخرج منه شيء، معركة فاشلة، معركة بلا جدوى، هناك شخص يتشبث ويتشنج، ويستفز، تنشأ مشكلة بين المؤمنين نحن في غنى عنها، في قضية لا تقدم ولا تؤخر.

الآن أكبر مشكلة أن نبحث في التاريخ عن مشكلة نأتي بها إلى الحاضر، ونقيمها سببًا للعداوة:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٣٤]

وانتهى الأمر، هؤلاء عاشوا في فترة ماضية، إن كانوا محسنين فلهم، وإن كانوا مسيئين فعليهم، طيب بأي مرض مات رسول الله؟ قال له: بالتهاب ذات الجنب، قال له: لا، خطأ، الآن هو مات عليه الصلاة والسلام، ما يهمك بأي طريقة مات، مات وانتهى، إذا كانت له توجيهات نبوية بالصحة، علّمنا إياها، أما بأي مرض مات فلا يهمنا، توفاه الله عز وجل، تنشأ مشكلة تعمل حزازات، وتسبِّب خصومات، وتنشر بغضاء وعداوة.

القاعدة أيها الأخوة: أية قضية في العلم لا يبنى عليها دليل لا فائدة منها، طول سيدنا آدم لا يبني عليه حكم شرعي، إن كان ستين مترًا، وإن كان مترين، عادي، هذه قضية لا يبنى عليها حكم شرعي فابتعد عنها، لكن هناك قضايا إذا أقررت يصبح الحلال حراماً والحرام حلالاً، فهذه لا مجاملة فيها.

إذاً: أيّ موضوع لا يبني عليه حكم شرعي، ابتعد عنه، أرح واسترح.

هكذا نعلم الجاهل:

مرةً سألني أخ كنت على الإذاعة بثًا مباشرًا على الهواء، قال لي: صلاة التراويح ثماني ركعات أم عشرون؟ نحن ليس عندنا مشكلة في العالم الإسلامي إلا ثماني أم عشرين، يمكن أن نقاتل من أجلها، قلت له: صل ٨، وصل ١٢، وصل ٢٠، وصل بالبيت، وصل بالجامع، ولا تفتعل مشكلة، نحن في غنى عن هذه المشكلة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٠٧-٣٢) : الوفاء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أنواع الوفاء:

أيها الأخوة، الخلق اليوم: خُلق الوفاء، فالوفاء قيمة إنسانية وأخلاقية عظمى، بها تدعم الثقة بين الأفراد، وبها تؤكد أواصر التعاون في المجتمع، فالوفاء أصل الصدق، والعقل والغدر أخو الكذب والجور، الوفاء صدق اللسان والفعل معاً، والغدر كذب بهما، الوفاء يختص بالإنسان، فمن فقد عنده الوفاء فقد انسلخ من إنسانيته، وقد جعل الله الوفاء قواماً لصلاح أمور الناس، وقد قال الله عز وجل:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة البقرة الآية: ٤٠]

أيها الأخوة، الوفاء أنواع، فالوفاء بالعهد إتمامه، وعدم نقض حفظه، والوفاء بالعقد إما أن يكون العقد كالعهد، فهو الأول، أو العقد ما اتفق عليه المسلمون، المسلمون عند شروطهم، وهناك الوفاء بالوعد والعهد والعقد، الوفاء بالوعد إتمامه، وبذله من تلقاء النفس ولو كلف النفس ثمناً باهظاً.

أمثلة قرآنية على أنواع الوفاء:

الآيات التي تتحدث عن الوفاء تزيد عن عشرين آية:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة البقرة الآية: ٤٠]

هذا الوفاء بالعهد على أنه أمر، وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب:

(وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٢]

الوفاء بالعهد من سمات الإيمان، قال تعالى:

(وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)

[سورة البقرة الآية: ١٧٧]

أولاً: أمر، ثانياً: صفة، المسلم المؤمن من خصائصه أنه يفي بعهده، والوفاء من صفة الله عز وجل، والوفاء من صفة الأنبياء:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم الآية: ٣٧]

والوفاء سبيل الوصول إلى أعلى درجات القرب من الله عز وجل:

(وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح الآية: ١٠]

والوفاء بالعقود:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

[سورة المائدة الآية: ١]

والوفاء بالوعود:

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ)

[سورة مريم الآية: ٥٤]

هذه بعض الآيات التي وردت في الوفاء بالعهد وبالعقد وبالوعد.

شروط الوفاء:

عَنْ عُقْبَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((أَحَقُّ مَا أَوْفَيْتُمْ مِنَ الشُّرُوطِ: أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ))

أكبر عهد وميثاق بين إنسانين هو ميثاق الزواج:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

[سورة النساء الآية: ٢١]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْمُتَوَفَّى عَلَيْهِ دَيْنٌ فَيَسْأَلُ:

((هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ مِنْ قَضَاءٍ؟ فَإِنْ قَالُوا: نَعَمْ، إِنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِلَّا قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ، قَامَ فَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَهُوَ لِوَرَثَتِهِ))

الإنسان أحياناً يقترض، لكن عنده ما يغطي هذا القرض، لعله يقترض مالاً سائلاً، لكنه يملك مالاً مجمداً يغطي هذا الدين، فالذي يموت وعليه قرض أو دين، وقد ترك ما يغطيه كان يصلي عليه، أما الذي يقترض، وليس عنده ما يغطي هذا الدين، كان عليه الصلاة والسلام يقول: صلوا على صاحبكم.

الإسلام مع مكارم الأخلاق:

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ فِي خُطْبَتِهِ:

((أوْفُوا بحِلْفِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ -يَعْنِي الْإِسْلَامَ- إِلَّا شِدَّةً، وَلَا تُحْدِثُوا حِلْفًا فِي الْإِسْلَامِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

لأن الإسلام كله حلف، لكن ما كان من أحلاف الجاهلية يجب أن توفى الإسلام مع مكارم الأخلاق، فإذا كان في الجاهلية مكارم أخلاق هذه يجب أن تؤدى، الإسلام مع مكارم الأخلاق، فما كان في الجاهلية من مكارم الأخلاق أيّدها القرآن، وما كان منها يحتاج لتعديل عدلها، وما كان منها بعيداً عن منهج الله فقد ألغاها.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّه عَنْه- أَنَّهُ قَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَوْفِ نَذْرَكَ فَاعْتَكَفَ لَيْلَةً))

النبي يناشد ربه الوفاء بالعهد:

النبي -عليه الصلاة والسلام- يطالب ربه أن يفي بوعده.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا- قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ فِي قُبَّةٍ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَهُوَ فِي الدِّرْعِ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

المسلمون على شروطهم:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ:

((دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا، وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟ قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ، لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ، وَلَمْ يَذْكُرِ ابْنُ إِسْحَقَ الْقَوَدَ وَالتَّكَافُؤَ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

المؤمنون كتلة واحدة:

((أدْنَاهُمْ، ويُجِيرُ عَلَيْهِمْ أقصَاهُم، هم يد على من سواهم))

وعَنْ أبي بَكْرِ الصِّدِّيق قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي عَهْدِهِ، فَمَنْ قَتَلَهُ طَلَبَهُ اللَّهُ، حَتَّى يَكُبَّهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ))

[أخرجه ابن ماجة في سننه]

أنت حينما تصلي الفجر في جماعة أنت في ذمة الله، ولك حق على الله.

نفذ ميثاق الله الذي واثقك به:

أيها الأخوة، من أوفى بعهد الله من توحيده وإخلاص العبادة له، أوفى الله بعهده من توفيقه إلى الطاعات، وأسباب العبادة له.

أول وفاء: أن تكون وفياً مع الله، أن تنفذ ميثاق الله الذي واثقك به؛ ميثاق الفطرة والعقل، وميثاق الشرع، عندك عقل يأمرك وينهاك، وعندك فطرة تكشف لك خطأك، ومعك شرع فيه افعل ولا تفعل، فأول وفاء يقتضي أن تكون وفياً مع الله، مع ميثاقه الذي واثقك به.

الذين يوفون بعهد الله هم الألباب، والذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله فوعدهم أن لهم الجنة، ومن أوفى بعهده من الله، قال تعالى:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم الآية: ٣٧]

وازنه مع قوله تعالى:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

[سورة الأعراف الآية: ١٠٢]

كم من إنسان في بيت الله الحرام، وأمام الحجر الأسود يعاهد الله على الطاعة؟ فإذا عادوا إلى بلادهم، كم من هؤلاء يكون وفياً لوعده الذي وعد الله به؟:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

[سورة الأعراف الآية: ١٠٢]

أما نبيه إبراهيم:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم الآية: ٣٧]

أكبر عهد: العهد الذي بينك وبين الله، ومن لم يكن فيما بينه وبين الله عهد، لا يوجد عهد بينه وبين الناس، إياك أن تعلق أملاً على أن يفي إنسان بعهده معك، إن كان هو في عهده مع الله خائن، فليس فيه خير.

بشكل أقرب: إنسان عاق لوالديه لا ترجو منه خيراً، لو كان فيه خير لكان لوالديه، الإنسان عاق في عبوديته لله، فأي إنسان لم يفِ بعهد الله عز وجل، لا تنتظر منه وفاء لكا! لذلك:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

من لوازم المؤمن الوفاء بالعهد:

الوفاء صفة أساسية في بنية المجتمع الإسلامي. أضرب مثلاً:

أزمة الإسكان الطاحنة كان لها اسم: أزمة السكن، ثم اكتشف أن في دمشق ما يزيد عن سبعمئة ألف بيت مغلق لا يؤجر قبل القانون الأخير طبعاً، لماذا؟ لأن أي مستأجر يقول: أخرج من البيت بعد عامين، ثم لا يخرج منه حتى يموت، لأن القانون معه، ألغي الوفاء بالعهد، لما نقض العهد، نشأت أزمة يسميها بعضهم: أزمة سكن، لا، السكن موجود، وهي في الحقيقة: أزمة إنسان.

أعرف صديقين على مقعد الدراسة، حينما كبرا كان الأول تاجرًا كبيرًا، وهو ليس مسلماً، والثاني متكسب بسيط، فحينما أراد المسلم الزواج، لجأ إلى صديقه تاجر البناء الكبير فاعتذر قال: والله أنا ليس عندي بيت للإيجار، بل عندي للبيع، ألح عليه مرة ثانية ومرة ثالثة، ففي المرة الثالثة قال هذا المسلم لغير المسلم: عهد الله علي إن أجرتني أحد البيوت المعدة للبيع ثم جاء من يشتريها، سأخلي البيت في ثلاثة أيام، يبدو أن هذا الصديق قد رق قلبه، ولم يأته زبون يرغب في شراء هذا البيت، أجّره هذا البيت، وبعد عدة سنوات ارتفعت الأسعار من عشرين ألفًا إلى مئتي ألف وإلى ثمانمئة ألف، فجاء من يشتري هذا البيت، فجاء صاحب هذا البيت إلى المستأجر، وطرق بابه، وقال له: وعدتني أنه إذا جاء من يشتري هذا البيت تسلمه لي في أيام ثلاثة، أنا أعطيك ستة أشهر، فقال له: سمعاً وطاعة، وبعد أيام ثلاثة طرق باب صاحب البيت، وقدم له المفتاح، هذا لم يصدق، فانطلق للبيت، وجده فارغًا ونظيفًا، ومعدًّا للسكن مباشرة، فلما أغلق الباب، سأله أحد الجيران سؤالا فضوليا: كم أعطيته مبلغاً حتى ترك البيت؟ قال: لم أعطه شيئاً، لكنه عاهدني على إخلاء البيت، قال: عجيب! باع أثاثه بأبخس الأثمان، وسكن في فندق!.

-فهذا الإنسان غير المؤمن تحركت فطرته، ما هذا الإسلام؟ إنسان يبيع أثاث بيته، باعه بلا ثمن، وانتقل إلى فندق من أصغر الفنادق، هو وأهله، وسلم البيت-، ويبدو أن هذا الإنسان تاجر كبير، فذهب إلى صديقه وقال: بالله عليك ارجع للبيت، وهو لك، وسأبيعك إياه بالسعر الذي كان فيه يوم سكنت! وأي شيء دفعت من أجرته هو ثمن البيت، ولك علي أن أعيد تأثيث هذا البيت على نفقتي!.

لا يوجد عهد بين المسلمين أكبر شاهد على ذلك؛ أزمة الإسكان، لا يخرج، يكون في أشد الحاجة ليسكن شهر .....

حدثني أخ، طالب جارٌ من جار أن يعيره البيت ليطلي بيته، وذهب ثمان وعشرين سنة، قال: هذا الحاضر، القانون معي، والمحاكم أمامك، حينما ينقض بعضنا بعضاً عهده، نسقط من عين الله. بالجاهلية: امرؤ القيس أخذ ابنه رهينة، معه أسلحة أودعت عنده أمانة، فلما حوصر وطولب أن يسلم الأسلحة فرفض، فقتل ابنه، فأصبح امرؤ القيس مثلاً في الوفاء.

نحن حينما نوفي نرتقي لله عز وجل، وحينما نخون الأمانة نسقط من عين الله، وما من صفة في الإنسان أرقى من أن يكون وفياً لعهده، وقبل أن تعاهد انتبه، القضية ليست كلامًا بكلام، القضية فعل، حتى في عقود الزواج يقولون: اكتب كما تريد، كله حبر على ورق، لا، هذا مال يجب أن يؤدى، ودين ممتاز، فالإنسان ما دام الوفاء جزءًا من دين الإنسان، قبل أن يَعِد فلينظر بماذا يعد؟.

أوف بعهدك قبل أن يطولك الحساب:

قصة طريفة: لي قريبة جاء ابنها من أميركا، ومعه ابن صغير بالخمس سنوات، يبدو أن الابن كثير الحركة، قالت له جدته: اهدأ، سآخذك مساء إلى مكان جميل، فلم تأخذه في المساء، هو صغير، عمره خمس سنوات، قال لها: أنت كاذبة.

من دون مبالغة: تسعة أعشار كلامنا لا معنى له، تجد شخصًا، هذه دعها لي، ثم لا ينفذها أبداً، قالها وقتها، ثم نسيها، أما المؤمن فكل كلمة تصدر عنه، أنت لست مكلفًا أن تحمل نفسك ما لا تطيق، أما إذا تكلمت كلمة فيجب أن تنفذها، حتى من المختارين يعد ويعد ويعد، وينسى أن ينفذ ما وعد، لذلك:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

[سورة الأعراف الآية: ١٠٢]

الوفاء بالعهد والعقد والوعد من صفات المؤمن.

والله عز وجل قال:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: ١١١]

فأنت قبل أن تعد، فكر أن هذا الوعد لا بد من أن يحقق، حتى في أخص خصوصياتك، ومع من حولك، ومع أولادك، وأخوتك، الوفاء بالعهد، والوفاء بالعقد، والوفاء بالوعد، هذه كلها من صفات المؤمن.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع اليوم :

أيها الأخوة الكرام، الموضوع اليوم المسؤولية، ولا أدلَّ على ذلك: من أن سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه زوجته فاطمة فرأته يبكي في مصلاه، سألته: ما لك تبكي؟ قال: دعيني وشأني، فلما ألحّت عليه قال: إني نظرت إلى الأرملة والمسكين، وذي العيال الكثير والدخل القليل، وابن السبيل، وذكر أكثر من عشرين صنفاً من هؤلاء الذين يعانون ما يعانون في مملكته، أو في بلدته، فقال: علمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن حجيجي دونهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لم الإنسان مسؤول؟ :

الإنسان مسؤول، لكن الإنسان أحياناً يترنم بكلمة: مسؤول كبير، ولو علم ما تعني هذه الكلمة لارتعدت فرائصه، الإنسان مسؤول، لأنه قبل حمل الأمانة، الكون كله عدا الإنس والجن ليس مسؤولاً، يؤدي وظيفة بتسيير من الله تعالى، إلا أن الإنسان حينما عرضت عليه الأمانة قبل حملها، فقال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب الآية:٧٢]

ينبغي أن تعلم :

أيها الأخوة، لكن كيف أنك إذا كنت في طائرة، واستخففت بقانون السقوط، هذا قانون ، إن قدّرت هذا القانون، وآمنت به، فإنك تستخدم المظلة، المظلة مبنية على قانون السقوط، طبعاً لك وزن، والمظلة لها مقاومة لهذه المساحة الكبيرة، فمقاومة المظلة للسقوط تكافئ وزنك ، وتهبط بشكل سليم، فأنت إذا آمنت بهذا القانون، وتأدبت معه، نجوت من آثاره السيئة، أما إذا استخففت به، ولم تؤمن به، ونزلت من دون مظلة تنزل ميتاً، فعدم إيمانك بالقانون لا يلغي فعله، وعدم إيمانك بالمسؤولية التي حملت نفسك إياها يوم عرضت عليك لا يلغي هذه المسؤولية، وسواء أأقررت أم لم تقر، آمنت أم لم تؤمن فأنت مسؤول، وسوف تحاسب.

تعريف المسؤولية بمعناها الدقيق :

لذلك من أدق تعريفات المسؤولية: حالة يكون فيها الإنسان صالحاً للمؤاخذة عن أعماله، مثلاً: شركة عملاقة لها مدير تنفيذي، دخله بالملايين، ويوجد مستخدم لتنظيف مكتبه، فإذا هبطت أسهمها إلى الحضيض، وأعلنت إفلاسها، فهذا الموظف المكلف بالتنظيف لا يحاسب، لكن الذي يحاسب الذي يأخذ الرواتب بالملايين، وقد أعطي الصلاحيات الكبيرة.

الله عز وجل يسألك بقدر اختيارك، أنت مخير، وما دمت مخيراً فأنت مسؤول، المسؤولية حالة يكون فيها الإنسان صالحاً للمؤاخذة على أعماله، وملزم بتبعاتها المختلفة.

هل من الممكن أن نلغي المسؤولية ولماذا؟ :

وقد قال الله عز وجل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٢-٩٣]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً

-لو ألغينا المسؤولية، لكان الخلق عبثاً بلا هدف-:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١١٥]

وكل إنسان يعصي الله، يظن أنه خلق عبثاً، وأنه لن يحاسَب، ولكن الصاعقة التي سوف تصعقه: أنه يحاسب عن الكلمة، وعن الابتسامة، وعن الدرهم من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟.

ماذا نستنتج من هذه المفارقة؟ :

لذلك مرة قال لي طالب: أنا لا أخاف من الله، فأنا أردت أن أجيبه جواباً مفحماً، قلت له: أنت معك حق ألاّ تخاف منه، فازداد غيظاً، وقال: ولمَ؟ قلت له: لأن الفلاح حينما يذهب إلى الحصيد يأخذ معه طفله الصغير، وقد يكون عمره سنتين، فإذا مر إلى جانبه ثعبان ضخم لا يخاف منه، لأنه لا إدراك له، فالذي لا يدرك لا يخاف، أما الذي يدرك يخاف أشد الخوف، الطبيب أحياناً لاطلاعه على الجراثيم والعدوى والأمراض الفتاكة، يخاف أشد الخوف من أكلِ شيء من دون تعقيمه، أما الجاهل فيأكل ولا يتأثر.

من هو الأحمق؟ :

حدثني أخ قال لي: يكفي أن موظفاً في مطعم مصاب بالتهاب كبد وبائي، إذا دخل إلى الحمام، وخرج، ولم ينظف ما تحت أظافره، يمكن أن يصيب ثلاثمئة إنسان أكلوا في هذا المطعم بمرض التهاب الكبد الوبائي القاتل، فكلما تعمقت في العلم، وجدت أن هناك مسؤولية، فالذي لا يخاف من الله أحمق، والذي لا يدخل الله في حساباته اليومية أحمق، وسوف يدفع الثمن باهظاً سواء أقررت أم لم تقر، أعجبك أم لم يعجبك، آمنت أم لم تؤمن، أنت مسؤول، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٢-٩٣]

ما هي الأمانة التي قبل الإنسان حملها؟ :

الحقيقة: أن المسؤولية الأولى أمام الله، إنا عرضنا الأمانة، الأمانة أنه جعلك مخيراً، منحك حرية الاختيار، وأودع فيك الشهوات، ومنحك نعمة العقل، وجبلك جبلة عالية الفطرة، وأعطاك منهجاً هو الشرع، ونصب لك الكون دالاً عليه، فالكون والعقل والفطرة والشهوة والاختيار والشرع هذه أركان المسؤولية، فبالكون تعرفه، وبفطرتك تعرف خطأك، وبالعقل تهتدي إليه، وبالشهوة تندفع إلى أهدافك، والشرع يكون منهجاً ضابطاً لك في حركتك، إذاً:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب الآية:٧٢]

الأمانة هي التكليف، والأمانة أنه جعل نفسك بين يديك، فقد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، قال تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

[سورة الجمعة الآية: ٥]

ألم يقل الله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب الآية:٧٢]

يقول لك: فلان تحمل مسؤولية، عرض عليه منصب خطير في زمن صعب، فقبل هذا المنصب، وتحمل المسؤولية، والإنسان حينما عرضت عليه الأمانة، أيْ أن تكون نفسه ملكاً له ، إذاً:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٩-١٠]

نفسه هي الأمانة، وهي المكلفة، إذاً: الأمانة هي التي تعني أنك مكلف أن تعرف نفسك لله، وأن تحملها على طاعتك، وأن تسمو بها إلى الله كي تكون مؤهلة لسعادة الآخرة.

أنواع المسؤولية :

١-مسؤولية دينية :

أنواع المسؤولية: هناك مسؤولية دينية، وهي: التزام المرء بأوامر الله ونواهيه، وقبوله في حال المخالفة لعقوبتها، ومصدرها الدين.

سأل شخص النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: عظني ولا تطل، قال له: قل آمنت بالله ثم استقم، -هكذا يروي الحديث-، قال هذا الأعرابي: أريد أخف من ذلك، قال: إذاً فاستعد للبلاء.

كلام واضح كالشمس، تقبّل حمل الأمانة، تستقيم، نجوت فهنيئاً لك، لا تقبل فاستعد للبلاء، إنسان يدخن فتنصحه، وتبيّن له، تنتحر، موت بطيء، ثم يأتي السرطان، وتأتي الجلطة ، هذا فعلك، فاستعد للبلاء؛ إما أن تستجيب أو تستعد للبلاء.

٢-مسؤولية اجتماعية :

وهناك مسؤولية اجتماعية: أنت ضمن مجتمع، والمجتمع له قوانين، وله أنظمة، وله أعراف، وله تقاليد، فلو خالفت قوانين المجتمع تدفع الثمن، المجتمع يعاقبك، أحياناً يعاقبك بسقوط مكانتك بين أفراد المجتمع.

٣-المسؤولية الشاملة :

أخواننا الكرام، هذه المسؤولية شاملة، يعني ليس عندنا في الدين إنسان معفى من المسؤولية، مَن هو أعظم مخلوق؟ رسول الله، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥]

أرسل عليه الصلاة والسلام خادمًا له، فتأخر، أصابه غضب كما يصيب أيّ إنسان، قال له: والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك.

رأى تمرة على سريره، فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ:

((أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَائِمًا، فَوَجَدَ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِهِ، فَأَخَذَهَا فَأَكَلَهَا، ثُمَّ جَعَلَ يَتَضَوَّرُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَفَزِعَ لِذَلِكَ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ، فَقَالَ: إِنِّي وَجَدْتُ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِي فَأَكَلْتُهَا، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ))

بشأن القوس

ما هو الدليل من الكتاب على أن المسؤولية شاملة؟ :

فيا أيها الأخوة: المسؤولية شاملة، والدليل قوله تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٢-٩٣]

ما ينفد واحد، لذلك: من الحمق أن تقول: يا رب لا تسألنا عن شيء، هذا استهزاء بكلام الله عز وجل، ما هذا الدعاء؟ لا تسألنا عن شيء الله، يقول عز وجل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٢-٩٣]

وهو يدعو ويقول: لا تسألنا عن شيء.

٤-السؤال يشمل المرسلين والمرسل إليه :

الآن: السؤال يشمل المرسلين والمرسل إليه، قال تعالى:

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ٦]

هذا الذي يتكلم له حساب عند الله، هذا الذي تقوله للناس هل أنت مطبق له؟ وهذا المستمع مسؤول، سمعت كل شيء، ماذا فعلت فيما سمعت؟ فالله عز وجل سيسأل المرسَل إليه والرسول.

٥-جميع أنواع الأعمال :

الآن: جميع أنواع الأعمال، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة الآية: ٧-٨]

قال رجل لبائع: أريد بنطالاً، ورجاءً اختر أنت لي اللون على ذوقك، هذا البائع عنده لون كاسد، قال له: هذا أجمل شيء، هذا موديل السنة، خانه، فعلى مستوى انتقاء لون تحاسب، والله لو علم الإنسان كيف سيسأل لارتعدت فرائصه.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ))

الآن: نكلم أخي بكلام، لا، قال تعالى:

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

[سورة ق الآية: ١٨]

وفي الأثر:

((قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة))

أحيانا لم تتكلم بكلمة، فلانة واللهِ الله أعلم، ما قال شيئًا، فقط هزّ قميصه، يعني لها إشكال، هل أنت متأكد ومتحقق؟ معك دليل؟.

فإذاً: أول شيء: السؤال لكل الخلق، الشيء الثاني: عن كل الأعمال صغيرها وجليلها.

٦-عن الأقوال :

الشيء الثالث: عن الأقوال:

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

[سورة ق الآية: ١٨]

٧-عن السمع والبصر والعقل والملكات :

السمع والبصر والعقل والملكات، قال تعالى:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)

[سورة الإسراء الآية: ٣٦]

٨-الإنسان مسؤول عن عمره وعلمه :

الآن: أعطاك صحة، ماذا فعلت بهذه الصحة؟ أعطاك وقت فراغ، ماذا فعلت بهذا الوقت؟ أعطاك كفاية، دخلك يغطي حاجاتك، هذه الطمأنينة، أنه لك دخل يغطي حاجاتك، ماذا فعلت بوقت الفراغ؟ الكفاية، والصحة، والفراغ، هذه كلها محاسب عنها، حتى كأس الماء البارد:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

[سورة التكاثر الآية: ٨]

عَنْ أبي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟))

معقول! سبع ساعات على طاولة النرد، وأربع ساعات على المسلسل، وينام مثل الدابة ، وفي اليوم الثاني حمار في العمل!! هكذا الناس، عمل قاس، وانغماس شديد في الشهوات.

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟))

٩- من رحمة الله بنا أن المسؤولية شخصية :

الآن: من رحمة الله بنا: أن المسؤولية شخصية، قال تعالى:

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة النجم الآية: ٣٨]

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة سبأ الآية: ٢٥]

لن نسأل عن أمة خلت، قال تعالى:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٣٤]

أوضح آية:

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة النجم الآية: ٣٨]

علام تدل هذه الأعمال لعمر؟:

سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ، أمر جمع أهله وخاصته، وقال: إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله! لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عن، إلا ضاعفت له العقوبة لمكانته مني.

فكانت القرابة من عمر مصيبة، مثل من محاسبته لأولاده:

رأى إبلاً سمينة، قال: لمن هذه الإبل؟ قالوا: هي لابنك عبد الله، فقال: ائتون به، وغضب، فلما جاءه قال: لمن هذه الإبل؟ قال: إنها لي، اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن، فماذا فعلت؟ أين المخالفة؟ فقال له: فيقول الناس: ارعوا هذه الإبل، فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه

الإبل، فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا بن أمير المؤمنين، بع هذه الإبل، وخذ رأس مالك، ورد الباقي لبيت مال المسلمين.

سيدنا عمر معه سيدنا عبد الرحمن بن عوف يتجولان في المدينة، رأيا قافلةً في ظاهر المدينة، فقال لعبد الرحمن: تعال نحرسها لوجه الله، فإذا بطفل يبكي، فقال لأمه: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى، قال: أرضعيه، -يبدو أنه كان عصبي المزاج-، في المرة الثالثة قال: يا أمة السوء أرضعيه، قالت له: ما شأنك بنا إنني أفطمه؟ قال: ولِمَ؟ قالت: لأن عمر -ولا تعلم أنه عمر- لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، يروى أنه ضرب جبهته، وقال: ويحك يا بن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين؟ فلما صلى الفجر بالناس، ما سمع الناس قراءته من شدة بكائه، وقال: ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟.

فكل واحد لا يخاف من الله عديم الإدراك، وعدم الخوف من الله دليل أنه لا يدرك، وكلما ازداد الإدراك ازداد الخوف.

خطاب للسيدة فاطمة :

عن أبي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((قامَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

هل هناك أوضح من هذا الكلام؟ هل يوجد أقرب لرسول الله من ابنته فاطمة؟ ومع ذلك قال:

((يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

اقرأ هذا الحديث :

عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ عَمَّتِي تَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلًا فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا؛ إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ))

عن ماذا ينهانا هذا الحديث؟ :

الآيات كثيرة جداً في المسؤولية، لكن على رأسها:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٢-٩٣]

عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ:

((اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى: ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ، قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟ ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ؟ وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ، إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ، يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ بَصُرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي))

أرأيت إلى هذا الظلم؟ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ؛ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والنسائي في سننه]

كم من أسرة تحرم البنات؟ كم من أب يحابي أحد أولاده، يعطيه كل ثروته؟.

بلغتني قصة إنسانٍ ترك قريبًا من ألف مليون، أحد أولاده يعمل حمالا في السوق، والابن الثاني معه مئات الملايين، هذا ظلم.

لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ، فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو هُرَيْرَةَ: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ .... إِلَى قَوْلِهِ: ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما]

اعلم أنك مسؤول :

الإنسان مسؤول، والآية الدقيقة:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٢-٩٣]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

هذه هرة، فما قولكم فيما فوق الهرة؟ شعوب تموت من الجوع، مدن تقصف، عشرات الألوف يموتون من كل جولة من جولات الحرب، ثلاثون إلى أربعين ألف قتيل في حرب العراق، وقبلها مئتا ألف في حرب الخليج الأولى، أرقام مذهلة، هكذا ......

إياك أن تنسى أن الله سيحاسبك :

أيها الأخوة، لا تجد أشد غباءً وحمقاً من القوي حينما ينسى أن الله سيحاسبه، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم الآية: ٤٢]

فكل العقل، وكل الذكاء، وكل الكياسة، وكل التوفيق، وكل النجاح من خوفك من الله، الله كبير، و: رأس الحكمة مخافة الله.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف غض البصر اصطلاحاً :

أيها الأخوة، الموضوع اليوم: غض البصر، فغض البصر اصطلاحاً: أن يغمض المسلم نظره عما حرم عليه، ولا ينظر إلا لما أبيح له النظر إليه، فإن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره سريعاً، هذا هو التعريف الاصطلاحي لغض البصر.

ما قاله القرطبي عن البصر :

الإمام القرطبي يقول: البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، -أكبر باب، بل أوسع باب إلى القلب هو البصر-، وأعمق طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك: كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله.

التفسير الدقيق لقوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا....؟ :

الآية الأولى في هذا الباب قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

أما كلمة من: فتفيد التبعيض، أنت مكلف أن تغض البصر، لا عن كل النساء بل عن النساء الأجنبيات، لكن النساء المحارم لك أن تنظر إليهن.

المعنى الثاني: إذا نظرت إلى النساء المحارم؛ الأم، الأخت، البنت، العمة، الخالة، بنت الأخ، بنت الابن، ينبغي ألا تدقق، وألا تتبع التفاصيل والخطوط، وشيء طبيعي جداً أن الإنسان ينظر نظرة كلية، أما الأخت القريبة فلا ينبغي أن ندخل عليها بلا إذن، ولو أن المرأة أم الإنسان، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن الدخول على الأم، وقال له رجل:

إنها أمي، قال: أتحب أن تراها عريانة؟.

حتى المحارم ينبغي ألا تدقق في التفاصيل، ولا ينبغي أن تملأ عينيك من محاسنهن، وينبغي أن تنظر إليهن نظرة إجمالية، أما المحارم فينبغي أن يكون ثوبها ثوب خدمة، هناك من يظن أنها أخته، الأخت ينبغي ألا تظهر أمام أخيها إلا بثياب الخدمة، وثياب الخدمة كما وصفها العلماء: النحر

مستور، تحت الركبة، وإلى المرفقين، والنحر مستور، هذه ثياب الخدمة، أما أن تقوم الفتاة أمام أخيها بثوب فاضح، أو قماش شفاف، ولو أنها أخته فهذا محرّم، سمح لك أن تجلس معها، وأن تنظر إليها، وأن تخاطبها، وأن تسهرا معاً، ولكن بثياب محتشمة، عبر عنها العلماء بثياب الخدمة، أما التفاصيل فلا يمكن أن تدقق في التفاصيل، هذا منهي عنه، لأن النظر هنا يعني من أبصارهم، فلا تدقق في التفاصيل، هذا المعنى الثاني.

والمعنى الثالث: النظر الفجائي ينبغي أن تصرف عنه بصرك.

الإضطرار الشرعي :

أيها الأخوة، الأحاديث:

فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ، أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ؛ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ))

الإنسان مسموح له أن يأكل ما حرم عليه اضطراراً، لو أنه أشرف على الموت، فبإمكانه أن يأكل من لحم الخنزير بالقدر الذي يبقى به حياً، لو أنه أشرف على أن يموت اختناقاً، بإمكانه أن يشرب شربة من شراب محرم ليبقى به حياً، إذاً: عندنا أكل عند الضرورة، وعندنا شرب عند الضرورة، لكن ليس عندنا زنا عند الضرورة، السبب: أن الدافع إلى الطعام يبدأ من الداخل، فلو وضعت إنسانًا في غرفة، وليس فيها شيء يشير إلى الطعام، يجوع الإنسان، يشعر بحاجة من الداخل.

ما هو مبعث الشهوة الجنسية وما هو ضمانها؟ :

لكن قضية الشهوة إلى المرأة تبدأ من الخارج، إما من امرأة تبرز محاسنها، فعليك أن تغض البصر عنها، فمبعث الشهوة الجنسية تبدأ من الخارج لا من الداخل، أما الرغبة في الطعام فتبدأ من الداخل، ما دام تبدأ من الداخل، فعندنا أكل اللحم المحرم اضطرارًا، وليس هناك ما يسمى بالزنا الاضطراري، لأن الزنا أساسه معصية تبدأ من الخارج، فالمرأة مكلفة أن تتحجب، والرجل مكلف أن يغض البصر، لو أن المرأة محجبة، والرجل يغض البصر، هذا أكمل شيء، لكن: لأن المرأة إذا تفلتت، فالضمان أن تغض أنت البصر، والرجل إذا تفلت، الضمان أن تحتجب هي عنه، فإذا كان طرف من الأطراف خرق الاستقامة، فالضمان أن الطرف الثاني يأخذ احتياطاً، إذاً: الرجل مكلف أن يغض البصر، والمرأة مكلفة أن تتحجب.

((اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ، أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ؛ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ))

ما آداب الطريق في الإسلام؟ :

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

((إيّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطّرُقَاتِ، قالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا لَنَا بُدّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللّهِ -صلى الله عليه وسلم-: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلاّ الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطّرِيقَ حَقّهُ.

-الآن: حق الطريق، يعني أنت واقف أو ماشٍ، أنت الآن في الطريق، يمكن أن يكون لك محل على الطريق، ويمكن أن تمشي في الطريق، فما هي آداب الطريق-؟:

قالُوا: وَمَا حَقّهُ؟ قَالَ: غَضّ الْبَصَرِ، وَكَفّ الأَذَىَ، وَرَدّ السّلاَمِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ))

النظرة الأولى؟ :

وعن جرير بن عبد الله -رضي الله عنه-، أنه قال:

((سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ.

-أحيانا يمشي الإنسان في طريق، وهناك منعطف حاد، فلما وصل إلى المنعطف، فوجئ بامرأة سافرة رآها، لكن الموقف الشرعي-.

قال: فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي))

نصيحة نبوية للشباب :

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، أنه قال:

((قال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يَا مَعْشَرَ الشبَابِ، عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ، فَإِنّهُ أغضّ لِلْبَصَرِ وأحْصَنُ لِلْفرْجِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَعَلَيْهِ بالصّوْمِ، فإِنّ الصّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ))

كشف العورة لا يجوز :

وعن علي -رضي الله عنه- أنه قال:

((قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لا تُبْرِزْ فَخِذَكَ وَلاَ تَنْظُرْ إلَى فَخِذِ حَيَ وَلاَ مَيّتٍ))

لذلك: بعض أنواع الرياضة التي فيها كشف للعوارت، ينبغي أن يبتعد عنها المسلم، ما دام الفخذ مكشوفة، فلا بد من الابتعاد عن هذه الأنواع من الرياضة.

علام يشير هذا الحديث؟ :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلَا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلَا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وابن خزيمة في صحيحه]

وهذا الحديث يشير إلى انحرافين جنسيين خطيرين؛ الأول بين الذكور، والثاني بين الإناث، وهما موجودان بسبب مخالفة الناس لهذا التوجيه النبوي.

كم زمن النظرة التي عفى الشرع عنها؟ :

وعَنْ بُرَيْدَةَ رَفَعَهُ قَالَ:

((يَا عَلِيُّ، لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

ولكن التساؤل: هذه الأولى كم زمنها؟ ينبغي أن تكون في أقلِّ زمن ممكن، فإذا أطال هذا الإنسان النظرة الأولى، فقد وقع في المخالفة.

هكذا رأى ابن مسعود في شأن غض البصر :

من أقوال بعض العلماء في شأن غض البصر:

يقول أحد صحابة رسول الله -عبد الله بن مسعود-: حفظ البصر أشد من حفظ اللسان.

المسلم في الأصل أنه: لا يرتكب الكبائر، لا يسرق، ولا يزني، ولا يقتل، ولا يشرب الخمر، ولكن بلاء المسلمين ليس في الكبائر، فيما يتوهمونه صغائر، والصغائر إذا أصر الإنسان عليها انقلبت إلى كبائر.

انظر ما قاله النبي :

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك، مما تخافون من أعمالكم))

يعني يتكلم فيغتاب، ويجلس مع من لا تحل له فيملأ عينيه من محاسنها، فإذا باع واشترى لم يدقق فيما يقول، قد يحلف يميناً كاذبة:

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك، مما تخافون من أعمالكم))

فضبط اللسان وضبط العين.

سيدنا ابن مسعود يرى: أن حفظ البصر أشد من حفظ اللسان.

ما ينبغي أن تعلمه :

هناك فكرة أتمنى أن تكون واضحة، وأعظ بها أخوتي ونفسي: إذا كان هناك شهوة فيها إصرار، فإذا كانت هذه الشهوة أغلى عليك من الله، فالطريق إلى الله ليس سالكًا، لا بد من أن تتخلى عن كل حظوظك النفسية، وأن تنصاع إلى منهج الله عز وجل، فأي إنسان يصر على معصية ولو بَدَت له صغيرة، وقد رأى أن حظه من هذه المعصية أغلى من حظه من الله، فالله سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك.

ما حرم عليك النظر إليه :

ويقول ابن مسعود أيضاً: ما من نظرة وإلا وللشيطان فيها مطمع.

يعني أكبر الفواحش تبدأ بإطلاق البصر، الفواحش الكبيرة، فما دام الموضوع طرقناه فلا بد من توضيح:

أنت يمكن أن تنظر إلى وردة، ولست مكلفاً أن تغض البصر عنها، مع أنها جميلة، يمكن أن تنظر إلى حديقة فيها مسطح أخضر، فيها ورود، ولست مكلفاً أن تغض البصر عنها، مع أنها جميلة، ويمكن أن تنظر إلى ساحل بحر، إلى سفح جبل أخضر، يقول لك: منظر رائع، مع أنه جميل، فلست مكلفاً أن تغض البصر عنه، فلماذا أمر الإنسان المؤمن أن يغض بصره عن المرأة؟

هذا شيء آخر، المرأة بالذات إذا نظرت إليها تبدلت كيمياء الدم، ولا تكتفي بالنظر إليها، من شأن المرأة أنك إذا نظرت لا تكتفي بالنظر، بل لا بد من أن يتبع النظرة حركة، طبعاً بحسب الموانع والأعراف والتقاليد، أما لو أتيح لك أن تتابع الأمر، لما توقف الأمر عند النظر، لذلك في كل شيء أنت محرم عليك أن تفعل شيئاً مخالفاً للمنهج.

أنت في حديقة، رأيت وردة، أعجبتك، تأملت فيها، استمتعت بها، لا تؤاخذ على إدراك أنها وردة، كما لا تؤاخذ أن تذوق جمالها، لكن تؤاخذ إذا قصصتها بالمقص، هذا عدوان على أزهار الحديقة، أما المرأة فأنت ممنوع أن تدركها، أن تتأمل بها، وأن تتمتع بجمالها، فضلاً عن أن تقترب منها، لأن قضية المرأة لها خصوصية، لقوله تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٤]

علم نفس الجنس؟ :

والآن: هناك شيء اسمه: علم نفس الجنس، لو تتبعت دقائق هذا العلم لهالك؛ أي لأدهشك: أن ما ورد في السنة الصحيحة من أشياء متعلقة بالجنس، متطابقة تماماً مع علم نفس الجنس تطابقاً دقيقاً، وحينما كنت في سفري الأخير، وأنا في الطائرة طالعت مجلة، فإذا فيها مقالة لدكتور بمصر متخصصة في علم النفس الجنسي، تقول هذه الطبيبة:

إنها حينما كلفت بإعداد موضوع عن الحالات الشاذة لهذا الميل في الإنسان، أرادت أن تعرف الوضع الطبيعي المسموح به، فطالعت كتب الفقه وما في السنة من أحاديث متعلقة بهذا الموضوع، وفوجئت أن أدق التفصيلات التي مرت بها في هذا العلم مغطاة بأحاديث صحيحة.

إذًا: هذا الذي قاله النبي ليس من عنده:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية: ٤]

ما سبب الجرائم التي ترتكب في بلاد الغرب؟ :

وهناك جرائم ارتكبت في بعض بلاد الغرب، بسبب مخالفة لهذه التوجيهات النبوية الدقيقة جداً، طبعاً هذه العلاقة بين الزوجين علاقة حميمة جداً، والسنة النبوية المطهرة غطت تفاصيل هذه العلاقة الحميمة، وغطت ما ينبغي وما لا ينبغي، وما يجوز وما لا يجوز، لكن أشقى الناس: هؤلاء الذين فهموا الدين على أنه عبادات شعائرية، بينما الدين -ولا أبالغ- مئة ألف بند، يغطي كل حركة الإنسان، بدءاً من فراشه إلى حركته، وأنت في أشد العلاقات خصوصية، هناك أحكام شرعية يجب أن تراعيها، وانتهاءً بأوسع العلاقات ضخامة، كالحروب بين الأمم، الشرع يغطيها، أنت حينما تعتقد أن الذي قاله النبي من خبرته، ومن بيئته، ومن ثقافته فأنت مخطئ، الذي قاله النبي وحياً يوحى، لذلك قد تجد أشياء في السنة يصعب أن تفسر وقتها، أما الآن فتفسَّر، إذاً: الله عز وجل أمَره أن ينطق بهذا.

وقال أنس بن مالك: إذا مرت بك امرأة، فغمض عينيك حتى تجاوزك.

الأحاديث التي وردت بشأن آخر الزمان:

لا تنسوا أننا في عصر فيه فتن، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

عبادة الله في الهرج في زمن الفتن كهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ويقول وكيع بن الجراح -رحمه الله تعالى-: خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيد فقال: إنا أول ما نبدأ به في يومنا غض أبصارنا.

لذلك في آخر الزمان: القابض على دينه كالقابض على الجمر، أجره كأجر سبعين ، قالوا: منا أم منهم؟ قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.

متى فراسة المؤمن لا تخطئ؟ :

وقال بعضهم: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وذكر خصلة سادسة، وهي: أكل الحلال، لم تخطئ له فراسة.

من الحكم الربانية في الأوامر والنواهي في الدين :

وذكرت لكم أيضاً: أن حكمة ربنا عز وجل: أن بعض الأوامر الإلهية متطابقة مع القوانين، فكما أن الشرع يحرم السرقة والقانون يحرمها، فهذا الذي لا يسرق يا ترى خوفاً من الله أم خوفاً من القانون؟ الله أعلم، الله وحده يعلم، لكن حكمة أخرى صارخة هو: أن في الدين أوامر ونواهي لا علاقة لها بالقوانين إطلاقاً، لا تجد على سطح الأرض نظامًا ولا ثقافة ولا مذهبًا يمنع إطلاق البصر، إلا في الدين، فهذا الذي يغض بصره لا شك أنه يخاف الله، أراد الله أن يبين لك أن بعض الأوامر تؤكد لك إخلاصك لله عز وجل، ومن أدق التفاصيل:

لو أن امرأة يفحصها طبيب، فالطبيب له أن ينظر إلى موطن الداء، ومكان الألم، لكن لو أنه استرق النظر إلى مكان آخر لا تشكو منه المرأة، من يعلم به؟ الله وحده، قال تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر الآية: ١٩]

وأنت حينما تصلي الصلوات الخمس، تتقرب بها إلى الله، لكنك إذا مشيت في الطرقات، تتقرب إلى الله مئات المرات، كلما غضت بصرك عن امرأة لا تحل لك، تقربت إلى الله بهذا الغض، لأنها قضية معاكسة للشهوات.

أنواع غض البصر :

يقول بعض العلماء: قد أمر الله في كتابه بغض البصر، وهو نوعان؛ غض البصر عن العورة، وغض البصر عن محل الشهوة.

طبعاً العورة نوعان: مغلظة ومخففة، السوءة هي العورة المغلظة، والمخففة من السرة إلى الركبة، لكن في غض بصر عن أماكن أخرى، موضع القلادة، الصدر مثلاً، هذه سماها العلماء: بالزينة الباطنة:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

[سورة النور الآية: ٣١]

الباطنة مواضع القلائد والحلي، لذلك هناك نوعان لغض البصر: عن العورة، وعن الزينة الباطنة.

فوائد غض البصر :

من فوائد غض البصر: أن حلاوة الإيمان ولذته، والتي هي أطيب وأحلى مما تركه لله.

((مَا تَرَكَ عَبْدٌ لِلَّهِ أَمْرَاً لا يَتْرُكُهُ إلاَّ لِلَّهِ، إلاَّ عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْهُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاه))

غض البصر: يورث نوراً في القلب وفراسة لا يتمتع بها ما يطلقون أبصارهم.

غض البصر: يورث قوة القلب وثباته وشجاعته.

غض البصر: من أهم الصفات التي يتحلى بها المؤمن، وتتولد من الحياء، وفيه راحة للنفس وللبدن، ويصون المحارم، ويجنب الوقوع في الزلل، ويجعل المجتمع المتحلي بهذه الصفة مجتمعاً آمناً متحاباً.

غض البصر: يصون المجتمع من انتشار الزنا.

متى يحجب العبد عن ربه؟ :

العوام أجملوا كل هذا بكلمة: لا العين ترى، ولا القلب يحزن، الإنسان إذا أطلق بصره حجب عن الله عز وجل، فإن أراد أن تكون هذه الصلة قائمة فليغض البصر، و:

الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبة، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي.

والإنسان إذا قال: لا أستطيع فهو يرد كلام الله، لأن الله عز وجل يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية: ٢٨٦]

ولولا أن غض البصر مِن وسع الإنسان، لما كلفنا الله أن نفعله، مستحيل أن يكلفنا ما لا نطيق، لكن الإنسان يدعي أنه لا يستطيع، أما هو يستطيع.

الإنسان ذلك المجهول :

ويا أيها الأخوة، أنا لا أصدق أن أرى كاتباً غربياً لا يعرف عن الدين شيئًا، هذا ألكسيس كاريل في كتابه: الإنسان ذلك المجهول، يقول: إن أفضل منهج للبشر أن يقصروا طرفهم على زوجاتهم. يبدو أن الإنسان حينما يطبق نظام غض البصر، يسعد المجتمع.

سبب الفساد الأسري؟ :

الآن: كم من المشكلات، والفساد الأسري، والشقاق الزوجي، ومتاعب البيوت، أساسها إطلاق البصر؟ بل إن الزوجين ينطبق عليهما هذا الحديث الشريف:

((ما تواداا اثنان في الله ففرق بينهما، إلا بذنب أصاب أحدهما))

إذا غض الإنسان بصره، يجد الثمار اليانعة في بيته، ماذا يجد؟ يجد مودة بينه وبين زوجته، يجدها في أعلى مطمح له، مع أنها قد تكون متوسطة، لكن الله عز وجل يصبغ عليها جمالاً يحصن زوجها عن غيرها، بسبب غض بصره، أما الذي يطلق بصره، فلو أن عنده امرأة في أعلى مستوى يكرهها، من الذي يدخل بين الزوجين؟ الشيطان، فإذا أذنب أحدهما فرق بينهما.

((ما تواداا اثنان في الله ففرق بينهما، إلا بذنب أصاب أحدهما))

وهذا شيء بين أيديكم، غض بصرك، وانظر إلى بيتك.

من نعم الله الكبرى :

بل إن النبي -عليه الصلاة والسلام- يقول:

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

عدا هذا من نعم الله الكبرى، أن يحب المرء زوجته، أما الآن لو دخلت -ولا أبالغ- مئة بيت مسلم، فتسعون بالمئة من بين هذه البيوت ليس فيها مودة بين الزوجين، بسبب إطلاق البصر، هو وهي، إذا أطلق هو بصره، وأطلقت هي بصرها، بقيت زوجته، وبقي زوجها، لكن الود الذي ينبغي أن يكون بين الزوجين لا تجده أبداً بسبب إطلاق البصر.

من أسباب البعد عن الفتن :

فغض البصر مدرسة، ولأنه مهم جداً ليس مغطًّى بحديث، لا، مغطى بآية، ما دام غض البصر احتل حيزاً في القرآن، الكتاب الذي نتعبد الله بتلاوته، معنى ذلك: القضية أساسية، ومركزية،

ومفصلية، لكن نحن في زمن -والعياذ بالله-، أينما التفت تجد المرأة في أبهى زينة، وكأنها في غرفة نومها، في أبهى زينة، وهذا من البلاء الكبير في هذا العصر.

لذلك: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهُ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود والنسائي في سننهما، ومالك في الموطأ]

في المستقبل أتيح لك أن تعمل في مكان متعب، في سوق مزدحم، أو في مكان لإصلاح المركبات، وفي شارع تباع فيه حاجات النساء، والمحلات في أعلى درجة من الزينة ، دينك يأمرك أن تكون في مكان بعيد عن النساء، لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ))

وإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وأكبر مصيدة للشيطان المرأة، وعندك مصيدتان؛ المال والمرأة، أكبر مصيدة للشيطان يوقع بها المؤمنين: قضية المرأة، وقضية المال، فمن حصن نفسه من المرأة الحرام، والمال الحرام نجا وسلم.

فالقضية تحتاج إلى جهد كبير، أما أن تتابع ما على الشاشة من مناظر تثير الحجر ، وتقوم لتصلي العشاء، فهذا شيء فوق طاقتك، هذا شيء لا يكون، أن تعطي نفسك ما تشتهي ، وأن تعد نفسك من المؤمنين الصادقين، هذا شيء غير مقبول، فلا بد من أن تبتعد عن أسباب الفتن، والآن -وأنا أعني ما أقول-: أكبر سبب للفتنة المرأة في هذا العصر، لأن الدنيا كلها يصطادون المسلمين بها.

ما قاله بعض أهل العلم :

لذلك قال بعض العلماء: كان الأعداء يجبروننا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون. الآن السياسة اختلفت، الآن يجبروننا بالقوة الناعمة؛ المرأة، على أن نريد ما يريدون، ففي الخمسينات إذا ضبط الابن وقد ذهب إلى السينما، تقوم الدنيا في البيت ولا تقعد، أليس كذلك؟ الآن كل بيت فيه ملهى ليلي، كل بيت، الدليل: اصعد إلى جبل قاسيون، وانظر إلى سطوح المنازل، كل بيت فيه ملهى ليلي.

وأسأل الله لي ولكم السلامة، ونحن في رمضان الجهد فيه كبير، لكن الثمرة يانعة ، وهذا هو الصدق مع الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (١٠-٣٢) : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

خطر ينتظر الأمة إذا لم تقم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أيها الأخوة الكرام، الصفة التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الفريضة السادسة، بل إن علة خيرية هذه الأمة التي ذكرت في القرآن الكريم هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي اللحظة التي لا تأمر فيها الأمة بالمعروف ولا تنهى عن المنكر فقدت خيريتها، بل هي أمة كأية أمة لا شأن لها عند الله ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن هذا يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر وأمرتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكرا والمنكر معروفاً؟))

أيها الأخوة، لمجرد أن ندع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحل علينا سخط الله عز وجل، بدليل: أن سبب عراك بني إسرائيل: أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

قد تأتي فتاة ترتدي ثيابًا فاضحة إلى بيت عمها، فتُستقبل، ويُرحّب بها، ولا يذكر لها شيء عن ثيابها، ولا عن خروجها، هكذا تفتن الشباب، فالله عز وجل يهلك أمة صالحة، وليست مصلحة. قال تعالى:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

[سورة هود الآية: ١١٧]

لكنه يهلكهم إذا كانوا صالحين، لذلك ورد: أن الله سبحانه وتعالى أرسل الملائكة ليدمروا قرية فقالوا:

((يا رب إن فيها رجلاً صالحاً، قال: به فابدؤوا، قالوا: ولمَ؟ قال: لأنه لم يكن يتمعّر وجهه إذا رأى منكراً))

في اللحظة التي ندع فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحل علينا سخط الله عز وجل.

علة تسمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لكن أروع ما في الموضوع: أنه سمي الأمر بما ينبغي أن يكون معروفاً، والنهي عما لا ينبغي أن يكون منكراً، أي أن المعروف مركوزٌ في أصل الفطرة، النفوس في الأرض تعرفه بداهة، والنفوس في الأرض تعرف المنكر بداهة، أنت تمشي في الطريق، ورأيت رجلاً جريحًا بسبب حادث، فأن تأخذ هذا الجريح إلى المستشفى وتسعفه، هذا في نظر أهل الأرض معروف، أو تدوسه بمركبتك، وتولي هارباً، هذا في نظر أهل الأرض منكر، هكذا الدين، الدين مركوز في أصل الفطرة. أيها الأخوة، ما رأيت بلاغة أعظم من أن الأعمال الصالحة سميت معروفاً، وأن الأعمال السيئة سميت منكراً، أي أن أي مخلوق فطر فطرة سليمة ينكرها.

لذلك يعتمد في هذا في القضاء البريطاني بنظام اسمه: نظام المحلفين، بمعنى أنهم يأتون بخمسين رجلا من الطريق، ويعرضون عليهم وقائع هذه الجريمة، بفطرهم الإنسانية يرون الحق، لا يوجد رشاوى، ولا ضغوط، ولا أي شيء آخر، بالفطرة السليمة، لذلك أول نقطة في هذا الدرس: أن المعروف تعرفه الفطر السليمة، وأن المنكر تنكره الفطر السليمة، وقد أُمرت أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، هذا المعروف، والمنكر بالمصطلح الحديث: الثوابت عند الإنسان، أينما ذهبت في شرق الأرض وغربها، المعروف تعرفه الفطر السليمة، والمنكر تنكره الفطر السليمة.

لا يستجاب لأمة محمد دعوتها إلا إذا أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر:

الآيات التي تتحدث عن المعروف تزيد على عشرين آية، من هذه الآيات:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٤]

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١١٠]

ألا تلاحظون أن في حرب العراق قَنَتْنا في كل الصلوات، ودعونا الله ليلاً ونهاراً، فهل استجاب الله لنا؟ لم يستجب! ألا تستمعون في كل صلاة جمعة من خطباء المساجد كلاما فصيحًا منمقًا متوازنًا، هل استجاب الله لنا؟ ندعو الله أن يدمر أعداءَنا، فهل دمرهم؟ ندعو الله أن يفرق جمعهم، فهل فرق جمعهم؟ ندعو الله أن يجعل تدميرهم في تدبيرهم، فهل دمرهم؟ اسمعوا الحديث:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابَ لَكُمْ))

والآن ندعو ولا يستجاب لنا.

إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً عليك بخاصة نفسك:

أيها الأخوة، الأحاديث التي تتحدث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تعد ولا تحصى، وهي كثيرة جداً، منها:

عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ:

((أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى، مادية مقيتة، الدنيا كلها تأمر بالمنكر، وبما يغضب الله، وتزين المعاصي للناس أينما ذهبت، وحيث ما وقعت عيناك، تجد أن الدنيا كلها تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف، بل إن الذي يأمر بالمعروف يحاسب حساباً شديداً، وإن الذي ينهى عن المنكر يحاسب حساباً شديداً.

درجات العمل الصالح عند الله:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ، قَالَ: تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ))

قلت:

((يا رسول الله، إن مع الإيمان عملاً؟ -أي إيمان فقط، أم إيمان مع عمل؟- قال: يعطي مما رزقه الله إنفاق، أرأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يعطي؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

-ماذا تكلفك؟ لا تملك قرشًا، ألا تملك لسانًا؟ ألا تستطيع أن تملك أخاك، وجارك، وصديقك، وزميلك، وزوجتك، وابنتك، وابنك؟- أرأيت إن كان عيياً -معه حبسة بلسانه لا يستطيع التكلم؟- قال: يعين الأخرق -أي يعين الإنسان الضعيف- أرأيت إن كان أخرق أن يصنع شيئاً؟ -هو نفسه أخرق لا

يستطيع أن يصنع شيئًا- أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مغلوباً؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: أما تريد أن يكون لصاحبك من خير؟ -لا يستطيع

أن ينفق، ولا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، ولا يعين أخرق- ليمسك أذاه عن الناس))

الإنسان بالتعبير المعاصر ديناميكي، إذا امتنع عن إيذاء الناس، فهذه الخطوة قادته إلى الأفضل، وهكذا، فالسيئة تجرّ إلى سيئة، والعمل الطيب يجر إلى عمل أطيب.

خذ رسول الخير صاحباً لك وجافي رسول الشر بالبعد عنه:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ؛ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى))

سيدنا عمر بن عبد العزيز عيّن مرافقًا له اسمه أبو حازم، قال: كن معي، فإن رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي، وهزّني هزاً عنيفاً، وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت.

كل إنسان إذا أقدم على عمل، تجد من ينهاه عن عمل طيب، وتجد من يأمره بفعل سيء، هذه البطانة السيئة، لذلك الذي يصغي للناس يشقى، إذا لم تستح فاصنع ما تشاء، إذا لم تستح من الله، وكان عملك طيبًا، إن عملت عملا فهناك من يخيفك، ومن يخطئك، فابحث عما يرضي الله، وانطلق إلى عملك، ولا تعبأ بأحد.

أمر فيه تهديد للأمة المسلمة:

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ))

أيها الأخوة، ليس من باب التشاؤم، لكن من باب معاينة الواقع، الأمة الإسلامية اليوم تدعو الله ولا يستجاب لها، الدعاء بشكل غير معقول، ولا يستجاب لنا إطلاقاً.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَامَ خَطِيبًا، فَكَانَ فِيمَا قَالَ:

((أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ، قَالَ: فَبَكَى أَبُو سَعِيدٍ، وَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهِبْنَا))

ربح البيعة كل مسلم نصح لله ورسوله:

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

هذا تعريف جامع مانع للدين، الدين النصيحة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ: كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:

((بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ بِالْحَقِّ حَيْثُ كُنَّا، لَا نَخَافُ لَوْمَةَ لَائِمٍ))

مثال تطبيقي من حياة النبي على هذه البيعة:

الآن كمثل تطبيقي من حياة النبي عليه الصلاة والسلام:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ وطَرَحَهُ، وَقَالَ:

((يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ، فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا آخُذُهُ أَبَدًا، وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أرأيت إلى هذا الانصياع، ومنعك أن تستخدمه، وتضعه في إصبعك، لكن لم يمنعك من أن تبيعه، وتنتفع بثمنه، لكن تقديساً لقول النبي، قال:

((وَاللَّهِ لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ))

ما قيل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أهل العلم:

أيها الأخوة، بقي بعض أقوال العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قالت أم الدرداء: من وعظ أخاه سراً فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه.

من وعظه سراً نصحه، ومن وعظه علانية فضحه، هذه واحدة.

وعن حذيفة -رضي الله عنه- قال: الإسلام ثمانية أسهم؛ الصلاة سهم، والزكاة سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والإسلام سهم، وقد خاب من لا سهم له.

مرة ثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة، وهو علة خيرية هذه الأمة، وحينما تلغى هذه الفريضة من حياتها تغدو أمة التبليغ، تماماً كما قال الله عز وجل:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية: ١٨]

وفي اللحظة التي يدّعي فيها المسلمون أنهم أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، نقول لهم:

(فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية: ١٨]

ليس لكم ولا ميزة عند الله.

وقال ميمون بن مهران لصاحب له: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره.

بالتعبير المعاصر: وطّن نفسك على أن تصغي إلى كلام المعارضين، فمن ألغى المعارضة انتهى هو، لا تفرح لمن يمدحك، الذي يمدحك يغرقك ويثبطك، افرح لمن ينصحك، لا تصغ لكلام المادحين، بل احثُ في وجههم التراب، ولكن أصغ إلى كلام الناصحين المنتقدين، المنتقد هو الذي ينفعك، ويمنعك من الزلل، وكل إنسان إذا كان قوياً وألغى المعارضة بقوته ينتهي هو.

الخصال التي يجب أن تتواجد في الداعية:

الآن صفة الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان له خصال ثلاث؛ رفيق بما يأمر، أي لطيف، النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو سيد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم، قمة البشر، معه وحي وقرآن، وكلامه وحي، وهناك معجزات حسية أجراها الله على يديه، وكان فصيحاً وأخلاقياً، ومع كل هذه الخصال التي انفرد بها من بين الخلق قال له: أنت يا محمد:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

إذا كان الرجل داعية، ليس هو سيد الخلق، ولا هو حبيب الحق، ولا هو سيد ولد آدم، وليس معه قرآن، ولا وحي، ولا معجزات، وليس عنده فصاحة ولا جمال في الشكل، وغليظ، لماذا هذا؟:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ينبغي أن يكون رفيقاً بما يأمر وبما ينهى، عدل فيما يأمر وينهى، عالم فيما يأمر وفيما ينهى، عالم وعدل ورفيق.

نماذج من تاريخ سلفنا الصالح على حسن أدائهم لهذه الفريضة:

يقول سفيان -رحمه الله تعالى-: إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق، أما إذا أمرت بالمنكر قويت المنافق، وإذا أمرت بالمعروف ضعفت المؤمن. أحياناً يكون الرجل في جلسة، ويطرح موضوع الربا، ينكره، الكلّ هاجموه، فإذا ناصرته تكون شددت أزره، وإذا خذلته قويت المنافق.

الآن نماذج حية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من السلف الصالح:

قال سفيان الثوري -رحمه الله-: دخلت على أبي جعفر المنصور بمنىً - الحاكم هو الحاكم في كل العصور، كبار العلماء ماتوا في السجن كأبي حنيفة، الحاكم هو الحاكم-، فقال لسفيان: ارفع إلينا حاجتك، فقلت له: اتق الله، فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً، قال: فطأطأ رأسه، ثم رفعه، وقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله، وأوصل إليهم حقوقهم! قال: فطأطأ رأسه، ثم رفعه، وقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: حج عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال لخازنه: كم أنفقت؟ -خليفة المسلمين حج-، قال لخادمه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهماً، وأرى هاهنا أموالاً لا تطيقها الجبال.

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال: إنك قد اكتفيت رجالاً ابتاعوا دنياك بدينهم، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنك مسؤول عما اجترحته، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فقال له سليمان: لقد سللت لسانك، فقال له: هو لك لا عليك.

وأوصى بعض السلف بَنِيه فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف، فليوطد نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله تعالى، فمن وثق بالثواب لم يجد مس الأذى.

ولقد كان الله تعالى يحفظ أكثرهم من بأس الظالمين، ببركة إخلاصهم، وحسن مقصدهم، وقوة توكلهم، وابتغائهم بكلامهم وجه الله تعالى.

قبل أسابيع ألقيت خطبة عن العز بن عبد السلام، والله لولا أن الأخبار عنه موثوقة ومتواترة لم تُصدَّق، سُمِّيَ بائع الملوك، لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وتوكله على الله.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- عن الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر: كيف ينبغي أن يأمر؟ قال: يأمر بالرفق والخضوع، ثم قال: إن أسمعوه ما يكره لا يغضب، يكون يريد الله، فينتصر لنفسه.

الفرق بين علماؤنا بالأمس وبين علماء اليوم:

وقال الأصمعي: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان، وهو جالس على سريره، وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة المكرمة في وقت حجه بخلافته، فلما نظر إليه، قام إليه وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، وهم الذين فتحوا هذه البلاد، واتق الله في أهل الثغور -الحدود-، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق وحدك مَن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق بابك دونهم، فقال له: افعل إن شاء الله، ثم نهض، وقام، فقبض عليه عبد الملك، فقال: يا أبا محمد، إنك سألتنا حاجة لغيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ قال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا والله هو الشرف.

العالم الصادق إذا التقى بالأمير ينبغي أن يرفع إليه حوائج المسلمين، ومع الأسف الشديد الإنسان يعمل في الحقل الديني، يلتقي بأمير يسأله حاجته فقط، له ابن يريد نقله إلى مكان قريب من دمشق لتأدية الخدمة الإلزامية فقط، يدخل عالم على أمير ليس له هم إلا ابنه، أما هؤلاء المسلمين فلا يعنيه أمرهم، أما السلف الصالح فلا يتكلم العالم كلمة في شأنه الشخصي أبداً، يتكلم في شأن المسلمين، إذا التقى عالم بأمير لا يحدثه إلا عن شؤون المسلمين .

أيها الأخوة، علة خيرية هذه الأمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي اللحظة التي لا نأمر بها بالمعروف ولا ننهى عن المنكر يعم البلاء.

أد ما عليك من واجب تنتهي مسؤوليتك عنده:

مرة العبد الفقير دخلت على إنسان له شأن، محسوب على المسلمين، وجدت عنده موظفة مديرة مكتبه في وضع لا يليق به، والإنسان محسوب على العلماء، فنبهته لذلك، قال: دخل علي مئات العشرات لم ينبهني أحد، استجاب الإنسان وغيّر، أنت لا تزهد بكلمة، أنا أنبهكم لهذه الكلمة: صعد عبد الملك بن مروان ليخطب قبل صلاة العيد، يبدو أنه لم يكن محبوباً، فإذا صلى الناس العيد انصرفوا، أراد أن يخطب قبل الصلاة، فأمسكه أحد التابعين وقال: هذا ما فعله رسول الله، أمسكه من ثوبه، لم يعبأ وتابع خطبته، قال تابعي آخر: أما هذا فقد أدى الذي عليه.

جاءتني رسالة مرة من جمعية الحب، تدعو أسر المسلمين إلى الانضمام لهذه الجمعية، وفيها كل المنكرات، وكل الشذوذ، وعيّنوا موقع المزرعة، وذهبت أنا وأخ آخر، والحمد لله، أوقفت هذه الأشياء.

أنت أدِّ الذي عليك، ولا تهمني النتيجة، يهمني أنني أوصلت هذا الشيء لمن بيده القرار، استجاب

لم يستجب هذا شيء آخر، أنا لم أكلفكم بالقتال، لكن أوصل هذه الرسالة لمن بيده الأمر، وأنت انتهت مسؤوليتك، هذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما لم نأمر بالمعروف وما لم ننه عن المنكر، فإن البلاء سيعم بنا، وعندئذ ندعو فلا يستجاب لنا.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (١١-٣٢) : مقاييس التفوق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: من توفيق الله للإنسان، ومن سعادة الإنسان،ومن نجاحه وفلاحه أن تأتي مقاييس التفوق عنده متوافقة مع مقاييس التفوق في القرآن الكريم، ومن شقاء الإنسان وغبائه أن يستنبط من عند أهل الدنيا مقاييس التفوق تتناقض مع مقاييس القرآن الكريم، ألا يكفي أن يقول الله عز وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢))

[سورة المؤمنون]

خالق الأكوان، مبدع الإنسان، من بيده ملكوت كل شيء، من إليه المصير يقول لك: إنك إن صليت، وخشعت في الصلاة فقد أفلحت، لو تتبعنا كلمة (أفلح) في القرآن الكريم أربع مرات:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥))

[سورة الأعلى]

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢))

[سورة المؤمنون]

الإنسان الذي جمع ثروات طائلة ما أفلح، والذي وصل إلى منصب قوي جداً، وتحكم في الملايين ما أفلح، بطولتك أن تأتي مقاييس التفوق عندك متوافقة مع مقاييس التفوق في القرآن الكريم، أما مقاييس التفوق في الدنيا فأن تكون غنياً، وأن تكون قوياً، وأن تكون صحيحاً، وأن تستمتع بالدنيا، لكن الله عز وجل يقول:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

[سورة آل عمران: الآية ١٨٥]

البطولة لا أن تقرأ القرآن الكريم قراءة جوفاء، أن تعتقد بمضمون القرآن الكريم، ورب تال للقرآن والقرآن يلعنه.

هل أنت مصدق أنك إذا زحزحت عن النار، وأدخلت الجنة فقد فزت ؟ مقياس الفوز،

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية ٧١]

مقياس الفوز:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَوَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: الآية ١٨٥]

إذا كان الإله العظيم يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: الآية ٧٧]

إله يقول لك في آية ثانية:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: الآية ١١٣]

ماذا تفعل ؟

أيها الإخوة: الله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

[سورة السجدة: الآية ١٨]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية: الآية ٢١]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة القصص: الآية ٦١]

أنا أقول لكم أيها الإخوة: توفيق الله لكم ونجاحكم في الحياة أن تكون مقاييس التفوق والفوز عندكم متوافقة مع مقاييس التفوق والفوز في القرآن الكريم، وشقاء الإنسان يتأتى من هذا التناقض بين مقاييس التفوق عنده ومقاييس القرآن الكريم، لذلك هذا يصاب بصعقة عند الموت قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[سورة الطور: الآية ٤٥]

لو أن إنساناً فرضاً له بيت فخم جداً وغال جداً، وباعه، لكن اشترط أن يكون النقد عملة أجنبية، وقبض ثمنه الفلكي بالعملة الأجنبية عداً ونقداً، والذي أعطاه الثمن سافر، ولم يلتق به، ثم اكتشف أن العملة مزورة ماذا يحصل له ؟ صعقة.

فالإنسان حينما يفاجأ أن كل الذي حصله في الدنيا لا وزن له عند الله، وأن الآخرة عملتها العمل الصالح يصعق.

إخواننا الكرام: ما من تعريف للذكاء أدق كقول بعض علماء النفس: " الذكاء هو التكيف "، فالتكيف مع المستقبل مع أخطر حدث في المستقبل وهو الموت هو الذكاء، لذلك ابحث في القرآن عن مادة فاز، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية ٧١]

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

[سورة آل عمران: الآية ١٨٥]

ابحث عن آيات فاز، وابحث عن آيات أفلح قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥))

[سورة الأعلى]

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠))

[سورة الشمس]

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة المؤمنون: الآية ١]

ابحث عنها في القرآن الكريم، والذي عنده جهاز كومبيوتر اكتب فاز تأتك الآيات متتابعة، اكتب في البحث أفلح، ثم انظر، هذا كلام خالق الكون، الذي خلقك، الخبير يقول: أنت تفلح عندما تفعل كذا وكذا، مثلاً طالب بمدرسة، يا ترى متى يفلح ؟ إذا اختار مقعدًا على النافذة، يتسلى بالمارة، أم يختار مقعدًا من الجهة التي بها الشمس، لو وضع موالح على المقعد ومجلات وجرائد وألعاب كومبيوتر، والدرس يلقى عليه يا ترى انشغاله بهذه الأشياء السخيفة هو الفوز، أم يصغي إلى المدرس، وأن يراجع الدرس، وأن ينال الشهادة، وأن يحتل منصباً رفيعاً هذا الفوز ؟

كل واحد منا شاء أم أبى يوجد عنده مقاييس للفوز، ولو كان يرتاد المساجد قد يكون الفوز عنده المال، لذلك عندنا حالة إنسان في بدايات حياته هناك أشياء كبيرة جداً عنده، كلما تقدمت به السن تصغر، تصغر إلى أن يصل إلى فراش الموت، فيراها لا شيء إطلاقاً،لو أنه عرف الحقيقة التي أخبر الله بها في بداية حياته لما ضيع عمره سدى، لذلك يصاب الإنسانُ بالندم حينما يكتشف أن الأشياء التي ينبغي أن يسعى إليها أهملها، قال تعالى:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ)

[سورة الزمر: الآية ٥٦]

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر: الآية ٢٤]

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ)

[سورة الفجر: الآية ٢٥]

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي)

[سورة الفرقان]

اقرأ الآيات التي فيها تحسر:

(يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (٣٢))

[سورة الحاقة]

إخوانا الكرام: أصر على هذه المقولة: احرص أن تكون مقاييس الفوز والفلاح عندك مطابقة لمقاييس الفوز والفلاح في القرآن الكريم، أما إذا كانت المفارقة حادة بين مقاييسك ومقاييس القرآن الكريم فهذا إنسان عطل عقله، ولا يفلح، ولا يسعد لا في الدنيا ولا في الآخرة.

الشيء الآخر، لاحظ أن الذين كذبوا بلقاء الآخرة، وأترفناهم في الحياة الدنيا هذا الترابط في ثماني آيات، في ثماني آيات المكذب مترف، فهل تعد الترف قيمةً يسعى إليها ؟ في ثماني آيات حصراً الكافر مترف، والمترف مكذب، أو كافر، الترف ليس من صفة المؤمنين إطلاقاً، فالإنسان إذا رأى بناء فخماً جداً أو مركبة يقول لك: هذه المركبة ثمنها اثنا عشر مليون، ما مميزاتها ؟ كلها على الكلام، تتكلم كلمة ينفذ كل شيء، ليس فيها كبس أزرار، ما أسعد هذا الذي عنده هذه السيارة، لما خرج قارون على قومه بزينته قال تعالى:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص: الآية ٧٩]

ماذا قال الذين أوتوا العلم ؟ قال تعالى:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

[سورة القصص: الآية ٨٠]

فأنت ممن ؟ هل تقول لإنسان مترف: هنيئاً له، ما أسعده ! أم تقول لإنسان طائع لله: هنيئاً له، كلمة واحدة:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: الآية ٧٧]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: الآية ١١٣]

هذه الملاحظة الثانية، الملاحظة الثالثة: في آخر الزمان يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى، ولا يستطيع أن يغير، إن سكت استباحوه، وإن تكلم قتلوه.

تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، ثم يأتي أخي عيسى، ويملؤها قسطاً وعدلاً، وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْتَلِئَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا))

(أحمد)

الإنسان يقتل إذا كان سافك دم، أو منتهك عرض مثلاً، أو سالب مال، أما أن يقتل ولا ذنب له إطلاقاً، كم من ألف، بل كم من مئة ألف، بل كم مليون قتلوا في هذه العصور الأخيرة ؟ قتل ستالين خمسين مليونًا، هؤلاء الطغاة في العالم كم قتلوا ؟ لماذا قُتِل هؤلاء ؟ لأنهم مسلمون فقط، يوجد إشارة قرآنية دقيقة:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩))

[سورة التكوير]

أي شعوب غربية يأكل كلابها من اللحم ما لا يأكله شعب الهند بأكمله ؟ تسعمئة مليون كلب أمريكا تأكل من اللحم ما لا يأكله الشعب الهندي بأكمله، عشرون مليون رأس غنم أطلق عليه الرصاص في أستراليا، ودفن حفاظاً على السعر المرتفع، إنهم وحوش.

إذا مات إنسان عندهم ديته خمسمئة مليون ليرة سورية، أي عشرة ملايين دولار، أما مئات الألوف الذين قتلوا في حرب الخليج الأولى مئتان وخمسون ألفاً، وعشرات الألوف الذين قتلوا في الحرب الثانية، وعشرات الألوف في أفغانستان يقتلون بلا سبب وبلا ثمن، تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً فيأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً، أين سيدنا عيسى ؟

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

[سورة المؤمنون: الآية ٥٠]

قال معظم المفسرين: هي ربوة دمشق، ومعظم المفسرين على أن سيدنا عيسى عليه و على نبينا أطيب الصلاة والسلام سيظهر في دمشق، لذلك عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ فُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْغُوطَةِ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ))

(أبو داود)

أنا ذهبت لأول مرة في حياتي في رمضان إلى خارج دمشق، أيها الإخوة والله البون يصعب تصوره بين بلاد أخرى في رمضان وبين الشام في رمضان، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((بَيْنَا أَنَا فِي مَنَامِي أَتَتْنِي الْمَلَائِكَةُ فَحَمَلَتْ عَمُودَ الْكِتَابِ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي فَعَمَدَتْ بِهِ إِلَى الشَّامِ أَلَا فَالْإِيمَانُ حَيْثُ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ))

(أحمد)

رمضان في الشام عرس إيماني، الناس جميعاً يزحفون إلى المساجد، هناك لا ترى أحداً.

أيها الإخوة: الشيء الثاني هذا الوهم عند الذين تفوقوا في الدنيا، وهم على معصية، أي إذا سألته عن أحواله يقول: فضّلها عليّ الله عز وجل، لأن دخله كبير، يأكل ما يشتهي، يسكن بيتًا مساحته أربعمئة متر، عنده أربع سيارات:

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (٥٦))

[سورة المؤمنون]

هذا ليس إكراماً، ولكنه استدراج:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: الآية ١٥]

هذه مقولته:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر: الآية ١٦]

اسمع الجواب:

(كَلَّا)

[سورة الفجر: الآية ١٧]

أداة ردع ونفي، لا يا عبادي، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، أيّ شيء نالك من الله فهو ابتلاء، وليس نعمة، و ليس نقمة، شيء امتحنت به موقوف على طريقة إنفاقه، فالمال نعمة، ليس نعمة، نقمة لا، كيف تنفق المال ؟ شيء موقوف في تقييمه على طريقة إنفاقه.

ليست الدنيا عطاء، و ليست عقاباً، بل الدنيا أحقر من أن تكون عطاء وعقاباً، لأن الله جعل المترفين فيها من أهل الكفر والعصيان والفجور، فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أن أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[مسلم]

حينما كنتم صغاراً ألم تركبوا هذه القلابة ؟ يكون الإنسان بأعلى مكان، بعد حين في أسفل سافلين، هذه القارعة، هذه الواقعة:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣))

[سورة الواقعة]

الذي كان بأعلى مكان هو في أدنى مكان، والذي كان بأدنى مكان هو الآن في أعلى مكان:

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣))

[سورة الواقعة: الآية ٣]

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

صفة ملازمة للمؤمن هي :

أيها الأخوة الكرام، الصفة التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن اليوم: تذكُّرُ الموت، وهي صفة مستمرة، والفرق بين اسم الفاعل وبين الصفة المشبهة باسم الفاعل: أن اسم الفاعل يدل على الحدث، بينما الصفة المشبهة باسم الفاعل تدل على الثبوت.

فينبغي أن يكون تذكر الموت صفة ملازمة للمؤمن.

معاني الموت في القرآن الكريم :

ولكن الموت في القرآن يعني معاني متعددة؛ منها الموت نفسه، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

منها الضلال، قال تعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ)

[سورة الأنعام الآية: ١٢٢]

الموت في القرآن الكريم يعني أحياناً الضلال، فالضال ميت:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل الآية: ٢١]

وفي الحديث: عَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

الجدب، قال تعالى:

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ)

[سورة فاطر الآية: ٩]

إذاً: التصحر والجفاف يسمى في القرآن الكريم موتاً.

والجماد، قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل الآية: ٢١]

كأنه جماد.

والكفر، قال تعالى:

(وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٧]

هذه بعض المعاني التي وردت في القرآن الكريم، والمتعلقة بالموت.

أحاديث عن الموت :

أخوتنا الكرام، في القرآن الكريم ما يزيد على ست وخمسين آية متعلقة بالموت، فماذا قال عليه الصلاة والسلام بشأن الموت؟.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:

((كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه]

أكيس الناس؛ أي أذكى الناس، الأكياس: العقلاء الأذكياء، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة، أي ما من إنسان على وجه الأرض أعقل ممن يذكر الموت دائماً، لأنه ما من حدث أشد واقعية من الموت، لا ينجو منه أحد: سؤال على الأبيات

كل مخـلوق يمـوت ولا يبقى إلا ذو العــزة والجبروت

والليـل مهـــما طال فلا بد مـــن طلــوع الفجر

والعمــر مــــهما طال فلا بد مـــن نـــزول القبر

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يومــــاً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القـبور جنازة فاعلـــــم بأنك بعدها محمول

بم يتعلق هذا الحديث؟ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَاتَ يَوْمٍ: اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ، قالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَسْتَحِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَنْ اسْتَحَى مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: فَلْيَحْفَظْ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى ....

-أي فليحفظ بصره، وليحفظ سمعه ولسانه-.

وَلْيَحْفَظْ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى: ألاّ يدخل إلى بطنه إلا طعاماً حلالاً

-أي اشتر بمال حلال-.

وَلْيَذْكُرْ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ))

ما محور الحديث؟ :

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ، عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارُ وَإِمَّا الْجَنَّةُ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ))

فو الذي نفس محمد بيده، ما بعد الدنيا من جار إلا الجنة أو النار.

لم قدم الله الموت على الحياة ؟ :

الله عز وجل حينما يقول:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

[سورة الملك الآية: ٢]

بدأ بالموت، لأن خيارات الإنسان حين يولد لا تعد ولا تحصى، ولكن الإنسان حينما توافيه المنية، فأمامه مكانان لا ثالث لهما؛ إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها.

ما هو هاذم اللذات؟ :

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ))

[أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم، والطبراني في المعجم الأوسط، والإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

لأنه ما ذكر في ضيق إلا وسعه، ولا ذكر في سعة إلا ضيقها، بيت أربعمئة متر، صالون ضخم، غرفة نوم كبيرة، إطلالة رائعة، في النهاية هناك مقبرة، باب صغير، قد يكون البيت ثمنه ثمانون

مليوناً، رأيت منزلاً في القاهرة ثمنه ألف مليون، في النهاية للقبر، سكن أكبر قصر في الأرض، في النهاية إلى القبر.

ذكر الموت :

مات رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنون عليه، ويذكرون من عبادته، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- ساكت، فلما سكتوا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: هل كان يكثر ذكر الموت؟ قالوا: لا، قال: فهل كان يَدَع كثيراً مما يشتهي؟ قالوا: لا، قال: ما بلغ صاحبكم كثيراً مما تذهبون إليه.

هذا المديح في العبادات لا يكفي، لا بد من أن يكثر الإنسان من ذكر الموت، فلعله يلجم نفسه عن كثير من حظوظها.

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ))

ما مغزى الحديث؟ :

ويوجد ملمح رائع في هذا الحديث، الذي روي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ))

الحديث له مغزى عميق جداً، الراهب الأول قال له: ليس لك توبة، فقتله، يأسه من رحمة الله، ورحمة الله وسعت كل شيء:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: ٥٣]

فأيّ إنسان دعا إلى الله، ينبغي ألا ييأس من رحمة الله، هذه واحدة.

الشيء الثاني: هذا الذي سأل عن توبة بعد أن قتل تسعة وتسعين، الراهب الثاني كان فقيهاً، هذا الذنب يتكرر، أما إذا ابتعدت عن موطن فاسد، فيمكن أن تتوب، فأمره أن ينتقل إلى قرية صالحة، لذلك التوبة لها علاقة بالمكان وجوداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

إذا كنت في بيئة فاسدة فلا تستطيع أن تتوب، فالراهب الأول وجد أن هذا العدد الكبير من القتلى يمنعه من أن يتوب، لكن الثاني أمره أن يتحول إلى مجتمع مؤمن، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

ما معنى الحديث؟ :

الحديث أيها الأخوة الذي يقصم الظهر:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا؛ هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟))

ماذا ينتظر كل واحد منا في المستقبل؟ أبداً، أحد هذه السبعة شئنا أم أبينا، أحببنا أم كرهنا ، الموت مصير كل حي، قد يفتقر الإنسان فجأة، وقد يغتني، الغنى مطغٍ، والفقر مُنسٍ، وقد يأتي مرض يفسد عليه حياته، خثرة بالدماغ انتهى مشلولا، فشلٌ كلوي كل أسبوع مرتان أو ثلاث مدة أربع ساعات، وكل مرة بثلاثة آلاف ليرة، تشمع بالكبد انتهى، هناك أمراض عضالة .

((هل تنتظرون إلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، -صار هناك خرف- أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا؟))

أي إذا أراد الإنسان الدنيا، ولم يعبأ بالآخرة، ماذا ينتظره؟.

ألا ترى أن المؤمن له معاملة خاصة ؟ :

أما المؤمن فله معاملة خاصة:

من عاش تقياً عاش قوياً:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة : الآية ٥١]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

يوجد أشياء مطمئنة جداً للمؤمن، المؤمن له معاملة خاصة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تكون حياة المؤمن كحياة الفاسق، وأن يكون موت المؤمن كموت الفاسق.

ما الذي يصحبه الإنسان عند الموت؟ :

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ))

لاحظوا أيّ جنازة، الأولاد أولاً، ثم الأخوة، ثم الأعمام، ثم الأخوال، جميع الأقارب يمشون وراء الجنازة إلى القبر، يوضع الميت في القبر، توضع البلاطة، يردم التراب، يتقبلون التعازي، بعد حين من الدهر يُنسى الميت، وكأنه لم يكن، ما الذي يدخل معه؟ عمله.

" يا قيس إن لك قريناً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميت، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك.

لعل أحدكم عزّى إنساناً من أغنياء البلد، تجد بيتاً مساحته كبيرة جداً بأرقى أحياء دمشق، أحياناً ثمنه مئة مليون، أين صاحبه الآن؟ هذا الذي صمم الغرف، وصمم الجبصين، وصمم الأثاث، وصمم الكسوة، أين هو الآن؟ في القبر، هذا هو المثوى الأخير.

مثوى الإنسان الأخير :

إذاً يفهم من هذا: أن البيت مهما كان فخماً هو مثوى موقت.

أحد أخواننا عمله في بناء البيوت، أنشأ بناء في أحد أشهر مصايف دمشق، مرة كنت عنده فأطلعني على بيت مدهش، صاحبه بقي سنتين يشرف على كسوته، الرخام أرقى نوع، الألمنيوم أرقى نوع، الشرفات وسّعها، الغرف وسّعها، المطبخ كأنه بيت، حدثني أنه انتهى من البيت، وموعد سكناه يوم الخميس، فرجاه أن يأتيه بمنظّم للكهرباء، أتاه الخميس ما جاء أحد، فاتصل السبت، مات وما سكنه ولا دقيقة، والحالات كثيرة جداً، فلذلك: إذا فكر الإنسان في الموت وتكيف معه، فإذا جاء لا يأتي بغتة، هو مستعد له، منتظر قدومه، فالأهل يرجعون، ويبقى العمل يدخل معه في القبر.

يا أخوان، أمراض الجسد تنتهي عند الموت، مهما كان مرضاً عضالاً، لكن أمراض القلب تبدأ بعد الموت، يبدأ أثرها المشقي بعد الموت.

من وصايا النبي :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ:

((أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

مرة كنت في دائرة حكومية أنتظر، وكان جالسًا إلى جانبي إنسانان، قال له: حيرني بكسوة هذا البيت، بقينا ستة أشهر ننتظر قراره، التدفئة، التمديد داخلي أم ظاهر؟ لم يستقر على رأي، بعد ستة أشهر حتى أعطانا الرأي، اجعلوها داخلية، حينما تفسد الأنابيب لئلا نشوه البلاط نجعلها خارجية، بعد عشرين عاماً الآن أخذ قراراً، أين عاش الرجل؟ لعشرين سنة قادمة.

قصة :

لي قريب له سهرة دورية، أحد الحاضرين يعتني بصحته عناية تفوق حد الخيال، كل حديثه عن خبز النخالة، والسَّلَطات، والمشي، والرياضة، -هذه مقالة معروفة، هي ضرورية جداً، لكن من حديثه يبدو أن هذا لا يموت قبل تسعين عاماً-، فقال لأخوانه: أنا أطيل حتى أموت، قال له شخص: ما السبب؟ قال له: أنا أكلي قليل، وزني معتدل، جسمي رشيق، أمشي، أتناول خبز نخالة، أتناول سلطات، لا أحَملها، هذه كل شروط طول العمر، هذا الكلام قاله يوم السبت، السبت الذي يليه كان مدفوناً، والله الذي لا إله إلا هو السبت التالي كان تحت الأرض ، ما أحد يعلم متى يموت، قال:

((إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، -الآن أنت صحيح؛ فصلِّ، واقرأ القرآن، واذكر الله عز وجل- وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ))

أقسام الرزق :

عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَقُولُ:

((وَقَالَ وَكِيعٌ مَرَّةً، انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ، قَالَ: يَقُولُ: ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ: إِلَّا مَا تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ؟))

هذا الذي بقي لك من مالك، لذلك: هذه الملايين المملينة ليس اسمها رزقاً، بل اسمها كسب ، لأن الكسب مال اكتسبته ولم تنتفع به، فأنت محاسب عليه.

تصور إنساناً استدان مليون ليرة ليسدها ديناً فضاعت منه، لم ينتفع بها، وعليه أن يؤديها، الكسب مال اكتسبته ولم تنتفع به، وسوف تحاسب عليه، أما الرزق فما انتفعت به.

الآن الرزق ثلاثة أقسام: قسم استهلكته؛ أكلت فأفنيت، لبست فأبليت، وقسم بقي لك؛ تصدقت فأبقيت.

ما المستريح والمستراح منه ؟ :

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ:

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

من بقي لم يسترح منه، الطغاة بالعالم الذين همهم سحق الشعوب، وضرب الشعوب، تدمير الشعوب باسم الحرية والديمقراطية، هذا الدجال فشر غائب يُنتظر:

(وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

[سورة القمر الآية: ٤٦]

ما وراء هذا الحديث :

قيل: يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟.

أكثر من أشرفوا على الموت يصبحون أسخياء، لكن بطولتك وأنت قوي، شديد، عتيد، في شبابك تنفق المال.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((قالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ -صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أفْضَلُ؟ قالَ: أنْ تَصَدَّقَ وَأنْتَ صَحِيحٌ حَرِيصٌ، تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفقرَ وَلَا تُمْهِلْ، حَتَّى إذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ))

من دعاء النبي :

وكان عليه الصلاة والسلام يدعو فيقول:

((اللهم أحييني مسكيناً، وتوفني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين))

وإن أشقى الأشقياء: من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة.

رسالة فيها عبرة وموعظة للمؤمنين :

الحقيقة: كمٌّ من الأحاديث كبير جداً، ومن الآيات ست وخمسون آية متعلقة بالموت، معنى هذا: أن موضوع الموت موضوع كبير جداً، يجب أن يدخل في حساباتنا اليومية.

قبل شهر جاءني في البريد الإلكتروني رسالة فيها صورة ملونة حقيقية لفرعون، فرعون موسى بعد أن عاد من فرنسا، ورممت بعض أعضائه، صدقوني بقيت فترة طويلة، وأنا متأثر، هذا الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات الآية: ٢٤]

هذا الذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص الآية: ٣٨]

أين هو؟ هذا هو الموت، سبحان من قهر عباده بالموت!.

قف عند هذه الكلمة :

حينما أزور بلداً غربياً غارقاً في النعيم والرفاه، كنت أقول لهم كلمة: الموت عندكم صعب، ترك هذا النعيم، وهذا الرفاه شيء صعب جداً، لذلك الموت في بلاد العالم الثالث أهون بكثير، يوجد متاعب بالحياة كثيرة جداً، يأتي الموت مريحًا لها، أما الموت هناك فصعب جداً.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (١٣-٣٢) : الإيثار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

من الصفات التي تتعلق بالمؤمن وغير المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، الخُلق اليوم خُلق الإيثار، وفي اللغة إيثار وأثر، أن تخص نفسك بشيء ولا تعبأ بمن حولك فهذه أثر، وهي صفة الشاردين عن الله عز وجل، البعيدين عنه، وأن تؤثر أخاك بشيء أنت بحاجة إليه هذه مؤاثرة.

فالمؤمنون من أخلاقهم المؤاثرة، وغير المؤمنين من أخلاقهم الأثر، الإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة، لمجرد أن تؤمن إيماناً يقينياً بالدار الآخرة، وبأن فيها جنة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإنك مؤمن بالآخرة، ولأنك تسعى لها، ولأنك تقدم أسباب بلوغها، تؤثر أخاك على نفسك، ولأن الطرف الآخر كافر بالجنة، لا يعلم بها، لا يعلم إلا الدنيا، لا يعرف إلا الدنيا، لذلك الأولى أن يأخذ ما له، وأن يبني مجده على أنقاض الآخرين، فدائماً وأبداً من صفة المؤمن الإيثار، ومن صفة غير المؤمن الأثر، المؤمن يؤثر من حوله على نفسه، وغير المؤمن يؤثر نفسه على من حوله، المؤمن يبني حياته على العطاء، وغير المؤمن يبني حياته على الأخذ.

درجات الإيثار :

١- أن تؤثر الخلق على نفسك:

الحقيقة: للإيثار درجات؛ الدرجة الأولى: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يخرب عليك ديناً، ولا يقطع عليك طريقاً:

تؤثر الآخرين على نفسك وأنت وفق منهج الله، من دون أن تضحي بدينك، ولا أن تضحي بسلامتك، هذه مرتبة.

٢-أن تؤثر رضاء الله على رضاء من حولك:

الدرجة الثانية: أن تؤثر رضاء الله على رضاء من حولك:

وهذا مكلف جداً، قد يستدعي أن تفقد مالك أو مكانتك، هذه أخلاق الأنبياء والمرسلين وأولي العزم وسيد المرسلين، ويأتي من بعدهم المؤمنون بقدر إخلاصهم، وعظم إيمانهم، لكنه جرت العادة أنه من أرضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن أسخط الله برضى الناس، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس.

لا مؤاثرة في الخير والخير كله في المؤاثرة :

لكن النقطة الدقيقة: أنه لا إيثار في الخير، والخير كله في المؤاثرة.

مستحيل أن أضحي بفريضة أو بطاعة أو بسبب قرب من الله عز وجل بسبب أخي، هذا من عمل الشيطان، لا أحج، والحج فريضة، لكن سأدفع هذا المبلغ لأخ لي، لعله ينتفع به.

حينما أؤثر أخي على طاعة لله، أو على أداء فريضة فهذا ليس مؤاثرة، ولكنه حمق، وبعد عن الله عز وجل، هذا الكلام جمع في هذه المقولة:

لا مؤاثرة في الخير، والخير كله في المؤاثرة.

أنا لا أزور أمي، ولا أقضي لها حاجاتها كي أفسح المجال لأخي ليقوم بذلك، وأخي أيضاً آثرني، فالأم بقيت من دون خدمة، ومن دون بر، أن تؤثر أخاك بطاعة أو بقرب أو بعمل صالح، هذا مرفوض في الدين، أنا أؤثر أخي بدنياي، وأضحي بدنياي من أجله، رغبة فيما عند الله، أما حينما أزهد بما عند الله من أجل أخي، فأنا لست فقيهاً، ولا أعرف من المؤاثرة شيئاً.

ملخص الكلام: لا مؤاثرة في الخير، والخير كله في المؤاثرة.

أنا في الصف الأول، وفي الصف الأول ثواب أكبر، أرجع إلى الوراء لأقدم أحدًا مكاني، لا، بالجامع لا يوجد مراتب دنيوية، الجامع لمن سبق، أنا في الصف الأول، ولا أسمح لغيري أن يأخذ هذا المكان.

طفل كان لجانب النبي، وزعت ضيافة، فقال لهذا الطفل الذي عن يمينه، ومن حق هذا الطفل أن يأخذ الضيافة بعد، النبي قال له: يا غلام أتؤثر الأشياخ؟ قال: لا، والله لا أؤثر مكاني منك لأحد، والنبي أثنى عليه.

في الطاعات لا يوجد مؤاثرة، يجب أن تكون في الصف الأول، يجب أن تؤدي الأعمال الصالحة، ولا تؤثر أخاك بعمل صالح يكون قربة إليك إلى الله عز وجل.

تطبيق عملي لهذه الآية :

الإيثار سببه تعظيم الحقوق، إذا عظمت حق الله عز وجل، آثرت أخاك بخير دنيوي رغبة بما عند الله عز وجل، والإيثار أساسه مقت الشح، ومكارم الأخلاق، آيات كثيرة أبرزها:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

بالتطبيق العملي: كنت مع أخيك في سفر، نزلتم في فندق، السرير الأفضل لأخيك، سرير وكنبة، وأنتم اثنان، المؤمن دائماً يؤثر أخاه بالسرير، وينام هو على الكنبة، إذا وجد تفاحتان، تفاحة كبيرة، ولها خد أحمر، وتفاحة صغيرة، أوثر أخي دائماً، من أخلاق الشاردين أن يأخذ الكبيرة له، والأجود له، محل في السيارة الذي من جانب النافذة له، والطعام الطيب له ، أهل الدنيا يؤثرون أنفسهم على من حولهم، وأهل الدين يؤثرون من حولهم على أنفسهم، وهذه علامة مميزة للمؤمن حينما يخص نفسه.

يذهب مع أخوته إلى نزهة، يسعى للراحة، وإذا جاء الطعام يكون نشيطاً إليه، ويجلس في أوجه مكان، ويأخذ أكبر الكميات له، هذا بعيد عن الله عز وجل، عند التعب تخلف ، وعند المغانم تقدم.

فهذه صفة تجدها في جزئيات كثيرة، لمجرد أن تجد نفسك بطعام أجود، براحة أكثر، ولا تعبأ بمن حولك، فأنت شارد عن الله، ولمجرد أن تؤثر أخاك بالمكان الأصلح، وبالطعام الأطيب، وبالمكان الأكمل، فأنت مؤمن ورب الكعبة.

من معاني الإيثار :

في الأساس يوجد مؤاثرة كبيرة جداً:

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات الآية: ٣٧-٣٩]

فقد تؤثر الآخرة على الدنيا فتربحهما معهاً، وقد تؤثر الدنيا على الآخرة فتخسرهما معاً، أكبر معنى من معاني الإيثار: أن تؤثر الآخرة على الدنيا، أو أن تؤثر الآخرة على الدنيا، لكن:

من آثر الآخرة على الدنيا ربحهما معاً، ومن آثر الدنيا على الآخرة خسرهما معاً.

هذه أخلاق الصحابة الكرام :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّه عَنْه-، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ:

((مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا، فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ))

هذه أخلاق الصحابة الكرام.

انظر ما قاله علماء الفقه :

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

في الأزمات لا يوجد ملكية خاصة، لذلك قال علماء الفقه:

إن هناك تعسفاً في استعمال الحق، ولو أن البضاعة الغذائية ملكك، لكن ينبغي ألا تمنعها عن المسلمين في ساعة الأزمات، فإذا منعتها فقد تعسفت في استعمال هذا الحق.

ما المقصود بمعنى هذا الحديث؟ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهم عَنْهم- أَنَّهُ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: طَعَامُ الِاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْأَرْبَعَةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه، ومالك في الموطأ]

يوجد شيء في الإسلام لا تجدونه أبداً في الآلات الحاسبة، الآلة الحاسبة يوجد جمع، طرح، ضرب، تقسيم، وجذر، ونسبة مئوية، لكن لا يوجد زر البركة، البركة أن تستطيع أن تفعل بالشيء القليل الأشياء الكثيرة، هذه لها قانون خفي عند الله عز وجل .

من حفظ نعمة الله عز وجل، بارك الله له في رزقه، من أدى الصلاة على وقتها، بارك الله له في وقته، البركة أن تستطيع أن تفعل في الوقت القليل الشيء الكثير.
بار ك الله لك في وقتك، وقد يبارك الله لك بالمال، فمال قليل تنتفع به بأشياء كثيرة.

المؤاخاء بين الأنصار والمهاجرين :

النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما هاجر أصحابه إلى المدينة، آخى بين الأنصار والمهاجرين، والشيء العجيب: أن المهاجرين عرضوا على الأنصار نصف أموالهم، عرضوا على من كان عنده بيتان عرض على أخيه بيتاً، ومن كان عنده دكانان عرض على أخيه دكاناً ، إلى هنا نكتفي، لا نتابع الموضوع، لكن الذي يلفت النظر: أن هؤلاء المهاجرين ما سجل التاريخ أن واحداً أخذ من أخاه شيئاً! .
الكلمة الرائعة التي قالها عبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق.
الشيء الرائع: أنه بقدر ما كان الأنصار أسخياء، بقدر ما كان المهاجرين أعفة، هذا الإيمان، أخوك سخي وأنت عفيف، أخوك يعرض عليك وأنت تتأدب.

ما سبب نزول هذه الآية؟ :

من أبرز الخلق الإيثار: أنه كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء -بستان من أفضل بساتينه، وكان قريباً من المسجد، وكانت مستقبلة المسجد-، وكان عليه الصلاة والسلام يدخلها، ويشرب فيها من ماء طيب، فيها بئر ماء طيب ، قال أنس عندما أنزلت هذه الآية:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية: ٩٢]

قام أبو طلحة للرسول -عليه الصلاة والسلام-، فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول:

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)

وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

من عنده بيت جميل جداً بأضخم شارع هادئ، له إطلالة جميلة، وعنده بيوت أخرى، فيقدم هذا البيت لله عز وجل؟ من عنده بستان رائع يقدمه لله عز وجل؟.

قارن بين أصحاب النبي وبين المسلمين اليوم :

عَنْ أَنَسٍ -رَضِي اللَّهم عَنْهم- قَالَ:

((لَمَّا نَزَلَتْ: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)، جَاءَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، قَالَ: وَكَانَتْ حَدِيقَةً، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَدْخُلُهَا، وَيَسْتَظِلُّ بِهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، فَهِيَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَرْجُو بِرَّهُ وَذُخْرَهُ، فَضَعْهَا -أَيْ رَسُولَ اللَّهِ- حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: بَخْ يَا أَبَا طَلْحَةَ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، قَبِلْنَاهُ مِنْكَ وَرَدَدْنَاهُ عَلَيْكَ، فَاجْعَلْهُ فِي الْأَقْرَبِينَ، فَتَصَدَّقَ بِهِ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى ذَوِي رَحِمِهِ، قَالَ: وَكَانَ مِنْهُمْ أُبَيٌّ وَحَسَّانُ، قَالَ: وَبَاعَ حَسَّانُ حِصَّتَهُ مِنْهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ، فَقِيلَ لَهُ: تَبِيعُ صَدَقَةَ أَبِي طَلْحَةَ، فَقَالَ: أَلَا أَبِيعُ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ بِصَاعٍ مِنْ دَرَاهِمَ؟ قَالَ: وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَدِيقَةُ فِي مَوْضِعِ قَصْرِ بَنِي حُدَيْلَةَ الَّذِي بَنَاهُ مُعَاوِيَةُ))

هكذا كان أصحاب النبي -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، المسلمون اليوم فهموا الدين شعائر، وأن هذه أوامر أو أخبار:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

هذا شيء لا يعيشه المسلمون اليوم.

انظر إلى هذا التوجيه للصحابي الجليل :

النبي -عليه الصلاة والسلام- فعل ما قال.

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:

((جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ الشَّمْلَةُ، فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شَمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْسُوكَ هَذِهِ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَلَبِسَهَا فَرَآهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ فَاكْسُنِيهَا! فَقَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَامَهُ أَصْحَابُهُ، قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعَهُ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا))

ما قال قط لا إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

ما قال لا إلا كانت لاؤه نعم! سأل: لمن هذا الوادي؟ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي؟ قال: لا والله، قال: أشهد أنك رسول الله، وهكذا الحديث.

جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ الشَّمْلَةُ، فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شَمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْسُوكَ هَذِهِ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَلَبِسَهَا فَرَآهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ فَاكْسُنِيهَا! فَقَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَامَهُ أَصْحَابُهُ، قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعَهُ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا))

هكذا كان توجيه الصحابي الجليل.

من وصايا عمر :

سيدنا عمر قال: يا عبد الله لابنه عبد الله: اذهب لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فقل لها: إن عمر يقرئك السلام، ثم سلها أن أدفن مع صاحبي في قبر النبي، وقبر سيدنا الصديق، -وقبر فارغ، السيدة عائشة تركته لنفسها، لأنه قبر والدها وزوجها، هذا القبر الفارغ طمع به سيدنا عمر فقال: استأذن لي أم المؤمنين عائشة، ثم سلها أن أدفن مع صاحبي-، قالت: والله كنت أريده لنفسي، فلأوثرنه اليوم على نفسي.

-وافقت، طبعاً كان خليفة المسلمين-، فلما أقبل قال له: ما لديك؟ -ماذا قالت؟-، قال: أذنت لك يا أمير المؤمنين، قال: ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضجع، فإذا قبضت، -الآن انتهى الأمر، هو خليفة ومعه سلطة، واستأذن السيدة عائشة، وسمحت له، ولكن لو أنه ليس خليفة المسلمين هل تأذن؟.

فما عد هذا الإذن مقبولاً، قال: بعد أن أموت استأذنها مرة ثانية، -انتهت خلافتي-، فإن أذنت فادفني في هذا المكان، قال: ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضجع، فإذا قبضت فاحملوني، ثم سلموا، ثم قل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فادفنوني، وإلا فردوني إلى مقابر المسلمين، لأني لا أعلم أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو عنهم راض، فمن استخلفوا بعدي فهو الخليفة، فاسمعوا له وأطيعوا، فسمى عثمان، وعليًّا، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد الله بن أبي وقاص، وولج عليه شاب من الأنصار فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله، كان لك من الإسلام ما قد علمت، ثم استخلفت فعدلت، ثم الشهادة بعد هذا كله، فقال: ليتني يا بن أخي، وذلك كفافاً لا علي ولا لي، أوصي الخليفة من بعدي

بالمهاجرين الأولين خيراً، أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوؤوا الدار والإيمان، وأن يقبل من محسنهم، وأن يعفى عن مسيئهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلف فوق طاقتهم.

من قصص الصحابة :

من قصص الصحابة النادرة: عن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، بعد أن انتهت معركة اليرموك طلب ابن عم له، ومعه شيء من الماء، والجريح يشعر بحاجة للماء تفوق حد الخيال ، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به قلت له: أسقيك، -جريح يموت-، فأجاب: أن نعم، فإذا رجل يقول: آه عطشان، فأشار ابن عمه إليه: أن انتقل إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك، فسمع به آخر فقال: آه، فأشار هشام أن انطلق به إليه ، -للثالث-، فجئته فإذا هو قد مات، رجعت لهشام، فإذا هو قد مات، ورجعت لابن عمي فإذا هو قد مات، رحمة الله عليهم أجمعين، شيء نادر!.

الحال الذي يصل إليه المسلم حينما يتخلى الله عنه :

في آخر حجة حججتها، تأخرت الطائرة في جدة سبع ساعات، قدم للحجاج المتأخرين شطيرة وعصير، فالذين لم يصبهم هذا الذي وزع، سبّ الدين.

حاج انتهت حجته في طريق عودته لبلده، لأنه لم تصبه شطيرة وإناء عصير سبّ الدين، لاحظ الفرق، عندما يتخلى الله عن المسلمين، يموت وهو في أشد الحاجة لكأس ماء، قال: اسق أخي الثاني، قال: اسق الثالث، الثالث مات، عاد للثاني مات، والأول مات، هؤلاء الصحابة، كأنهم ملوك الدار الآخرة، وكأنهم رجال، ونحن لسنا رجالا.

ماذا يوجد داخل هذه الرسالة؟ :

مرة أخ بعث لي رسالة بالبريد الإلكتروني يقول لي فيها: سمع عن بطولات بعض النساء المسلمات، فقال: أحمد الله أنه قد كتب على هويتي ذكر، ولم يكتب رجل، لأني لست رجلاً أمام هذه البطولات، الصحابة الكرام كانوا في مستوى يفوق حد الخيال، وهو يموت، وهو في أشد الحاجة لكأس ماء، يفضل غيره عليه.

ما صنعته أمنا عائشة مع مسكين طرق بابها وهي صائمة :

عن عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي -صلى الله عليه وسلم-، أن مسكيناً سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطه إياه، قالت: ففعلت، قالت: فلما أمسينا، أهديت إلينا شاة وكفنها توابعها، فدعتني عائشة، وقالت لي: كلي من هذا، فهذا خير من قرصك.
من رغيفك.

علام يدل هذا الفعل لعمر؟ :

عن مالك دينار، أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أخذ أربعمائة دينار، وجعلها في سرة، ثم قال للغلام: اذهب بها إلى عبيدة بن الجراح، ثم تلكأ ساعة، -انتظر، تشاغل في البيت حتى تنظر ماذا يصنع؟ هي هبة لأبي عبيدة-، فذهب إليه الغلام فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، هي لك، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بهذه لمعاذ بن جبل، وتلكأ في البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع؟ فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، وقال: يا جارية اذهبي لبيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، ونحن؟ والله مساكين أعطنا لم يبق شيئاً، وبقي في الخرقة ديناران فنحّى بهما إليها، فرجع الغلام لعمر فأخبره، فسر بذلك عمر، فقال: إنهم أخوة بعضهم من بعض.

أيها الأخوة، حينما أرى المسجد ممتلئا بالأخوة، ولا أجد مؤاثرة بين الأخوة، هذا التجمع لا قيمة له، وحينما أجد مؤاثرة، يوجد تعاون، تعاطف، تلبية، إغاثة، لو في المسجد عشرة لكفى، الكم لا قيمة له، العبرة بالنوع.

ما حكي عن أبي الحسن الأنطاكي :

آخر قصتين: حكي عن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثة وثلاثون رجلاً بقرية من قرى الري، ومعهم أرغفة معدودة، لا تشبعهم جميعاً، فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رفع، فإذا الطعام بحاله، كل واحد تصنع أنه يأكل، ولم يأكل مؤاثرة لأخيه، والثاني كذلك، بعد أن انتهى وتناولوا الطعام، وجدوا أن الأرغفة في القصعة كما هي لم تنقص.

هذا مجتمع الصحابة :

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأس شاة، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا مني، فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث بهم واحدًا إلى الآخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات، ثم رجعت إلى الأول رأس الشاة.

أخي أحوج، أعطه الثاني، فضل الثالث، وهكذا انتقل هذا الرأس في سبعة أبيات، آخر مرحلة عاد إلى الأول، هذا مجتمع الصحابة، فإذا كنا بخلق المؤاثرة كنا كحالهم.

إليكم قصة هذه المزرعة بخان الشيح :

حدثني أخ عنده مزرعة بخان الشيح، فالغنم بالصيف بحالة عطش شديد، كلما دخلوا لمزرعة طردوهم، إلا مزرعة واحدة، صاحب هذه المزرعة خيّر، فبنى ساقية للغنم، فكلما جاء قطيع غنم لهذه المزرعة، شرب الغنم من ساقية يملؤها ماء، والغنم يصطف بشكل منسق ويشرب، أقسم لي بالله -وهو قريب لي في هذه المنطقة في خان الشيح-، ثلاث وثلاثون مزرعة جميعها جفت آبارها إلا هذه المزرعة!.

تأكد أنك حينما تؤثر أخاك بشيء، سيعوض الله عليك الشيء بأشياء، لكن هذا يحتاج إلى إيمان، هذه المزرعة بقيت وحدها، يضخ من بئرها بكميات معقولة جداً في زمن الجفاف.

خاتمة القول :

لذلك:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

أنت حينما تؤثر أخاك، انتبه أيضا هو يؤثرك، بالنهاية لن تخسر، هو آثرك، وأنت آثرته، أنت أعطيته، وهو أعطاك، بالمحصلة أنكم جميعاً ترتقون إلى الله، وتنالون من الدنيا ما يكفي ، وإذا كنا من أصحاب الأثرة، النتيجة واحدة، وهي أننا سقطنا من عين الله جميعاً، والحاجات بيننا، أنت حينما تؤثر أخاك فأخوك يؤثرك.

أنا أرى أن هذا الخلق من أفضل أخلاق المؤمن، دائماً آثر أخاك، وأنت الرابح.

سيدنا عمر قال: أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت.

عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

هذه قضية الإيمان بالآخرة، إذا لم يؤمن بالآخرة لا يغلّب نفسه، متشبّث بالدنيا لقمة رأسه ، مستعد أن يعيش وحده، ويأكل وحده، والناس شعار من بعد الطوفان كثير، له اليوم أتباع، بالتعبير العامي: سلامتك يا رأسي، ينفذ وحده، أما الناس فلا يهم، المؤمنون أسرة، لا أحد يستأثر بشيء، بل يعطي أخاه كل شيء.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى الرحم وبيان حكمها:

وبعد: فالخُلق اليومَ صلةُ الرحم، صلة الرحم في التعريف الجامع المانع: هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارةً تكون بالمال، وتارة بالخدمة، وتارةً بالزيارة والسلام، وغير ذلك، ولكن أرى أن صلة الرحم تبدأ بالسلام، وتتابع بالزيارة، ثم بتفقد الأحوال المعيشية والتربوية، ثم بالإحسان، ثم بأخذ يد هذا القريب إلى الله، تبدأ بالسلام وتنتهي بالهداية، وذو أفق ضيق جداً: مَن تصور أن صلة الرحم لا تزيد على أن تزوره في العيد، وأنت في عليائك، وهو في أسوأ حالاته، تبدأ بالسلام، وتتابع بالزيارة، ثم بالتفقد، ثم بالمعاونة، ثم بالهداية، ولا تؤتي صلة الرحم ثمارها إلا إذا انتهت بأن يكون هذا القريب في أحسن حال مع الله، ومع خَلقه، صلة الرحم بالنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة واجبة، وقطيعتها معصية كبيرة.

أهمية صلة الرحم في القرآن الكريم:

أيها الأخوة، الآيات التي تتحدث عن صلة الرحم تزيد على خمس عشرة آية:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

(وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى)

[سورة البقرة الآية: ١٧٧]

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)

[سورة النحل الآية: ٩٠]

(وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ)

[سورة البقرة الآية: ١٧٧]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

[سورة النساء الآية: ١]

يعني اتقوا الله أن تقطعوا أرحامكم، اتقوا غضب الله بقطيعة أرحامكم.

وبشكل عام:

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

[سورة الرعد الآية: ٢١]

كتاب صلة الأرحام:

أيها الأخوة، الأحاديث الصحيحة التي تتحدث عن صلة الرحم كثيرة جداً:

((احفظوا أنسابكم تصلوا أرحامكم))

علاقة رائعة كيف تصل رحمك، ينبغي أن تعرف من هم أقرباؤك؟.

((احفظوا أنسابكم تصلوا أرحامكم))

عن عمرو بن عبسة -رضي الله عنه- قال:

((أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أول ما بعث وهو في مكة فقلت: ما أنت؟ قال: أنا نبي، قلت: وما النبي؟ قال: رسول الله، قلت: بم أرسلك الله؟ قال: بأن يعبد الله، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام بالبر والصلة))

يعبد الله، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ:

((فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، إِنَّهُمْ الْأَعْرَابُ وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ - يعني أشد أنواع البر مكانة عند الله عز وجل-: صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ))

يعني صلة رحمه.

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَجُلًا قَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ الْقَوْمُ: مَا لَهُ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَرَبٌ مَا لَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ))

مكانة صلة الرحم كبيرة جداً.

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: إِنَّ الرَّحِمَ شُجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ، تَقُولُ: يَا رَبِّ إِنِّي قُطِعْتُ، يَا رَبِّ إِنِّي أُسِيءَ إِلَيَّ، يَا رَبِّ إِنِّي ظُلِمْتُ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ، قَالَ: فَيُجِيبُهَا، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟))

أخوتنا الكرام، صلة الرحم باب كبير من أبواب الضمان الاجتماعي، الضمان الاجتماعي في الإسلام له ركنان؛ ركن نسبي، وركن جغرافي، فالقريب والجار، الأحاديث التي تحض المسلم على أن يكون محسناً لجاره لا تعد ولا تحصى، فالضمان الاجتماعي أساسه النسب، وأساسه الجوار.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتْ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ)))

أوصاني خليلي ألا تأخذني في الله لومة لائم، وأوصاني بصلة الرحم وإن أدبرت.

يعني صلهم وإن قطعوك، هذا توجيه أعلى.

عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ قَالَ:

((بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا))

أقرباؤك أولى الناس بمالك:

هناك ملامح رائعة في الحديث الشريف، فقرة من حديث طويل:

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنَّمَارِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:

((... قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ؛ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ...))

يعني أحد أكبر أسباب كسب المال: أن تصل به رحمك.

حدثني أخ، -وهو عندي صادق، أنعم الله عليه بمال كثير-، أقسم بالله ما من شاب في أسرته إلا زوجه، وهيأ له عملاً بهذا المال، يكاد يكون المال بنص هذا الحديث من أجل أن تصل رحمك. أخ من أخواننا الكرام حدثني عن قصة، ورجاني أن أنقلها إليكم: له قريب، يسمع أن هذا قريبه بعد

حين من الوقت زاره في العيد، وهو يقسم بالله ما أراد من زيارته إلا أن ينفذ توجيه النبي -عليه الصلاة والسلام-، لم يجده في البيت، وضع له بطاقة، قال له: أنا قريبك، هذا القريب على مستوى أخلاقي رفيع، هو ميسور جداً، زاره في البيت، رد له الزيارة، فإذا ببيته سيء جداً تحت الأرض، لا يرى الشمس، فيه رطوبة عالية، فهذا القريب الأول لما زاره ما خطر في باله ولا واحد بالمليون أن هذه الزيارة ستنتهي ببيت في الطابق الثالث، تأتيه الشمس من كل الجهات، واسع، فهذا القريب لما وجد قريبه في هذا البيت، وعنده أولاد، والشمس أساسية في البيت، فقال له: اشتر بيتًا بحدود مليون، ثم وجد بيتاً بمليونين ونصف، قال له: خذه ولا شيء عليك.

حسب هذا الحديث: حينما جعلك الله غنياً من أجل أن تتفقد أقرباءك، لأن الناس أنت لهم، وغيرك لهم، لكن أقرباءك من لهم غيرك؟ لهذا قال الفقهاء: لا تقبل زكاة مال المسلم وفي أقربائه محاويج. هم أولى بك من الغريب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان))

صدقة وصلة أجر مضاعفة، إن وصلت رحمك بمال فالأجر مضاعف، إلا أنني أتحفظ حينما أذكر: أن بعض الناس بدافع من التعصب الأسري لا يعطون أحداً غريباً إطلاقاً، بل إنهم يعطون أرحامهم عطاءً هم ليسوا بحاجة إليه من باب التعصب، هذا مذموم، لكن إن كان لك قريب فقير، فهو أولى الناس بصدقتك وزكاة مالك.

أطل عمرك بصلة رحمك:

عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَهَا:

((إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ))

طبعاً: يزيدان في الأعمار لها معنى جاء به الفقهاء، العمر لا يزيد، ولكن قيمة العمر بعمله الصالح، لو أن دوام المحلات التجارية بحسب القوانين من الساعة التاسعة صباحاً حتى التاسعة مساءً، وأي إنسان يفتح قبل أو بعد عليه مبالغ كبيرة جداً، فالوقت ثابت، فكيف يتفاوت الناس والوقت ثابت؟ في الغلة، واحد يبيع في اثنتي عشرة ساعة بمليون، وواحد يبيع بمئة ليرة، قيمة العمر بعمله الصالح، فإذا قال عليه الصلاة والسلام: تزيد في الأعمار، يعني تزداد الأعمال الصالحة في هذا العمر المحدود، وكأنه عاش مئة عام، بهذا المعنى.

العمل الطيب له قيمة في أي عصر:

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَتَاقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ، فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ))

يعني سبب إسلامك: أنك تحب الخير في الجاهلية.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قِيلَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ، فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ: خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا))

العمل الطيب له قيمة في أي عصر، حتى في العصر الجاهلي، لذلك هناك قيم جاهلية يفتقر المسلمون الآن إليها، يقول عنترة العبسي:

أغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

الشجاعة، والنجدة، والمروءة، والوفاء بالعهد، هذه من أخلاق العرب في جاهليتهم، لذلك دقة حديث رسول الله عجيبة.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

أيها الأخوة، والألم يعتصر القلب، هؤلاء المسلمون أو هؤلاء العرب فقدوا هويتهم، لا يتخلقون بأخلاق أجدادهم، ولا بروح العصر، العربي شجاع، العربي كريم، العربي ذو مروءة، العربي عنده وفاء بالعهد، طيب الآن أخلاق العصر: ترى هذه الأمة في أيام تخلفها، لا هي في أخلاق أجدادها، ولا هي في روح العصر، إذاً فقدت هويتها.

ما جاء في البر والصلة:

في حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ، طَابَتْ نَفْسِي، وَقَرَّتْ عَيْنِي، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ: كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلْ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ))

الآن هناك أعمال صالحة كثيرة، لكن ما من عمل صالح أعجل ثوابًا من صلة الرحم، وما من عمل سيء أعجل عقاباً من قطيعة الرحم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس شيء أطيع الله فيه أعجل ثوابًا من صلة الرحم، وليس شيء أعجل عقاباً من البغي وقطيعة الرحم، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع))

الآن هناك معنى جديد: طبعاً زارك فزرته، أكرمك فأكرمته، وصلك فوصلته، ليست هذه صلة الرحم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

قطعت فوصلها.

لذلك في بعض الأحاديث:

((أمرني ربي بتسع؛ خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))

ربط النبي -عليه الصلاة والسلام- الإيمان كله بصلة الرحم.

رجل من خثعم قال للنبي -عليه الصلاة والسلام-:

((أي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الإيمان بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: صلة الأرحام))

بعد الإيمان بالله.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))

عمر مديد، ورزق واسع، هل من خير في الدنيا يفوق هذا الخير؟ عمر مديد، ورزق واسع، ابدأ بنفسك، فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابة، فإن فضل

عن ذي قرابة شيء فهكذا وهكذا، ابدأ بنفسك، تثني بأهلك، ثم بأقاربك، ثم بعامة الناس، فالتسلسل بحسب الأولويات.

رجل قال للنبي الكريم:

((يا رسول الله، إني أصبت ذنباً عظيماً فهل من توبة؟ قال له: هل لك من أم؟ قال له: هل لك من خالة؟ قال: نعم، قال: فبرها))

بر الخالة تكفير للذنب.

رجل آخر قال:

((أبايعك -يا رسول الله- على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله عز وجل، قال: فهل من والديك أحد حي؟ قال: نعم، قال: بل كلاهما، قال: فتبتغي الأجر من الله؟ قال: نعم، قال: فارجع على والديك فأحسن صحبتهما))

الجهاد ذروة سنام الإسلام، في مستواه أن تبر والديك.

في مستواه أن تبر والديك.

إن الله عز وجل يوصيكم بأمهاتكم، ثم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب.

((فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني))

يجب أن يشعر الابن والبنت أنك حصن لهما، وأنك تدافع عنهما بالعدل طبعاً وبالحق، لكن قوة الدفاع عن الأقارب هذه فضيلة عند رسول الله.

تقول السيدة عائشة:

((ما غرت على نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا على خديجة، وإني لم أدركها، قالت: وكان عليه الصلاة والسلام إذا ذبح الشاة فيقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة، قالت مرةً: فأغضبته يوماً، فقلت: خديجة، فقال عليه الصلاة والسلام: إني رزقت حبها))

أذواقه أخلاقية، عدّ حبها رزقاً من الله عز وجل.

أيها الأخوة، الباب واسع جداً، الأحاديث والآثار عن الصحابة الكرام في صلة الرحم كثيرة جداً، معنى ذلك: جزء كبير من منهج الله عز وجل أن تصل رحمك، بل في بعض الروايات: أن امرأة سألت النبي -عليه الصلاة والسلام- أن أمها قد زارتها، وهي مشركة، أفأصلها؟ قال: صليها، ولو كان الأب والأم مشركين.

انتهز فرصة العمر وصل رحمك:

أيها الأخوة الكرام، لو تراحم الناس لما كنا في هذه الحال، والله أعلم أن هناك أقارب يملكون ملايين مملينة، وأن لهم أقرباء لا يملكون ثمن طعامهم، ولا يتفقدونهم، وإذا كان في مكان عام، وفي تبرع يقول: مليون، وله أخ شقيق يحتاج إلى قوت يومه ولا يعطيه، أما هذه أمام مئة شخص، أمام خمسمئة شخص فيها وجاهة، فقبل أن تدفع المليون تحت الأضواء ادفع مئة ليرة من دون أضواء.

حدثني إنسان قال لي: أنا فلست، فقدت مالي كله، ولي أخ حجمه المالي قريب من مئتي مليون، فسافر إلى بلد مجاور، والتقى بتاجر يتعامل بالبضاعة نفسها، قال لي: دون أن أشعر سألني عن أحوالي فأعلمته أني أفلست، وبكيت دون أن أشعر، أعطاني وقتها مبلغًا يساوي ثمن أربعة بيوت من أجل أن أقف مرةً ثانية على قدمي، وأعطاني بضاعة بالمبلغ نفسه، والإنسان غير مسلم، هذا الأخ يقسم بالله أنه يحب هذا غير المسلم أكثر من أخيه، أخوه يملك مئتي مليون، ما أمده ولا بليرة، وهذا غير المسلم أمده بمبلغ فلكي لكي يقف على قدميه؛ لذلك:

((يا داود، ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها))

أنت أمامك فرصة، أقرباؤك طبعاً، إذا كان الإنسان ميسورًا ساكنًا بحي راق جداً، له قريب ساكن بالدويلعة، والثاني بالمخيم، والرابع بزملكا، والخامس بمديارة، ما أخذه إلى هناك؟ هذه البطولة، هذا أخوك، وقد تكون لك أخت زوجها فقير، مهملة من قبل الأسرة كلها لأن زوجها فقير، أما الزوج الغني فله معاملة خاصة، البطولة أن تصل رحمك ولو كانوا أبعد، يعني إذا زرت أختك التي زوجها فقير يكون عندها عيد، تضن بالزيارة، أما الذي هو منعم عليه تزوره، ما ينتبه لك، يقول: ليس عندي وقت عدم المواخذة، فأنت هذا الذي زرته كان عنده عيد، زر هذا الفقير، اجبر كسره، اجبر خاطره، فصلة الرحم باب كبير، ولكن أقول لكم في نهاية هذا الدرس: يجب أن تنتهي هذه الصلة بالهداية، أنت سلمت عليه، زرته، تفقدت شؤونه.

لا تنجز الصلة غايتها إلا بالهداية:

بالمناسبة: من هو الذي يستحق زكاة مالك؟ قال تعالى:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٣]

لأن الله عز وجل قال:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة الذاريات الآية: ١٩]

العفيف لا يسأل فيحرم، وهناك إنسان يسأل، ويقتحم عليك، ويلح، ويضايقك حتى تخرج من جلدك، تعطيه حتى تخلص منه، فهذا الذي لا يسأل وهو محروم أولى بزكاة مالك من هذا اللحوح، هذا يقتضي ماذا؟ أن تتفقده أنت، استحلفه بالله أعليك دين؟ كيف وضعه في مواسم المدارس، مواسم المؤونة أحياناً، مواسم الوقود، اسأل في المواسم المهمة جداً، يأتي البرد فجأة، يحتاج إلى إملاء مستودعات الوقود، تفتتح المدارس، يحتاج إلى مصاريف استثنائية، عنده حالة مرضية، يحتاج إلى عملية جراحية، ينبغي أن تسلم عليه، وأن تزوره، وأن تتفقد أحواله، ثم أن تأخذ بيده إلى الله، فإذا انتهت هذه الصلة بالهداية، تكون قد حققت من صلة الرحم غايتها الكبرى.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى الرحمة:

أيها الأخوة، الرحمة كلمة جامعة لكل أنواع العطاء الإلهي، فحينما تكون معافى في بدنك فهذه رحمة، وحينما تكون ذا رزق موفور فهذه رحمة، وحينما تكون مرتاحاً في نفسك، متوازنًا هذه رحمة، رحمة الله عز وجل تشمل كل شيء، عطاؤه رحمة، وتأديبه رحمة، نعمه الظاهرة رحمة، ونعمه الباطنة كالمصائب رحمة، هناك رحمة عاجلة، وهناك رحمة آجلة، هناك رحمة مادية، وهناك رحمة معنوية، وهناك رحمة روحية، هناك رحمة تشمل الدنيا والآخرة، يمكن أن نقول: إن مطلق عطاء الله عز وجل بشتى أشكاله، وألوانه، وأنواعه، وصفاته، مقدمه ومؤخره تعد من الرحمة، ووسعت رحمتي كل شيء.

الرحمة -أيها الأخوة- لا تخلو عن أن تكون رقةً مؤلمةً تعتري الرحيم، رقة مؤلمة تعتري الرحيم فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم، والله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين، قال تعالى:

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ)

[سورة مريم الآية: ٤٥]

فكل ما يبدو لك من مصائب هو في حقيقتها رحمة.

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

وما قدروا الله حق قدره:

أيها الأخوة، يقول بعض العلماء: من رحمته سبحانه وتعالى: ابتلاء الخلق بالأوامر والنواهي رحمة لهم، وحمية لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، ومن رحمته أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا عن النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إليها بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم، ومن رحمته بهم أن حذرهم نفسه لئلا يغتروا به، ومن رحمته أن أنزل لهم كتباً، وأرسل لهم الرسل، لكن الناس افترقوا

إلى فريقين؛ فأما المؤمنون فقد اتصل الهدى في حقهم بالرحمة فصار القرآن لهم هدى ورحمة، وأما الكافرون فلم يتصل الهدى بالرحمة فصار لهم القرآن هدى بلا رحمة.

النبي رحمة للخلق:

أيها الأخوة، في القرآن الكريم تقريباً مئتا آية تتحدث عن الرحمة، وفي الأحاديث عدد غفير جداً من الأحاديث التي تشير إلى الرحمة، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- دعا لميت فقال:

((اللهم اغفر له وارحمه))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي والنسائي في سننهما]

عن مَالِكٌ قال:

((أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا، سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ -يعني كان عليه الصلاة والسلام رحيماً بأصحابه وكان واقعياً- قَالَ: ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ))

ويقول عليه الصلاة والسلام عن نفسه:

((أنا نبي الرحمة))

كل دعوته رحمة للخلق، وكل مواقفه وسلوكه رحمة.

ذكر رحمة الله تعالى:

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي))

وعن سلمان الفارسي -رضي الله عنه- قال:

((قال عليه الصلاة والسلام: إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مئة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة))

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

المؤمنون يتراحمون، وقد وصف الله جل جلاله النبي الكريم وأصحابه فقال:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح الآية: ٢٩]

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت:

((جاء أعرابي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، تقبلون الصبيان!؟ فلا نقبلهم! فقال عليه الصلاة والسلام: أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟))

وفي بعض الأحاديث: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- يقول:

((جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

مؤشرا الرحمة والإيمان:

أيها الأخوة، أرحم الخلق بالخلق محمد -صلى الله عليه وسلم-، لأن مؤشر الرحمة يتحرك مع مؤشر الإيمان والاتصال بالله، فأنت ترحم بقدر اتصالك بالله، إذاً وفق هذه القاعدة: أرحم الخلق بالخلق النبي -عليه الصلاة والسلام-، ومع ذلك قال الله له:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

هذا التنكير تنكير التصغير، ويقول عن ذاته العلية:

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

[سورة الأنعام الآية: ١٣٣]

هذا التعريف تعريف شمول، بما رحمة من الله لنت لهم، وربك الغفور ذو الرحمة.

الحث على رحمة الله تعالى:

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى))

((ورحم الله امرأةً قامت من الليل فصلت، ثم أيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء))

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))

[أخرجه الترمذي في سننه]

من علامات قيام الساعة:

من علامات قيام الساعة: أن ينزع الحياء من وجوه النساء، وأن تذهب النخوة من رؤوس الرجال، وأن تنزع الرحمة من قلوب الأمراء.

ليس هناك امرأة فيها حياء، ولا رجل عنده نخوة، ولا أمير في قلبه رحمة، وهذا من علامات قيام الساعة.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((لا تنزع الرحمة إلا من شقي))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أشقى الخلق أقساهم قلوباً، وأقرب الخلق إلى الله أكثرهم رحمة.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يرحم الله من لا يرحم الناس))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

قد تكون في منصب، وبيدك التسعيرة، تقول: عندنا مائة وحدة سكنية نريد الثمن نقداً، يأتيك الأغنياء يدفعون، أما هؤلاء الفقراء فلا يملكون هذا الثمن، فالذي يرحم الناس يرحمه الله، بإمكانك أن تفرض ضرائب عالية جداً، تمتص معظم دخل الإنسان، أنت لا ترحمهم، لذلك الله جل جلاله لا يرحمك.

((لا يرحم الله من لا يرحم الناس))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

وهناك أعرابي انزعج من بعض أصحاب النبي حينما بال في المسجد، فقاموا إليه، قال: دعوه، فلما رأى النبي طمأنه، ومنعهم أن يصلوا إليه، قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً -يقصد هؤلاء-، فقال عليه الصلاة والسلام: يا أخي لقد حجرت واسعاً.

دققوا في هذا الحديث:

((لن تؤمنوا حتى ترحموا.

-إن لم تكن رحيماً فلست مؤمناً-

لن تؤمنوا حتى ترحموا، فقالوا: كلنا رحيم يا رسول الله، قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه...))

طبعاً: كل منا يرحم أولاده وزوجته وأقرباءه، هذه رحمة خاصة، هذه أودعت في قلبك من دون اختيار لك، هذه رحمة ليست كسبية، إنما هي فطرية، هذه أكاد أقول: لا تؤجر عليها، لأنها مركبة في أصل طبعك.

الرحمة العامة والرحمة الخاصة:

مرةً دخلت إلى مستشفى الأطفال، لفت نظري أن البدوية تبكي، وأن السافرة تبكي، وأن المثقفة تبكي، وأن المحجبة تبكي، وأن الغنية تبكي، أودع الله في قلب الأمهات هذه الرحمة، ولكن ما الرحمة التي تؤجر عليها، وترتقي بها؟ أن ترحم الناس، أن ترحم ابنك، هذا شيء مركب في أصل طبعك، لكن أن ترحم موظفاً عندك في المحل، هذه الرحمة التي تؤجر عليها الرحمة العامة، أما الخاصة أكاد أقول: لا أجر لك بها، لأنها ليست من كسبك، أودعها الله في قلبك كي تسير الأمور على ما ينبغي، لولا أن الآباء والأمهات يرحمون أولادهم، لما نما طفل إطلاقاً.

لذلك ورد في بعض الآثار: أن نبياً رأى أماً تقبل ابنها، وهي تخبز على التنور، وكلما وضعت رغيفاً في التنور، ضمت ابنها، وشمته، وقبلته، فعجب هذا النبي الكريم من رحمة هذه الأم بابنها! فقال الله له: إنها رحمة أودعتها في قلب أمها، وسأنزعها، فلما نزع من قلبها الرحمة بوليدها وبكى، ألقته في التنور.

لذلك: الرحمة فيما بين الأم والأولاد رحمة رائعة جداً تمثل رحمة الله، ولكن لا يكاد الأجر يرتقي بها إلى الأجر الذي يعطيه الله لمن يرحم الخلق عامة، لمن يرحم مخلوقاً لا ينتمي إليه، يعني رحمة الله بآبائهم في العالم كله في كل البلاد والعباد، لكن أن ترحم الناس، أن ترحم الغرباء، أن ترحم من لا يمت لك بصلة، هذه رحمة لها درجات عليا في ميزان العبد عند الله.

من أشد أنواع التهديد عبارة: ليس منا، يعني أخرجه من ملة الإسلام، ليس منا.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ومن لم يوقر كبيرنا، ومن لم يعرف لعالمنا حقه))

فالوقح، والمتطاول، والفظ، والغليظ، والقاسي على الصغير، هذا ليس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

الرحمة مطلقة وليست مقيدة:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، والإمام أحمد في مسنده]

قال العلماء: هذه أرجى آية في القرآن الكريم، الرحمة ينبغي أن لا تشمل البشر وحدهم، ينبغي أن تشمل الخلق جميعاً، فحينما رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- إنساناً يذبح شاةً أمام أختها غضب، وقال: هلا حجبتها عن أختها؟ أتريد أن تميتها ميتتين؟.

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته))

الآن حديث غريب جداً: امرأة بغي، والزنا جريمة لمرة واحدة، فإذا امتهنت المرأة الزنا، كانت بغياً لمرة واحدة جريمة، فإذا كان الزنا حرفتها هذه البغي، هذه البغي يقول عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-:

((بينما كلب يطوف بركية حول بئر، يكاد العطش يقتله، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها -أي خفها-، فسقته بموقها، فغفر الله لها))

الحقيقة: العلماء وقعوا في حيرة في هذا الحديث: امرأة بغي تمتهن الزنا، وهي من أسقط الخلق عند الله، لأنها رحمت كلباً، لم ترحم إنساناً، لكن كلبًا غفر لها، لأن هذا العمل لا يمكن أن يكون رياءً، ما من إنسان يراقب عملها، ما من إنسان ترجو عنده العطاء، ما من إنسان تخافه، إلا أنها رحمت هذا الكلب.

لذلك أنا أقول أيها الأخوة: حينما تخدم الخلق، حينما ترحم الخلق، لعل الله يرحمك بهذا العمل، حتى إن النبي -عليه الصلاة والسلام- دخل بستان أنصاري فرأى جملاً، فلما رأى الجمل النبي حن، فذرفت عيناه، تقدم منه النبي -عليه الصلاة والسلام-، فمسح ذفريه، وقال: من صاحب هذا الجمل؟ جيء بفتى أنصاري، قال: أنا صاحبه، قال: ألا تتقي الله بهذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه.

الآن أكثر عبارة شائعة: الشفافية، هذه هي الشفافية: أن تشف نفسك عن رحمة بالخلق.

يقول عليه الصلاة والسلام: عن عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري، عن أبيه قال:

((قال رسول الله -صلى اللهم عليه وسلم-: إني لأقوم إلى الصلاة، وأنا أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه))

هذه رحمته بالأمهات.

يا رسول الله ادع على المشركين، فقال:

((إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة))

الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب:

بالمناسبة: الإنسان حينما يبكي لمصيبة ألمت به هذا ليس منهياً عنه.

((إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك -يا إبراهيم- لمحزونون))

لذلك: إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا، وأشار إلى لسانه، أي يموت الإنسان، ويسمع صراخ من البيت، الجسر انهد، الله هو الرزاق، هناك كلمات تقال عند الموت كلها كفر، فما دام الإنسان يبكي، وقلبه يتألم فلا شيء عليه، هذا شيء طبيعي، لست مؤاخذاً أن تتألم لمصيبة، ولكن المؤاخذة أن تتكلم كلاماً فيه كفر، وفيه نقض لقضاء الله وقدره.

الشفاعة عند الله بين الخلق رحمتهم فيما بينهم:

من أقوال السلف الصالح: كان سيدنا عمر بن عبد العزيز يدعو ويقول: اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهل أن تبلغني.

الحقيقة: إذا كان من شيء يدل على الإيمان في قلب الإنسان هو الرحمة، فأنت ترحم بقدر إيمانك، وأنت تقسو بقدر عصيانك.

فمن لا يرحم لا يرحم.

وإن أردتم رحمتي، فارحموا خلقي.

وعلامة المؤمنين أنهم رحماء فيما بينهم.

أخواننا الكرام، أنا أتكلم كلاماً من معاناة، ترى الإنسان إذا وقع أخوه تحت يده، ذبحه من الوريد إلى الوريد، لا يرحم الذي يرحم يرحم.

إن الله لا يضيع أجر العاملين:

التقيت بشخص سألني عن عمره من باب المداعبة، أنا توقعته ستين سنة، قال: عمري ستة وسبعون، أقسم بالله! أنه يتمتع بحيوية ونشاط وبشعور بالقوة، شيء لا يصدق، سألته عن عمله، قال: أنا من أربعين سنة بالجمرك، أقسم بالله -وهو عندي صادق- أنه لم يؤذ إنساناً في هذه السنوات الأربعين، حتى قال لي: يعني لم أدقق إلا في تهريب المخدرات والأسلحة، أما في قضية بحاجة ماسة لها علف -فرضاً-، أشياء، مواد غذائية لا يدقق فيها، عاش -حسب ما أعلم- تسعين سنة، يتمتع

بصحة وبمكانة وبحبوحة، أقسم بالله العظيم أنه لم يصل إلى جيبه قرش واحد من الحرام، -الله موجود يعني رحم عباد الله-، أصابته محنة، أطلق عليه الرصاص من قبل المهربين، فدخل إلى المستشفى ناجى ربه، وقال: يا رب إن كنت آذيت عبداً من عبادك فأمتني الآن، وإن كنت تعلم أنني لم أؤذ أحداً من عبادك فارحمني، ورحمه الله، ونجحت العملية.

أنت حينما ترحم الناس يرحمك الله، وحينما تقسو على الناس، الإنسان قد يكون بمنصب حساس في المالية في الجمرك، فحينما تقسو على الناس أمامك يوم أسود، لأن هؤلاء الناس عباد الله.

الله إذا أعطى أدهش وإذا أخذ أدهش:

مرة التقيت مع إنسان أيضاً، مكانه حساس جداً، بإمكانه أن يرحم الناس، أو أن يفرمهم بالتعبير الدارج، أو أن يقسو عليهم، قلت له: الله عنده سرطان، عنده فشل كلوي، عنده تشمع كبد، عنده حسرة بالدماغ، عنده شلل، عنده أزمات قلبية، عنده جلطات، وكل هؤلاء العباد عباد الله، فإذا كنت بطلاً، فهيئ لله جواباً عن كل شيء تفعله لا لرؤسائك لربك.

أنا أنصح أخوتنا، وأنصح نفسي معكم: قبل أن تتحرك، قبل أن تنطق بكلمة، قبل أن تمد يدك لإنسان، قبل أن توقع: هل عندك جواب لله عز وجل فيما تفعل؟ قبل أن تتحرك، قبل أن يصل أذاك إلى مخلوق، كائناً من كان، مسلمًا أو كافرًا، قريبًا أو بعيدًا، إنسانًا أو حيوانًا، قبل أن يصل أذاك على مخلوق، هل عندك جواب لله عز وجل؟ هيىء جواباً قبل أن تفعل، وإلا الحساب الشديد، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

الله عز وجل إذا بطش شيء مدهش، يسحقه حتى العظم، وهؤلاء كلهم عباد الله.

الظلم ظلمات يوم القيامة:

يقال: إن يحيى البرمكي كان أقرب المقربين إلى هارون الرشيد، يعني الرجل الثاني في الدولة، فجأةً رأى نفسه في السجن، زاره أحد أقربائه، قال له: لعل دعوة مظلوم أصابتنا.

الظلم ظلمات يوم القيامة؛ قبل أن تتحرك، قبل أن تنطق بكلمة، قبل أن تبتسم، قبل أن تعبس، قبل أن تخطط، قبل أن تفعل شيئاً، هل عندك جواب لله عز وجل؟ هذا عبد لله.

اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب.

وقد قال العلماء: الله عز وجل ينتصر لدعاء المظلوم ولو كان كافراً، لا بأهليته للدعاء، ولكن بعدل الله عز وجل، وينقذ المضطر ولو كان كافراً، لا بأهليته للدعاء، ولكن برحمة الله عز وجل.

مَن لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ:

أيها الأخوة، نحن إذا تراحمنا رحمنا الله، أنا أرى قسوة في المعاملة، أرى قسوة بالغة.

أنت حينما ترحم تُرحم، وتأكد أنه بقدر اتصالك بالله ترحم، وبقدر بعدك عن الله تقسو، فإذا كان للرحمة مؤشر يتحرك، وللإيمان مؤشر، المؤشران يتحركان معاً، فينبغي أن يرحم بعضنا بعضاً، لا في العمل رحمة، رب العمل يجب أن ينفق في اليوم مئة ألف، ويجب أن يعطي الموظف خمسة آلاف في الشهر، والموظف يرى إنفاق صاحب العمل، يعني في النهاية يصير في حقد.

حينما تفكر أن هذا الذي أمامك إنسان، من حقه أن يأكل أكلاً جيداً، من حقه أن يسكن في بيت، من حقه أن يرتدي ثياباً، من حقه أن يربي أولاده، من حقه أن يطعمهم اللحم، كيف تعطيه راتباً لا يكفيه أيامًا؟ يتحكم في بطالة، لأنه يرضى معك بخمسة آلاف، وصاحب العمل ينفق في اليوم مئة ألف، هذا الحاضر، أنا أستمع إلى قسوة من أصحاب الأعمال، يقشعر منها البدن، من لا يرحم لا يرحم، وكلما أرى إنساناً يرحم، ولو كان مقصراً في العبادات، أتفاءل له في الخير.

لو كان لك قلب كالصخر، وتصلي كل يوم قيام الليل، الله عز وجل لا يقبله منك، لا يريد هذه العبادة، يريد أن ترحم عباده.

لئن تمشي في حاجة أخيك خير لك من صيام شهر واعتكاف:

أقول هذه الكلمة أخيراً: إنسان معتكف في مسجد النبي، رأى رجلا كئيبًا، قال له: مالي أراك كئيباً؟ قال: ديون لزمتني ما أطيق سدادها، قال: لمن؟ قال: لفلان، فهذا ابن عباس قال: أتحب أن أكلمه لك؟ قال: إذا شئت، فخرج ابن عباس من معتكفه، -والاعتكاف في رمضان من أجل العبادات-، قال له واحد: يا بن عباس أنسيت أنك معتكف؟ قال: لا والله ما نسيت أني معتكف، ولكن سمعت صاحب هذا القبر، والعهد به قريب، وبكى -والله كلام النبي الآن-: لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجدي هذا.

صيام من رسول الله، واعتكاف من رسول الله، يفضله أن تمشي مع أخ في حاجته.

نحن إذا تراحمنا يرحمنا الله، والله ينصرنا، لكن في حياة المسلمين ظلم يهتز له عرش الرحمن، وقهر، وسحق، وتضييق من إنسان مسلم لإنسان مسلم، لا رحمة، لا أحد يرحم أحداً، كل واحد متمكن من شيء يفرض إرادته الظالمة على من حوله، فلذلك طريق النصر أن نتراحم، إذا تراحمنا يرحمنا الله، وإذا قسا بعضنا على بعض سقطنا من عين الله.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (١٦-٣٢) : الستر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ما معنى من ستر مسلماً؟ :

أيها الأخوة الكرام، الخلق اليوم الستر، فالستر على المسلم تغطية عيوبه وإخفاء هناته، أخطائه، ومعنى من ستر مسلماً؛ أي رآه على قبيح فلم يظهره للناس، وليس في هذا ما يقتضي ترك الإنكار، فالإنكار عليه فيما بينهما شيء، وفيما تستره عن الناس شيء آخر، لا يعني الستر ألا تنصحه، وألا تنكر عليه فيما بينك وبينه، هذا شيء، وذاك شيء آخر، والستر محله المعصية، أي إذا رأيته على عمل طيب، وذكرته للناس، فهذا لا علاقة له بالناس، الستر على معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبّس بها فيجب عليه الإنكار، الإنكار شيء، والستر شيء آخر.

ما المراد بالستر؟ :

المراد بالستر: الستر على ذوي الهيئات ونحوهم، ممن ليس معروفاً بالأذى والفساد.

إنسان غلب عليه الصلاح والتستر، هو لا يريد أن يبهر أخطاءه، يستحي بأخطائه فيسترها، ويغلب عليه الصلاح، ما عرف بعقيدة زائغة، ولا بسلوك شائن، لكن وقعت منه هفوة، هذا يجب أن تستره، أما المعروف بهذه المعاصي والآثام ويذكرها، ولا يستحيي بها، فهذا له شأن آخر، هذا ينبغي ألا تستره، لأنك إن سترته، غششت به المسلمين، وإنك إن سترته، جعلته يتمادى في المعصية والإثم، أيضاً المجاهر بالمعصية، هذا ليس محل، هذا الدرس.

الستر والإنكار؟ :

الستر شيء، والإنكار على المخطئ والنصح والأمر بالمعروف شيء آخر، أما جرح الرواة، راو كذاب فينبغي أن أفضحه، قضية دين:

إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

والشهود شاهد زور، ينبغي أن أفضحه، وأطعن بشهادته، أمين على صندوق وجدته في حركة مالية غير مقبولة يجب أن أفضحه، لأن هذه الأموال أموال المسلمين، قضية راوٍ، قضية شاهد، وأمين صندوق، وأمين على وقف، أمّ على مال أيتام، فلا يحل الستر عليه، إذا رأى منهم ما يقدح في أهليته، وليس هذا من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة الواجبة.

إنسان في مسجد يفعل شيئاً منكراً، يثير فتنة، أخي أنا لا أريد أن أغتابه، من قال لك هذا؟ إذا وجد خطأ في العقيدة، ويروجها، أو يفسد العلاقات بين الأخوة، أو يستخدم كلمات لا تليق بالمؤمن، هذا لا ينبغي أن تستره.

هل يوجد فرق بين المصدر والاسم؟ :

بالمناسبة: الستر مصدر، والستر اسم، كيف أنا أمسك بورقة أنا أفعل هكذا، هذه العملية في الورقة اسمها: شَق، أما هذه الثلمة اسمها: شِق، فالفرق بين المصدر والاسم دقيق جداً.
السُحور غير السَحور، والغُسل غير الغَسل، والشِق غير الشَق، والسِتر غير السَتر، السَتر مصدر، عملية إخفاء العيوب سَتر، أما هذا الذنب الذي خفي عن الناس فسِتر.

من معاني الستر :

أيها الأخوة:

(وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة فصلت الآية: ٢٢]

فاتني في التعريف اللغوي: أن من معاني السَتر أن تستر نفسك، لا أن تفضح نفسك، ليس في ديننا ما يسمى بالاعتراف، الله عز وجل سَترك، ينبغي أن تستر نفسك، السَتر شيء والإنكار شيء، والواجب أن تستُر أخطاءك.

ما قاله الصديق :

ومن أدق ما قاله الصديق -رضي الله عنه-: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.
أستمع أحياناً لمشكلات بين الزوجين كبيرة جداً، سببها: أنها أرادت أن تصالحه فيما كان منها قبل الزواج فكرهها، أو هو أراد أن يصالحها ما كان له من مغامرات، منتهى الحمق أن تفعل فعلاً شائناً وأن يسترك الله، ثم تفضح نفسك.

من الحمق الشديد :

أخواننا الكرام، الإنسان لا يغفر.

حدثني أخ داعية، أحد أخوانه قال له: أنا زنيت، أقسم بالله! عشرون عامًا مض على هذا الخبر، كلما رآه تذكر أنه زنا.

من الحمق الشديد والخطأ الفادح أنك إذا اقترفت معصية، ولحكمة بالغةٍ بالغة لم يفضحك الله عز وجل، الله عز وجل يفضح، لكن بعد الإصرار والتبجح، وبعد الافتخار بالمعصية يفضح، أما إنسان أخطأ، ذاب خجلاً من الله عز وجل، يستره الله، لا ينبغي أن يفضح نفسه، بشكل عام مجتمع المسلمين مجتمع ستير، ومجتمع الكافرين مجتمع فضّاح.

هذا هو مجتمع أمريكا :

حدثني أخ -تعرفونه جميعاً، رئيس الجالية في أمريكا-: لما كلينتون فضح في قضية مونيكا، انتشر له في الإنترنت ألفين وثمانمائة صفحة بتفاصيل علاقته مع هذه المرأة، فضائح، حتى قيل: أن المجتمع الأمريكي مجتمع فضائحي، يتلذذون بالفضائح!!! فلما جمع رجال الدين ليعتذر أمامهم، وكان من بينهم الأستاذ بسام، فقال له: نحن في الإسلام لا نريد أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، أقسم بالله أن دمعة نزلت من عينيه، لأنه فضح فضيحة ما بعدها فضيحة.

مجتمع المسلمين مجتمع ستير، السَتر من صفات المؤمنين.

أنا لا أقول: افعلوا ما تشاؤون، لكن لو أن واحدًا -لا سمح الله ولا قدر- زلت قدمه وأخطأ، ينبغي أن نستره.

من خلق المؤمن :

حدثني رجل عن عالم جليل كان قاضياً في دمشق، جاءته امرأتان، واحدة بينهما ذات وزن ثقيل، وثمة درجة قبل أن تصل إليه، دون أن تشعر صدر صوت مزعج من هذه المرأة، صوت قبيح، ذابت من الخجل أمام القاضي، فلما ذهبت إليه قال: ما اسمك يا أختي؟ ذكرت له اسمها، قال: لم أسمع، ارفعي صوتك، قال: لم أسمع ارفعيه أكثر، فقالت لأختها: الحمد لله لم يسمعنا.

هو سمعها، لكنه أراد أن يستر حالها، ليس هناك خلق أكرم من الستر.

قف عند هذا القول :

أقول لكم: الإنسان لئيم، لا يغفر، لكن الله كريم، يغفر، فأنا لا أريد من واحد أن يحدث الناس بأخطائه، إياكم أن تفهموا أنه لك أن تخطئ والأمر مغطى، حينما تخطئ وتعتمد على ستر المؤمنين يفضحك الله، أما حينما تخطئ وتستغفر، وتندم أشد الندم فالله يسترك.

قصة لا يمكن أن تنسى :

لا أنسى القصة التي سمعتها مرة، وأرددها كثيراً: أن هذا الذي رأى امرأته وهي في الشهر الخامس بعد العرس، قد بلغ الحمل أوجه، فعرف أن هذا الحمل ليس منه، وأنها أخطأت ، إلى هنا له جار خطيب مسجد في أحد أحياء دمشق، رأى النبي -عليه الصلاة والسلام- يقول له: قل لفلان: إنه رفيقي في الجنة، فهذا الخطيب والإمام تأثر أن هذه البشرى ليست له، لجار يعمل في التجارة، طرق بابه، وقال له: لك عندي بشارة من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أخبرني ماذا فعلت مع الله حتى استحققت هذه البشارة؟ .

طبعاً ضيق عليه، وأحرجه حتى أخبره، قال: تزوجت امرأة، وفي الشهر الخامس بدا لي أنها حامل في الشهر التاسع، والحمل ليس مني، قال: بإمكاني أن أفضحها، وأطلقها، وأسحقها، و.... فآثرت أن أسترها، وجئت بولادة فولدت، وحملت الغلام تحت العباءة، وانتظرت حتى كبر الإمام لصلاة الفجر، ولما انتهت الصلاة بكى الغلام، فاجتمع الناس حوله، فجئتهم، وكأني لا أعلم شيئًا، قلت لهم: ما الخبر؟ قال: تعال انظر غلام! قال: أنا أكفله، أعطوني إياه، فأخذه أمام أهل الحي على أنه لقيط، وتكفل به، وأعاده إلى أمه ليربى في حجرها، فاستحق بهذا هذه البشارة من رسول الله.

ليس البطولة أن تضبط مخالفة، بل أن تستر، وأن تأخذ بيد هذا العاصي إلى الله عز وجل، البطولة أن تعينه على الشيطان، لا أن تعين الشيطان عليه، الستر خلق، لا أبالغ أن معظم المؤمنين لا يعرفون هذا الخلق أبداً، قصة ممتعة تروج كالنار في الهشيم، وهو مرتاح، مؤمن صائم، مصل، أنت فضاح، لست مؤمنًا، الستر خلق من خلق المؤمنين.

مد يد البيعة لرسول الله :

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّه عَنْه-، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا، وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ:

((بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ؛ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

لما يستر الله عز وجل عبد لحكمة بالغة، إياك أن تخرق ستر الله عز وجل.

من أحداث يوم القيامة :

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ قَالَ:

((بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ -رَضِي اللَّه عَنْهما- آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ؟))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

الله عز وجل يوم القيامة يقرر عبده بذنوبه، ويقول: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم.

طائفة من الأحاديث وردت بشأن الستر :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

وفي حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لَا يَسْتُرُ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

وفي حديث ثالث: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ -رَضِي اللَّه عَنْهمَا- أَخْبَرَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

قصة :

قصة: إنسان توفي -رحمه الله، كان صديقاً لي من لبنان-، كان مرة في مركبته في بيروت، فصدمه إنسان من سوريا، يركب سيارته، ومعه نساء محجبات، قال لي: والله كره علي أن أزعجه، جاء إلى

نزهة، ومعه نساء محجبات، فعفوت عنه، بعد سنتين كان في الشام، وصدم سيارة، وصاحبها يبدو أنه سفيه، قال: اذهب أنا أسامحك**!**.

أنا رأيت دمعة تنحدر على خده، سألته: لماذا؟ هو إنسان ميسور الحال، لم يذكر لي أنه لم يدفع مبلغاً يسيراً، قال: والله أردت ألا أزعج هذا الإنسان المسلم قبل سنتين، فجاء من يكافئني بعمل مثله تماماً.

أنت إذا سترت الله يسترك، وإذا عفوت الله يعفو عنك.

ما وراء هذا الحديث :

عَنْ مَوْلًى لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، يُقَالُ لَهُ كَثِيرٌ، قَالَ:

((لَقِيتُ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ لَنَا جِيرَانًا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، قَالَ: دَعْهُمْ ثُمَّ جَاءَهُ، فَقَالَ: أَلَا أَدْعُو عَلَيْهِمُ الشُّرَطُ؟ فَقَالَ عُقْبَةُ: وَيْحَكَ دَعْهُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: مَنْ رَأَى عَوْرَةً فَسَتَرَهَا، كَانَ كَمَنْ أَحْيَا مَوْءُودَةً مِنْ قَبْرِهَا))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

ما الحكم الشرعي الذي نستخرجه من هذا الحديث؟ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللَّهُ لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلًا دَعَاهُ وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ: (أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

لما سيدنا عمر أنكر عليه سكت النبي، بمعنى أنه أقر على إنكاره، لِمَ فضحت نفسك؟ فالنبي وجَّهه، افعل حسنة تمحُ بها هذه السيئة، فقال الرجل: يا رسول الله هذه له خاصة؟ قال: لا بل للناس كافة، من يفعل سيئة فليتبعها بحسنة، الحسنة تمحو السيئة، ولا تفضح نفسك.

أنا أشدد على أن مئات القصص وصلت إلي عن خلافات زوجية طاحنة في معظمها انتهت إلى الطلاق، لأن الفتاة الحمقاء قالت له: كنت أحب شاباً قبلك، هذا كلام فارغ، تزوجتِ وقبلك، أحبك، وأنت في موضع كبير عنده، والله سترك، فاستر نفسك، وأحياناً هو يتكلم عن علاقاته قبل الزواج، فيسقط من عينها، هي حينما تزوجته، ظنت أنه شاب طاهر عفيف نقي، فما وجدت أحمق ممن يخرق ستر الله له، ويفضح نفسه.

نقطة دقيقة :

ومرة ثانية: نحن ليس في ديننا ما يسمى بالاعتراف، الغفور هو الله، استغفر الله فيما بينك وبينه، وتب توبة نصوحاً، أنت لا سمح الله ولا قدر، لست مكلفاً كمسلم أن تبلغ الحاكم، طبعاً إذا كان الحاكم يقيم أمر الله عن ذنب يوجب حداً، وليس المسلم مكلفاً أن ينقل ذنباً يوجب حداً للحاكم، لا المذنب مكلف حاكم، ولا إنسان آخر مكلف، لكن الحاكم إذا كلف إنسانًا أن يضبط الأمور، هذا الإنسان إذا وقع على معصية وكتمها: يقول عليه الصلاة والسلام له: لا عفا الله عنه إن عفا.

حينما يرفع على ولي أمر المسلمين ذنب يوجب حداً حاكم، فإذا عفا عنه يقول عليه الصلاة والسلام له: لا عفا الله عنه إن عفا.

لا يوجد خيار، لكن الله عز وجل لا يوصل هذا الذنب الذي يوجب حداً إلى ولي أمر المسلمين، إلا عندما تقتضي حكمة الله أن يفضح، أما ما دام الله قد سترك استر نفسك، لا المذنب مكلف أن يقول: أنا اقترفت ذنباً يوجب حداً حاكم، فأقيموا علي الحد، ولا إنسان عادي مسلم ليس مكلفاً من قبل الحاكم أن يضبط الأمور، أما إذا كلف أن يضبط حاكم ولم يرفع الأمر إلى الولي، فقد ارتكب إثماً كبيراً، والولي إذا عفا، لا عفا الله عنه، هذا هو التشريع.

هل يجوز للعبد أن يفضح نفسه؟ :

عَن أبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْمَسْجِدِ، وَنَحْنُ قُعُودٌ مَعَهُ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ أَعَادَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَسَكَتَ عَنْهُ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ نَبِيُّ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: فَاتَّبَعَ الرَّجُلُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ انْصَرَفَ، وَاتَّبَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْظُرُ مَا يَرُدُّ عَلَى الرَّجُلِ، فَلَحِقَ الرَّجُلُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَرَأَيْتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ: أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَنْتَ الْوُضُوءَ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ثُمَّ شَهِدْتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ أَوْ قَالَ: ذَنْبَكَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

ما دمت توضأت، وصليت، وجئت المسجد تائباً، ولم يفضحك الله عز وجل، فستر الله لك، ينبغي أن تشكره عليه، وتقدسه، وألا تفضح نفسك.

هل يجوز للمرأة البوح بصفات امرأة لا تحل لزوجها؟ :

عادة شائعة في المسلمات: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْه- قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَتَنْعَتَهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

حضرت عرسًا، ما شاء الله على هذا الجمال! هذا حمق، تنقلين صفات العروس لزوجك ؟! هو رجل يتمناها لنفسه، وينصرف عنك، ويتمنى أن يراها في المستقبل، هذا حمق كبير.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْهم- قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَتَنْعَتَهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا))

هذا محرم، وجهوا نساءكم أنه لا يجوز أن تبوح المرأة بصفات امرأة أخرى أجنبية لا تحل لزوجها.

متى يفضح الله العبد في عقر داره؟ :

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ، يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

يوجد شخص فضائحي قناص، لقط قصة نشرها، هذا الإنسان كيف يعاقب؟ يفضحه الله في عقر داره، تنشأ في بيته مشكلة كبيرة، وتسري في داره وبين الناس! كل إنسان يتتبع عورات المسلمين، يفضحه الله في عقر داره.

رحمة الصديق بالناس :

الصديق -رضي الله عنه- يقول: لو أخذت سارقاً لأحببت أن يستره الله، ولو أخذت شارباً لأحببت أن يستره الله.

من شدة رحمته على الناس، هو يعاقب السارق وشارب الخمر، لكن كان يتمنى أن يستره الله عز وجل.

امرأة قالت لعائشة: يا أم المؤمنين، إن كرياً -صاحب دابة- استأجرتها منه، أخذ بساقي وأنا محرمة، فقالت: حِجراً حجراً حِجراً أعرضت عنها -ستراً سِتراً: استري نفسك-، وأعرضت في وجهها، وقالت لكتفها الذي لمسته بكفها وقالت: يا نساء المؤمنين، إذا أذنبت إحداكن ذنباً فلا تخبرن

به الناس، ولتستغفرن الله، ولتتب إليه، فإن العباد يعيرون، ولا يغفرون، والله تعالى يغفر ولا يعير.

الأمور واضحة تماماً!.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَنْ رَأَى عَوْرَةً فَسَتَرَهَا، كَانَ كَمَنْ أَحْيَا مَوْءُودَةً))

[أخرجه أبو داود في سننه]

إياك أن تتكلم عن شيء بدر منك وقد ستره الله عليك :

والحسن البصري يقول: من كان بينه وبين أخيه ستر فلا يكشفه.

إنسان ارتكب ذنبًا مرتين، ثم مشى في طريق الإيمان مع إنسان يدعو إلى الله، لكن ليس في المستوى المطلوب، فذكر هذين الذنبين، ثم نشبت بينه وبين هذا الذي سار معه مشكلة فتركه، فجاء هذا الذي يدعو إلى الله، وفضحه بالذنبين السابقين؛ لأهله ولأهل زوجته، فقامت مشكلة، والآن تتفجر.

لا تتكلم عن شيء بدر منك، وقد سترك الله عليه، الفكرة عدتها عشر مرات.

ما ورد عن النبي :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ ...))

[أخرجه الترمذي في سننه]

لا تفضح إنسانًا، انصحه بينك وبينه، لا ترفع الأمر لمن يعمل في الدعوة فتنشأ مشكلة، هذا الإنسان سقط من عيني، كن ستيراً، فمن سمع بفاحشة ثم أفشاها، كان كالذي أبداها!.

لم استقبح عمر هذا العمل؟ :

شرحبيل قال: إنكم نزلتم أرضاً فيها نساء وشراب، فمن أصاب منكم حداً فليأتنا حتى نطهره، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إليه: لا أم لك، تأمر قوماً ستر الله عليهم أن يهتكوا؟ ستر الله عليهم".

-من أخطأ يأتي ليعترف حتى نطهره بالحد، سيدنا عمر استقبح هذا العمل، فقال له: لا أم لك، لا ينبغي لأحد أن يهتك ستر الله تعالى-، قيل كيف: كيف يهتك ستر الله تعالى؟ قال: يعمل الرجل الذنب فيستره الله عليه، فيذيعه في الناس.

أيها الأخوة، من أجمل صفات المؤمن: أنه يتخلق بأخلاق الله، الله ستير، والمؤمن يستر.

كيف يعامل التائب؟ :

أخواننا الكرام، موضوع دقيق جداً: نحن في العالم الإسلامي لا نحسن معاملة التائب، يقع إنسان في ذنب، هذا التائب يجب أن تنسيه ذنبه، تعامله كمؤمن طاهر، لكن دائماً نعيره، هذا خلق سيء جداً ويمنع التوبة، لكن ما أجمل مجتمع؟ إنسان أخطأ ثم تاب، هذا الذنب كأنه لم يكن، فالتائب كيف يعامل؟ يعامل معاملة يمكن أن يشكر بمكانته بين الناس.

سيدنا حاطب ارتكب خيانة عظمى، والنبي قبله، قال:

((إني صدقته فصدقوه، وكلفه بعمل من جنس خيانته))

دليل أنه وثق به.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (١٧-٣٢) : الكسب الحلال

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

ما كل لقمة تستساغ إلا إذا كانت مشروعة:

أيها الأخوة الكرام، من خُلق المؤمن أكله للطيبات، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٥٧]

فكل شيء تطيب النفس به فهو الطيب، وكل شيء تخبث النفس به فهو خبيث، والباب واسع جداً.

أولاً: أبرز أسباب طيب الطعام أن يكون الكسب حلالاً، هناك من يتوهم أن الطعام الطيب هو الطعام الذي تستسيغه النفس، هو كذلك، لكن المقصود بالطعام الطيب: ما كان كسبه حلالاً، وذلك لأن الإنسان أودعت فيه الشهوات، لكن هذه الشهوات حيادية يمكن أن يتحرك بها الإنسان مئة وثمانين درجة، لكن منهج الله عز وجل حدد له الزاوية التي بإمكانه أن يتحرك، انطلاقاً من هذه الشهوة في مجال محدد، هذا هو منهج الله، فالإنسان إذا أراد أن يتحرك بشهوته من دون قيد أو شرط لا بد من أن يعتدي، إذا أراد المال الوفير قد يكون الكسب الحلال لا يتيح له هذا المال الوفير، إذاً: لا بد من أن يسرق، أو أن يكذب، أو أن يغش، أو أن يحتال، أو أن يغتصب.

إذاً: من أجل أن يتحرك الإنسان بشهوته من دون قيد أو شرط لا بد من أن يظلم، ومن أجل أن يروي ملذاته الحسية لا بد من أن يعتدي على أعراض الآخرين، فحينما يطبق الإنسان منهج الله، يأخذ ما له، ويدع ما عليه، إذاً: علاقته بالله سليمة.

فالإنسان إذا أراد أن يأكل كل شيء بطريقة أو بأخرى، لا بد من كسب حرام يتيح له هذه المكاسب التي يحلم بها، إذاً: هناك علاقة بين الفسق وبين الظلم، والله سبحانه وتعالى يهلك القرى إذا ظلمت، ويهلك القرى إذا فسقت، بل كل ظلم يؤدي إلى فسق، وكل فسق أساسه ظلم، الفسق أن تعتدي على أعراض الآخرين، والفسق أن تأخذ ما ليس لك، فهناك ترابط وجودي بين الفسق وبين الظلم.

أودع الله في الإنسان الشهوات ليرقى بها إلى رب الأرض والسموات، لا يرقى بالشهوة إلا إذا كانت وفق منهج الله، بدليل قول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: ٥٠]

معنى ذلك: أن الذي يتبع هواه وفق منهج الله لا شيء عليه، من يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه، اشتهى المرأة فتزوج، هذه زوجته أم أولاده، ارتبط معها برباط أبدي، لها مستقبل عنده ولو

تقدمت بها السن، لها منه أولاد، يوجد بالزواج طمأنينة، ويوجد بالزواج حفظ للأعراض، يوجد بالزواج مستقبل متألق، بكسب المال إن كسبت المال الحلال؛ أي إن أخذت مالك، ولم تأخذ ما ليس لك، الكسب الحلال يعني المنافع المتبادلة، الكسب الحرام يعني منفعة على حساب مضرة، ينتفع إنسان، ويتضرر إنسان، هذا الكسب الحرام.

إذاً: أنت حينما يكون طعامك طيباً، المعنى الدقيق: أن يكون المال الذي اشتريت به هذا الطعام قد اكتسبته من حلال، لا يوجد كذب، ولا يوجد غش، ولا احتيال، ولا تدليس، ولا احتكار، ولا إيهام، مئات المعاصي التي تدخل في كسب المال، فالإنسان حينما يتحرر ويتحرى الكسب الحلال، يكون هذا المال حلالاً، فإذا اشترى به طعاماً، فهذا الطعام بالنظر الشرعي طعام طيب، أي لو أتيح لك خمسين ليرة لتأكل بها، سوف يكون الطعام بخمسين ليرة أقل من عادي، لكن لو سرق الإنسان مئة ألف ليرة، وأتى لبيته بأطيب أنواع الطعام، هذا الطعام خبيث، لأن المال الذي اشتري به مال حرام، لذلك قالوا:

هناك حرام لذاته، وهناك حرام لغيره.

أي أن يأكل الإنسان اللحم؛ لحم الخنزير، هذا حرام لذاته، لا علاقة لنا بالكسب هنا، لحم الخنزير حرام، أما حينما يأكل الإنسان لحم الضأن، ولا يدفع الثمن فهو سارق، هذا حرام لغيره، فحيثما وردت كلمة الطيب؛ أي طعام اشتري بمال حلال.

زرت صديقاً لي في أحد الأعياد فاستقبلني والده، قال لي والده: أنا عمري ستة وتسعون عاماً، وأقسم بالله أنه أجرى فحوصاً قبل أيام فكانت النسب كلها طبيعية، ست وتسعون جميع النسب والتحاليل طبيعية، ثم قال لي: والله ما أكلت درهماً حراماً في كل حياتي، وأضاف: و لا أعرف الحرام بالمعنى الثاني، ف:

إن الله طيب، ولا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

فالمعنى الأول: الطعام الطيب: الطعام الذي اشتري بمال حلال؛ أي اكتسبت المال من طريق مشروع، من تجارة شرعية، أما إنسان افتتح ملهى، فهذا الملهى الكسب فيه حرام، لأنه بنى ربحه على إفساد أخلاق الآخرين، بنى ربحه على شيوع الزنا، الإنسان لو باع طعاماً فاسداً؛ أي انتهت مدة صلاحيته، أغفل هذا التاريخ، وباعه إلى معمل أغذية، هذا لا تظهر المخالفة، إذا بعت المادة الغذائية التي انتهت صلاحيتها إلى معمل الغذاء، أنت ربحت أرباحاً جيدة، لكن هذا المال الذي ربحته مالاً حراماً.

فأنا أعتقد أن هناك ألوف المكاسب المحرمة، أي كسب يحقق لك ربحاً على حساب مضرة الناس أو فسادهم فهو كسب حرام، إما أن تبيعهم بضاعة سيئة بصفات جيدة هذا هو الغش، و:

من غش فليس منا.

أو أن تحتال عليهم، أو أن توهمهم، أو أن تحتكر المواد الأساسية فترفع الأسعار، أو أن توهم، أو أن تدلس، أو أن تأخذ المال الذي ينبغي ألا تأخذه، فالشيء الطيب هو الشيء الذي اشتري بمال حلال، هذه واحدة.

والشيء الخبيث هو الذي يضرك؟ لا، لننتقل من ثمن الشيء إلى الشيء نفسه، لحم الخنزير له آثار ضارة جداً، الدخان له آثار ضارة جداً، أي طعام يفسد بنية الإنسان فهو طعام خبيث، الله سبحانه وتعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث.

الطعام الطيب كل ما لا تستخبثه الفطر السليمة وأقره الشرع:

فمن تعريفات الطيب: قال بعض العلماء: الطيب ما يستلذ من المباح، الطيب ما لا يعصى الله في كسبه، ولا يتأذى مخلوق بفعله، والطيب ما كان متناولاً من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، وفي المكان الذي يجوز.

لو إنسان أكل لحم ضأن في ملهى، المكان لا يجوز، هذا فيه غناء وفيه رقص، فيجب أن تأكل من حيث يجوز، وبالقدر الذي يجوز، وفي المكان الذي يجوز، هذا هو الطيب.

المكان له علاقة، والزمان له علاقة، لو أن إنساناً أكل في رمضان، هذا زمان صيام لا زمان إفطار، الزمان، والمكان، والمصدر، والطبيعة هذا هو الطيب.

إن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً.

أي الإسلام لا يحتمل الغش أبداً، نحن في الحياة اليومية قد نشتري بضاعة من جوانب جيدة، ومن جوانب سيئة، لكن في التعامل مع الله، الله عز وجل لا يقبل إلا أن يكون العمل كله طيباً، الدين لا يحتمل غشاً أبداً، ولا كذباً، ولا احتيالاً، ولا مراوغة.

يطبع المرء على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة.

فالإنسان لمجرد أن يكذب أو أن يخون، انتهى إيمانه، ودخل في الفسق والفجور.

بعضهم فرق بين الحلال والطيب، قال: الحلال ما أفتاك المفتي أنه حلال، والطيب ما أفتاك قلبك أنه ليس فيه جناح.

استفتِ قلبك، وإن أفتاك المفتون وأفتوك.

طبعاً: أي قلب؟ القلب السليم، يأتي إنسان قلبه خبيث، قلبه عليه ران، قلبه في ضلال، يقول لك: ارتحت لهذه المعاملة، هذه الراحة ليست مقياساً إطلاقاً، دائماً وأبداً العلم حكم على الحال، وليس الحال حكماً على العلم، قد يرتاح الإنسان لمعصية، قد يرتاح لكسب حرام، لكن المقياس أن يكون منطوق العلم الشرعي هو الذي يسوغ لك هذه الراحة أو لا يسوغها لك.

أولاً: لا بد من أن يكون المأكل طيباً، يقول الله عز وجل:

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ٥٧]

لا بد من أن يكون المطعوم حلالاً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

[سورة البقرة الآية: ١٦٨]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ١٧٢]

هذا المعنى الأول، المعنى الثاني: إن أنفقت يجب أن تنفق من الطيب، والطيب ما كان كسبه حلالاً، والطيب ما كان مستساغاً تستسيغه النفس، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٧]

بالمناسبة أيها الأخوة: لا يجوز أبداً أن تتصدق بطعام تكرهه، لكن يجوز أن تتصدق بثياب قد لا تروق لك، لكنها تروق للآخرين، يوجد إنسان له وضع معاشي معين، هذه الثياب يراها شيئًا ثمينًا جداً، لكن الذي اقتنى هذه الثياب قد لا تناسبه، إما قد لا تناسبه قياساً، أو قد لا تناسبه لوناً، أو قد لا تناسبه شكلاً، فاللباس متعلق بأذواق معينة، وبأعمار معينة، وبصفات معينة.

فالعلماء أجازوا أن تتصدق بثوب قد تعافه نفسك، لكن لا تعافه نفس من يرتديه، الأذواق متنوعة، إذاً: الطعام الذي تكرهه لا يجوز أبداً أن تتصدق به، لكن الثياب التي تكرهها، لك أن تقدمها لمن يحتاجها.

نحن عندنا قاعدة: الطيب ما أحله الله، والخبيث ما حرمه الله.

الله حرم لحم الخنزير، لو قيل لك: هذا الخنزير نشأ في مزرعة نظيفة، في عناية فائقة، وعرض اللحم بشكل رائع، مهما كان منظر هذا اللحم مقبولاً، ومهما اتخذت شروطاً صعبة كي يكون جيداً، فلأن الله حرمه فهو خبيث.

قاعدة: الطيب ما أحله الله، والخبيث ما حرمه الله.

أي يوجد بلاد بآسيا قد لا تصدقون، أغلى وجبة طعام بالفنادق قرد حي موضوع في قفص، ورأسه محصور في مربع، تقطع العظم الذي يغطي رأسه، ويؤكل دماغه، وهو حي، هذا طعام غال جداً.

في الإنترنت وجدت أن هناك في بلاد آسيا يقدمون الطفل الذي سقط من رحم أمه قبل أن يكتمل نموه، يقدمونه على طبق، لأن لحمه أطرى لحم، فيوجد طعام خبيث، ما دام أن يأكل الإنسان لحم مخلوق بشري، لكن صغير لم يكتمل، فهذا طعام خبيث.

الآن المرض الذي انتشر الآن بآسيا، وعمّ العالم السادس، هذا أحد أسبابه: أكل الكلاب والقطط، وأكل الصراصير، الصرصور تستخبثه النفس.

ففي بعض التعريفات للطعام: كل طعام تستخبثه النفس هو طعام محرم.

الفأرة فرضاً، العقرب، الثعابين بفرموزا تقدم كأفخم طعام، يختار ثعبان، يقطع رأسه، ينزع جلده، ثم يعطى للمشتري:

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٥٧]

فالخبائث: الأطعمة التي تستخبثها النفس، والأصل: أن الذي حرمه الله خبيث، والذي أحله طيباً، لو لم يأت نص في طعام أحل أم حُرم، ما دامت الفطرة السليمة تستخبثه فهو طعام ..

يوجد بلاد بالشرق عجيب أمرها، الجرذان تؤكل كأفخم طعام.

نحن والحمد لله، الله عز وجل أكرمنا بهذا الدين، طعام بلاد المسلمين يعلو على أي طعام، الذي يسافر ثم يعود إلى بلده، لا يجد طعاماً مستساغاً كطعام بلاد المسلمين، لأن الله عز وجل أحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث. الدليل:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)

[سورة المائدة الآية: ٥]

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)

[سورة المائدة الآية: ٤]

الذي سمح الله بأكله هو الطعام الطيب، والذي حرم أكله هو الطعام الخبيث، الآن الطعام الذي لم يرد نص فيه، ما دامت الفطر السليمة تستسيغه فهو طعام طيب، وما دامت الفطر السليمة لا تستسيغه فهو طعام خبيث.

الحث على الكسب الحلال واجتناب الحرام:

أيها الأخوة، من الأحاديث التي تتعلق بالطعام الطيب:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الْأَكْثَرُونَ هُمْ الْأَسْفَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَكَسَبَهُ مِنْ طَيِّبٍ))

المكثر من المال هو الفقير يوم القيامة، إن لم ينفقه في حلال، المكثر من المال إن كان كسبه حراماً، أو إذا أنفقه في حرام، يوم القيامة يأتي صاحب هذا المال فقيراً، إنسان آخر في الدنيا كسب المال من حلال، وأنفقه في حلال، يأتي يوم القيامة غنياً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلُوصَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ))

ليست هذه للنهي، لا يتصدق، لا هنا: نافية ليست ناهية، فلوه؛ أي مهره، قلوصه؛ أي ناقته، أي كسبت مالاً حلالاً، أطعمت منه تمرة من كسب حلال، وبوجه حلال، هذه التمرة تراها يوم القيامة كالجبل.

وعَنْ الْمِقْدَامِ بْن مَعْدِ يكربَ الزُّبَيْدِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَا كَسَبَ الرَّجُلُ كَسْبًا أَطْيَبَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ.

-هناك أعمال فيها شبهة بكسب المال، أما عمل اليد فهو حلال صرف-.

وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَخَادِمِهِ فَهُوَ صَدَقَةٌ))

والحديث الأصل في هذا الباب:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، وَقَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

الطعام الخبيث؛ أي الذي اشتري بمال حرام، أو الطعام الخبيث لذاته، صاحبه لا تستجاب دعوته.

وإن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه، للفقرة الأخيرة معنيان، لك أن تأكل من كسب ابنك، ابنك من كسبك، لو أكلت من مال ابنك فالمال حلال، لأن ابنك كسبك، تزوجت أمه، وأنجبته، ورعيته، وربيته، وأنفقت عليه، فكسب الابن إذا انتقل إليك فهو كسب حلال.

المعنى الثاني: ورد في حديث آخر:

((أفضل كسب الرجل ولده))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

أعظم عمل صالح تقدمه لله عز وجل أن تربي ولدًا صالحاً، فكل أعماله في صحيفتك:

((وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له))

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

والعياذ بالله! إنسان يكون بمنصب معين، وصاحب المنصب بإمكانه أن يوقع أشد الأذى بالناس، فيبني رزقه على ابتزاز أموالهم، على استخدام قوته في تهديد الناس، وابتزاز أموالهم، هذا أخبث كسب، اشكروا الله إذا كان عمل الإنسان مشروعًا.

بالمناسبة: رزق الإنسان أو حرفته إنسان وزوجته ألصق شيئين به.

مرة إنسان حضر هذه الدروس، ثم غاب هذا الإنسان، فلما تفقدته قال لي: أنا أعمل بالأشرطة وبالغناء، وما وجدت أنه يتناسب عملي مع الدروس، وهذه حرفتي، ولا أستطيع أن أتركها. فمهنته قطعته عن الله عز وجل، هناك آلاف المهن كلها محرمة، يعني الرقص، والتمثيل، والنوادي الليلية، والمجلات الداعرة، والأفلام، آلاف مؤلفة من الحرف تقطع صاحبها عن الله عز وجل، فإذا كان الشخص منا له عمل مشروع، أساسه نفع المسلمين، فهذه نعمة كبرى، نعمة لا تقدر بثمن، معلم مثلاً رياضيات، لا يوجد مانع، معلم فيزياء وكيمياء، معلم لغة عربية، بائع يبيع مواد أولية أساسية، لكن يوجد محلات تجارية تبيع ملبوسات، لكن تتم فيها من المخالفات الشرعية، ومن تجاوز الحدود ما لا يعلمه إلا الله، تكون بأفخر شارع تجاري، والتزيينات بأعلى مستوى، لا محل بمكان تصليح السيارات؛ حيث الضجيج، والزيت، والوحل، هذا المكان أنظف من أرقى شارع يباع فيه الأشياء الثمينة، لكن يتم في هذه المحلات الغمز واللمز والمغازلة، وما شاكل ذلك .....

مرة شخص يعمل بعمل لا يرضي الله عز وجل، لكن مرة رأيت مكتبه، شهد الله ما وقعت عيني على مكتب أفخم منه، الجدران من الخشب النفيس لحجب الصوت، والأرض مفروشة بأغلى أنواع السجاد والمكتب.

قال لي مرة على فطرته: أنا عملي قذر، توفي، أنا عملي قذر، قال لي إياها باللغة الإنكليزية، وثاني يوم ذهبت لإصلاح مركبتي في يوم مطير، والذي يصلح المركبات محله صغير، لا يوجد محل لمركبتي، وبالطريق، والوحل، والمطر، فك قطعة، وانبطح تحت المركبة، وصلحها بدقة، وأخذ أجراً معتدلاً.

فأنا قياساً على الذي قال لي البارحة: أنا عملي قذر، قلت: والله هذا عمله نظيف مع أنه على الشبكية، كيف نظيف؛ يلبس ثياباً كان أصلها أزرقاً، لكن من الوحل، والشحم، والزيت لم يعد لها لون أصلاً، وانبطح تحت المركبة، والوحل، والمطر، وفك القطعة، وأصلحها؟

فأنا صحت بأعلى صوتي -صوت النفس-: أن هذا عمله نظيف، ما بنى عمله على إيذاء الناس، ولا على ابتزاز أموالهم، ولا على إدخال الرعب في الناس، الأول قال لي: أنا عملي قذر، اعترف، عمله أساسه إيقاع الأذى في الناس، بث الرعب في الناس، والثاني عمله نظيف، ابحث عن عمل نظيف.

إن روح القدس نفثت في روعي، أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم.

اطلب مهنة شريفة.

ألصق شيء في حياتك زوجتك وحرفتك، وكم من زوجة قطعت زوجها عن الله عز وجل؟ حدثني أخ قال لي: أنا أولي على الجامعة، وقد كان جاهلاً في الدين، تزوجت فتاة جميلة جداً من أب غني، لكنها بعيدة عن الدين بعد الأرض عن السماء، تخرج بثياب فاضحة، اضطر أن يطلقها، فلما طلقها، له منها أولاد، شقي وأشقى، شقيت وشقي معها، وشقي أولاده.

فالمرأة فيها شؤم أو فيها بركة، إن كانت فاسقة، واهتممت بالجمال فقط، فقد يكون في الجمال شؤم، خير الكسب كسب العامل إذا نصح.

عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلًا، فَيَأْخُذَ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ فَيَبِيعَ، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهِ وَجْهَهُ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أُعْطِيَ أَمْ مُنِعَ))

عَنْ الْمِقْدَامِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ -عَلَيْهِ السَّلَام- كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

أيها الأخوة، الأحاديث كثيرة جداً حول الكسب الحلال، لكن مرة أخيرة: ألصق شيء بحياتك مهنتك وزوجتك، فاحرص على أن تختار الزوجة الصالحة التي إذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك، وإذا نظرت إليه سرتك، واحرص على أن يكون عملك مشروعاً، ويكون دخلك حلالاً، ليكون طعامك طيباً.

شيء مضحك: الإنسان بسذاجة يتصور الطعام الطيب الذي فيه سمن بلدي ولحم من أعلى درجة، وفيه مقبلات، ومعه المرافقات، الطعام الطيب؛ أي سندويشة فلافل من كسب حلال، أطيب من غداء مطعم يكلف عشرة آلاف.

الطعام الطيب: ما كان كسبه حلالاً.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (١٨-٣٢) : التفكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

لن تحصل على معرفة الله وهدفك المنشود إلا بالتفكر في آلائه:

أيها الأخوة الكرام، الخلق اليوم بالمفهوم الواسع التفكر؛ أي أن من صفات المؤمن أنه يتفكر، ففي المعاجم التفكر هو التأمل، والتفكر إعمال الفكر في الشيء، أو تصرف الفكر في معاني الأشياء لدرك المطلوب، هذا التعريف المعجمي اللغوي للتفكر، أما أحد كبار العلماء، وهو ابن قيم الجوزية يقول:

التفكر أصل الخير والشر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب، وأنفع الفكر الفكرُ في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها.

التفكر نشاط واسع جداً، أن تعمل فكرك في الشيء، تقلبه على وجوهه، ولكن أعلى مستويات الفكر: أن تتفكر في مصالح المعاد الآخرة، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار؛ أن تفكر بالآخرة، وأن تفكر بالطرق السالكة لها، وأن تفكر في متاعب الآخرة، وفي طرق اجتنابها.

يعني أن تفكر في الجنة والطرق إليها، وأن تفكر في النار وفي طرق اجتنابها، ويليها أربعة أفكار، فكر في مصالح الدنيا، وطرق تحصيلها تحتاج إلى حرفة؛ تدرس، تتاجر، تتوظف، وفكر في مفاسد الدنيا، وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء، التفكر في الجنة، وفي أسباب الوصول إليها، وفي النار، وفي أسباب اجتنابها، والتفكر في مصالح الدنيا، ووسائل الوصول إليها، وفي مفاسد الدنيا، وفي طرق اجتنابها.

أما رأس القسم الأول تاج القسم الأول: التفكر في آلاء الله، ونعمه، وأمره، ونهيه، وطرق العلم به، وبأسمائه، وصفاته من كتابه، وسنة نبيه، وما والاهما، وهذا الفكر: التفكر في آلاء الله يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، تعرفه وتحبه، إن فكرت في آلائه، فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخستها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل، وضيق الوقت، أورثه ذلك الجد والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت، هذه الأفكار تعلي همته، وتحييها بعد موتها وسكونها، وتجعله في واد، والناس في واد آخر، وبإزاء هذه الأفكار، الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر الخلق، كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه، ولا أعطي الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع، كالفكر في كيفية ذات الرب، مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه.

كلام طيب، الفكر يأتي قبل الإرادة، والإرادة تأتي قبل العمل، فإذا صح تفكرك استقامت إرادتك، وإذا استقامت إرادتك صح عملك، وإن صح عملك سعدت في الدنيا والآخرة، كلام دقيق جداً.

الإمام الغزالي -رحمه الله- يقول في الإحياء: كثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار، والنظر والابتكار، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته، لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره.

التفكر في آلاء الله، يورث المحبة والمعرفة والتفكر في الآخرة وشرفها ودوامها، والتفكر في الدنيا وخستها وانقطاعها، يورث الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة.

الآيات التي تحث على التفكر وتصف المؤمنين بأنهم يتفكرون، تقترب من عشرين آية، من أبرزها:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩٠-١٩١]

التفكر في حقيقة نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الأعراف الآية: ١٨٤]

بعض أصحاب النبي سألوا السيدة عائشة -رضي الله عنها-، قالوا لها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كانت ليلة من الليالي، قال: يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي، قالت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: قام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، لم تبكِ، وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أفلا أكون عبداً شكورا؟ لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها: إن في خلق السموات والأرض.

فضيلة التفكر:

أيها الأخوة الكرام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ؛ الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ

مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقالَ: إنِّي أَخَافُ اللَّهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ أخْفَى، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

أين الشاهد؟

((وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

عن عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ قال:

((كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، -هذه الفطرة-، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُسْتَخْفِيًا جُرَآءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا نَبِيٌّ، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ -دققوا وهو في الجاهلية شعر أن هؤلاء الناس بفطرته ليسوا على شيء، في ضلال-، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا نَبِيٌّ، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: أَرْسَلَنِي اللَّهُ، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: حُرٌّ وَعَبْدٌ، -الإسلام بدأ باثنين، الآن مليار ومئتا مليون:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٤-٢٥]

حُرٌّ وَعَبْدٌ، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا.

-هناك ضغط على المسلمين، وعلى هذه الدعوة لا يحتمل، إنك لا تستطيع اليوم ألا ترى حالي وحال الناس، أرأيتم على حرصه على سلامته؟ هؤلاء الذين يدفعون بالناس إلى الموت، وهم قابعون في بيوت فخمة، هؤلاء ليس في قلبهم رحمة، هو لو أراد أن يستكثر من الناس، أصبحنا ثلاثة-.

قال له: إنك لا تستطيع اليوم، ألا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي

-إذا نجحت دعوتي فأتني-.

قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي، وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ، وَكُنْتُ فِي أَهْلِي، فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، -أقبلوا عليه-، وَقَدْ أَرَادَ

قوْمُهُ قتْلَهُ، فلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذلِكَ، فقدِمْتُ الْمَدِينَة، فدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أتَعْرِفُنِي؟ قالَ: نَعَمْ، أنْتَ الَّذِي لقِيتَنِي بِمَكَّة، قال: فقُلْتُ: بَلى، فقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأجْهَلُهُ، أخْبِرْنِي عَنْ الصَّلاةِ، قالَ: صَلِّ صَلَاة الصُّبْحِ، ثُمَّ أقصِرْ عَنْ الصَّلاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فإنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قرْنَيْ شَيْطانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فإنَّ الصَّلَاة مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ، حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أقصِرْ عَنْ الصَّلاةِ، فإنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فإذا أقبَلَ الْفَيْءُ فصَلِّ، فإنَّ الصَّلَاة مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أقصِرْ عَنْ الصَّلاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فإنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قرْنَيْ شَيْطانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لهَا الْكُفَّارُ، قالَ: فقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فالْوُضُوءَ حَدِّثْنِي عَنْهُ، قالَ: مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقرِّبُ وَضُوءَهُ فيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فيَنْتَثِرُ، إلَّا خَرَّتْ خَطايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إذا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أمَرَهُ اللَّهُ، إلَّا خَرَّتْ خَطايَا وَجْهِهِ مِنْ أطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إلى الْمِرْفقيْنِ، إلَّا خَرَّتْ خَطايَا يَدَيْهِ مِنْ أنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأسَهُ، إلَّا خَرَّتْ خَطايَا رَأسِهِ مِنْ أطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قدَمَيْهِ إلى الْكَعْبَيْنِ، إلَّا خَرَّتْ خَطايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فإنْ هُوَ قامَ فصَلَّى، فحَمِدَ اللَّهَ، وَأثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لهُ أهْلٌ، وَفرَّغَ قلْبَهُ لِلَّهِ، إلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلدَتْهُ أمُّهُ))

إذاً: هذا الإنسان تفكر، هؤلاء الجاهليون ليسوا على شيء، فلما سمع بالنبي -عليه الصلاة والسلام، سأله، وحاوره، وهذا من التفكر.

عَنْ عَائِشَة أمِّ الْمُؤْمِنِينَ أنَّهَا قالتْ:

((أوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الْخَلاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذوَاتِ الْعَدَدِ قبْلَ أنْ يَنْزِعَ إلى أهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَة فيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فجَاءَهُ الْمَلكُ فقالَ: اقرَأ، قالَ: مَا أنَا بِقارِئٍ، قالَ: فأخَذنِي فغَطَّنِي حَتَّى بَلغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلنِي، فقالَ: اقرَأ، قلْتُ: مَا أنَا بِقارِئٍ، فأخَذنِي فغَطَّنِي الثَّانِيَة حَتَّى بَلغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلنِي، فقالَ: اقرَأ، فقلْتُ: مَا أنَا بِقارِئٍ، فأخَذنِي فغَطَّنِي الثَّالِثة، ثُمَّ أرْسَلنِي، فقالَ: اقرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلقَ، خَلقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلقٍ، اقرَأ وَرَبُّكَ الْأكْرَمُ.

-أخوتنا الكرام، هناك ملمح في هذا الحديث دقيق جداً-:

فرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَرْجُفُ فؤَادُهُ، فدَخَلَ عَلى خَدِيجَة بِنْتِ خُوَيْلِدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، فقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فزَمَّلُوهُ حَتَّى ذهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فقالَ لِخَدِيجَة وَأخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لقدْ خَشِيتُ عَلى نَفْسِي، فقالتْ خَدِيجَةُ.

-الآن: من خديجة؟ زوجته، ما معها من أفكار الدعوة؟ ليس معها شيء، لم يبدأ الوحي بعد -.

فقالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، -هذه الفطرة-، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ...))

هذا الإله العظيم لا يمكن أن يخزيك إطلاقاً، لأنك تفعل كذا وكذا، ألا تحبون البشرى؟ واحد منكم يأتي بعد هذه البعثة بألف وأربعمئة عام، إذا كان صادقاً وعفيفاً، ويعين الناس، ويرحمهم، وكان منصفاً، وكان يقدم مما أعطاه الله لكل من حوله، هل يخزيه الله عز وجل؟ ثق بالله عز وجل في أي زمان، وفي أي مكان، وفي أي عصر، وفي أي مصر، وفي أي وضع يقول لك: وضع متفجر، وضع صعب، وضع متأزم، بلد نامٍ، المؤامرات عليه من كل مكان، الله موجود، ولا إله إلا الله، كن كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقل لنفسك: والله لا يخزيني الله أبداً، هذه القصص ليست للاطلاع، بل لتكون قدوةً لنا؛ كن صادقاً، كن أميناً، كن عفيفاً، كن محباً للخير، قدم مما عندك لمن حولك، وقل: والله لا يخزيني الله أبداً، من أين جاءت خديجة بهذه المعلومات؟ هذه فطرتها.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ:

((بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ))

مرة ألقيت درسًا عن أسباب السعادة الزوجية، فجاء في هذه الأسباب: لا بد من أن تتحدث مع أهلك وقتاً من الزمن كل يوم، أما الزوج الذي يأتي، يأكل وينام كالدابة، ولا يحدثها، ولا يسمع لها، هناك خطر كبير أن تنصرف عنه، ليس لها غيره، فعلى علو مقامه وخطورة رسالته قال:

((فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ))

التفكر.

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ:

((صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَاتَ لَيْلَةٍ -لكن هذا شيء فوق طاقة جميع المؤمنين الآن-، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ

الْعَظِيمِ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، -كان أخف الناس صلاة إذا إماماً، أما الآن يصلي وحده، ولا يعلم أن حذيفة وراءه، الركوع بقدر قراءة البقرة، والنساء، وآل عمران-، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ - أعاد بقدر ما قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء-، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ، قَالَ: وَفِي حَدِيثِ جَرِيرٍ مِنْ الزِّيَادَةِ، فَقَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ))

ولم يستطع متابعته، فانصرف دون أن يعلم، هكذا كان عليه الصلاة والسلام.

عَنْ عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا؟ رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى أَجْنَبِي، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ))

ما قيل عن التفكر:

أخواننا الكرام، التفكر سبب كل خير، التفكر في آلاء الله والتفكر في الآخرة يورث المعرفة والمحبة، وأنت في واد، والناس في واد، والتفكر في الآخرة في جنتها وفي نارها، يورث الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة.

كان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه ويقول له: لقمان، إنك تديم الجلوس وحدك، فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول لقمان: إن طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة.

وقد قيل: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، ينبغي أن تستأنس بربك.

ويقول ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة بلا تفكر.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أتت قريش اليهود فقالوا: ما جاءكم موسى من الآيات؟ -ما هي آيات موسى؟-، قالوا: عصاه ويده البيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ فقالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، فأتوا النبي -عليه الصلاة والسلام- فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، -اجعل لنا الصفا كلها من الذهب-، عندئذ نصدقك، فدعا ربه فنزلت:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩٠]

أي خرق العادات ليس بشيء أمام التفكر في ملكوت الأرض والسموات، الكون بوضعه الراهن أكبر معجزة.

وعن ابن عباس قال: تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله.

التفكر في ذات الله مهلك، أما التفكر في آلاء الله مسعد.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة.

سألت أم الدرداء: ما كانت أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار.

وقد قال بعض أصحاب النبي: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان هو التفكر، وإن من أفضل العمل الورع والتفكر، وتفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو على تركه، وليس ما فني، ولو كان كثيراً يعدل ما يبقى، وإن كان طلبه عزيزاً، واحتمال المؤونة المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤونة باقية.

ويقول بعضهم: ما طالت فكرة امرىء قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

ورجل مر براهب عند مقبرة ومزبلة، فناداه فقال: يا راهب، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا، لك فيها معتبر؛ كنز الرجال المقبرة، وكنز الأموال المزبلة.

الرجال إلى المقبرة، والأموال الطائلة إلى القمامة في النهاية.

أبو سليمان الداراني يقول: إني لأخرج من منزلي، فلا يقع بصري على شيء إلا رأيت الله فيه، ولي فيه نعمة، ولي فيه عبرة.

ويقول بشر بن الحارث: لو تفكر الناس في عظمة الله، ما عصوا الله أبداً.

قيل لإبراهيم بن الأدهم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل.

والشافعي -رحمه الله تعالى- يقول: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر .

والفضيل يقول: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

ويقول أبو سليمان: عودوا أعينكم البكاء، وعودوا قلوبكم التفكر.

وقال بعضهم: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، والفكر في الآخرة يورث الحكمة، و يحيي القلوب.

أيها الأخوة، من فوائد التفكر أنه: أوسع طريق وأقصره إلى رضوان الله ومحبته، وفيه ينشرح الصدر ويسكن القلب، والتفكر يورث الخوف والخشية من الله عز وجل، ويورث الحكمة ويحيي القلوب، والتفكر قيمة عقلية كبرى تؤدي إلى يقظة الأفراد والأمم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (١٩-٣٢) : التبليغ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

كن مبلغا أو داعية:

أيها الأخوة الكرام، من الصفات التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن التبليغ.

بادئ ذي بدء: الدعوة إلى الله اسم آخر من أسماء التبليغ؛ إما أن تكون مبلغاً أو تكون داعياً إلى الله عز وجل، الدعوة إلى الله نوعان؛ دعوة هي فرض كفاية، إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، ودعوة فرض الكفاية، هو التبحر في العلم، والتفرغ له، والتعمق فيه، والداعية من هذا الصنف يملك الأدلة العقلية والنقلية والواقعية، والداعية إلى الله من هذا الصنف يستطيع أن يرد على كل التساؤلات، ويأتي بكل الحجج والبراهين، ويزيل الشبهات، هذا الصنف من المبلغين فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الكل، ولكن التبليغ أو الدعوة في القسم الثاني، فرض على كل مسلم كائنًا من كان، أي أن هذا المسلم ينبغي أن يسلم ما سمع في حدود ما سمع، أو في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، الدعوة إلى الله أو التبليغ الذي هو فرض عين على كل مسلم، هو أن تبلغ عن النبي ولو آية، ولو حديثًا، أي شيء سمعته، وتأثرت به، ينبغي أن تبلغه.

الدليل على هذا:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، والترمذي في سننه]

الدعوة إلى الله أو التبليغ كفرض عين، مستقاة من قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر الآية: ١-٣]

تواصوا بالحق ربع النجاة، أركان النجاة:

(آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر الآية: ٣]

دليل آخر:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية: ١٠٨]

فمن لم يدع على بصيرة، فليس متبعاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو لا يحب الله، لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران الآية: ٣١]

ذلك أنه في الحياة الدنيا دوائر للحق ودوائر للباطل، فإذا لم ندعوا لله عز وجل، تنامت دوائر الباطل، وضغطت على الحق فتلاشى، فنمو الحق من أجل بقائه، لأن الطرف الآخر يسعى سعياً حثيثاً لإطفاء نور الله عز وجل، فما لم يكن بالمقابل سعي حثيث آخر لنشر الحق، معنى ذلك: أن دوائر الباطل تضيق على دوائر الحق ويتلاشى الحق.

لا دعوة للداعي إذا سكت عن الحق:

أيها الأخوة، الله عز وجل في آية دقيقة جداً يقول:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٩]

هؤلاء لهم صفات لا تعد ولا تحصى، إلا أن الله أغفلها جميعاً، واكتفى بصفة واحدة:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٩]

هذا الذي يخشى غير الله فيسكت عن الحق خوفاً ممن يخشاه، أو ينطق بالباطل إرضاء لمن يخشاه انتهت دعوته، فلا داعي لأن نقول: إن الداعية ينبغي أن يكون أميناً عفيفاً، كل هذه الصفات تسقط إذا خشي من جهة، إذا سكت عن الحق، أو أراد إرضاءها، ونطق بالباطل.

لا يعد النبي مبلغاً إذا سكت عن الحق:

أيها الأخوة، التبليغ من الصفات التي يجب اعتقادها في الأنبياء الكرام والرسل العظام، وقد عرفه العلماء فقالوا:

التبليغ: أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه، فلا يخفي منه شيئاً، ولا يكتمه بحال من الأحوال، وألا تحمله رهبة على أن يكتم بعضاً مما أوحي إليه، وأمر بإبلاغه للناس.

مهمة الأنبياء في التبليغ غير مهمة العلماء وأفراد المسلمين، لا يتسامح مع النبي بسكوته إذا نطق أحد في حضرته بكلام ليس صحيحاً، لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- يعد كلامه تبليغًا، وفعله تبليغًا، وسكوته تبليغًا، لذلك: النبي لا يمكن أن يسكت عن كلمة قيلت في حضرته لم تكن صحيحة.

والتبليغ –أيضاً- منوط بحملة العلم من هذه الأمة، لأن الله سبحانه وتعالى يصف الذين ينوبون عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: بأنهم يبينونه للناس ولا يكتمونه.

والآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة الآية: ٦٧]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((كلمة الحق لا تقرب أجلاً ولا تقطع رزقاً))

إذا بلغت ما سمعت فقد أديت ما عليك:

أيها الأخوة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

إنسان حضر خطبة جمعة أو درس تفسير، أو التقى بإنسان من حملة العلم، وسمع منه شيئاً ثميناً قيماً، ينبغي أن يبلغه لمن حوله من أصدقائه، أو من زملائه، أو من أهل بيته، فإذا بلغت هذا الذي سمعته، فقد أديت هذا الذي عليك.

قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، -هذه الدعوة التي هي فرض عين-، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

فإذا قال واحد: أنا لا أكذب على النبي متعمداً، ولكنني وجدت حديثاً فنقلته للناس، نقول له: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

لا يكفي أن تكون سليم النية، ينبغي أن تتحقق، لأن الإبلاغ عن رسول الله مهمة خطيرة، فإذا أبلغت عنه كلامًا ما قاله، فقد ضيعت الناس، لذلك العوام: لأن يرتكبوا الكبائر، أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون.

وفي حديث آخر: عَنْ أَبِي بَكْرَةَ -رَضِيَ اللَّه عَنْه- قَالَ:

((خَطَبَنَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَوْمَ النَّحْرِ قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ))

وفي حديث آخر: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ؛ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ))

ويقول سفيان بن عيينة: لا تجد أحد من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة لدعوة النبي، ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظمون نقلته حتى قال الشافعي: إذا رأيت رجلاً من أهل الحديث، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

التبليغ فرض عين، لو أن واحداً -لا سمح الله- لا يتقن الكلام إطلاقاً، ولا يستطيع أن يقول كلمة، الآن هناك من يشتري شريطاً، ويوزعه في أقربائه فقد بلغ، ليس شرطاً أن تتقن الكلام، لكن إن كان لك هذه النية الطيبة، هناك آلاف الوسائل لتنقل هذا العلم إلى من حولك، لا بد من أن تتنامى دوائر الحق.

حكم التبليغ:

أيها الأخوة، حكم التبليغ: استدل العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق، بقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٥٩]

لذلك: لا سمح الله ولا قدر، إذا قصد العالم كتمان العلم فقد عصى، وقد وجب عليه التبليغ، أما إذا سئل ولم يجب، فقد تلبس بهذا الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

أن تقول: أنا لا علاقة لي بالدعوة، أنا مسلم تاجر، أبيع وأشتري فقط، لا بد من أن تبلغ، لكن لا تكلف ما لا تطيق، تبلغ الذي انتهى إليك وسمعته وأدركته، ولست مكلفًا أن تبلغ كل الناس، ممن تعرف فقط، ممن يلوذ بك، التبليغ كفرض عين: أن تبلغ الذي بلغك لمن يلوذ بك، هذا هو الحد الأدنى: فرض عين على كل مسلم.

الآيات التي تتحدث عن التبليغ كثيرة، من أبرزها:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة الآية: ٦٧]

قياساً على هذه الآية: أن الذي يبلغ بصدق وإخلاص الله يحفظه، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تنطق بالحق مخلصاً، ويأتيك من هذا النطق بالحق شر وبيل، أما إذا أراد الإنسان من هذا التبليغ الدنيا، يأتيه شر وبيل أحياناً، لأن الله عز وجل يقول:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

[سورة النور الآية: ٣٦]

حينما يأذن الذي في السماء، يلهم هؤلاء الذين في الأرض أن يأذنوا ويعطوا الرخص، وإذا لم يأذن الذي في السماء، فهؤلاء الصغار يخلقون العقبات تلو العقبات.

ما جاء في سماع الحديث وتبليغه:

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((الزَّمَانُ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ؛ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ، مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ -قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ- وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلِّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ، فَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا ذَكَرَهُ يَقُولُ: صَدَقَ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ قَالَ: أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ))

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالُوا: إِنَّا مِنْ هَذَا الْحَيِّ مِنْ رَبِيعَةَ، وَلَسْنَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَمُرْنَا بِشَيْءٍ نَأْخُذْهُ عَنْكَ، وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا، فَقَالَ: آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا إِلَيَّ خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ، وَأَنْهَى عَنِ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُقَيَّرِ وَالنَّقِيرِ))

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ))

ما نهي عنه النبي من تبليغه:

الآن عندنا تبليغ منهي عنه:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَالٍ فَقَسَّمَهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى رَجُلَيْنِ جَالِسَيْنِ وَهُمَا يَقُولَانِ: وَاللَّهِ مَا أَرَادَ مُحَمَّدٌ بِقِسْمَتِهِ الَّتِي قَسَمَهَا وَجْهَ اللَّهِ وَلَا الدَّارَ الْآخِرَةَ، فَتَثَبَّتُّ حِينَ سَمِعْتُهُمَا، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَخْبَرْتُهُ فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَقَالَ: دَعْنِي عَنْكَ فَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ))

سيدي، فلان عندكم علم أنه فعل كذا؟! دع فلانًا لربه، دعه يتوب، واجعله في ستر، لماذا الفضيحة؟ لماذا تشوه سمعة فلان أمام من ينطق بالحق؟.

((لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما]

إلا إذا كان ثمة خطر على الدعوة، وإنسان يتصرف بغير مسؤولية، ويؤذي هذه الدعوة، هذا موضوع آخر ينبغي أن تبلغ، أما إنسان ارتكب خطأ آخر فيما بينه وبين نفسه، وعلمت بهذا الخطأ ما الثمرة التي تقطفها من أن تفضحه، أو من أن ترفع قصته إلى من ينبغي أن يكون سليم الصدر تجاه من حوله؟.

حث على فريضة التبليغ بقدر ما تستطيع:

أيها الأخوة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ

لكَ شَيْئًا قدْ أبْلَغْتُكَ، لَا ألفِيَنَّ أحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقبَتِهِ رِقاعٌ تَخْفِقُ، فيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أغِثْنِي، فأقُولُ: لَا أمْلِكُ لكَ شَيْئًا قدْ أبْلَغْتُكَ، لَا ألفِيَنَّ أحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقبَتِهِ صَامِتٌ، فيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أغِثْنِي، فأقُولُ: لَا أمْلِكُ لكَ شَيْئًا قدْ أبْلَغْتُكَ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

اغتصاب الأموال بشتى أنواعها، بدءاً من بعير، إلى فرس، إلى شاة، إلى كائن له صياح ، كائنًا ما كان، ثم الثياب والمتاع، ثم المال، هذا الذي يغتصب، ويأتي يوم القيامة وعليه وزر ، هذا الاغتصاب يقول له النبي -عليه الصلاة والسلام-: لا أملك لك شيئاً لقد أبلغتك.

عَنْ أبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأزْدِ، يُقَالُ لهُ:

((ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ، قالَ: ابْنُ السَّرْحِ ابْنُ الْأتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقةِ، فجَاءَ فقالَ: هَذَا لكُمْ وَهَذَا أهْدِيَ لِي، فقامَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى الْمِنْبَرِ، فحَمِدَ اللَّهَ وَأثْنَى عَلَيْهِ، وَقالَ: مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ، فيَجِيءُ فيَقُولُ: هَذَا لكُمْ وَهَذَا أهْدِيَ لِي؟ ألَا جَلسَ فِي بَيْتِ أمِّهِ أوْ أبِيهِ فيَنْظُرَ أيُهْدَى لهُ أمْ لَا؟ لَا يَأْتِي أحَدٌ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ، إلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إنْ كَانَ بَعِيرًا فلهُ رُغَاءٌ، أوْ بَقرَةً فلهَا خُوَارٌ، أوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأيْنَا عُفْرَةَ إبطيْهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟))

إنك إن بلغت سقط عنك الوجوب، وأديت الذي عليك، أما هذا الصمت وحولك أخطاء وانحرافات وتفلت وتجاوزات، صمتك دليل إقرارك بنوع أو بآخر، وأديت الذي عليك، أما هذا الصمت وحولك أخطاء وانحرافات وتفلت وتجاوزات، صمتك دليل إقرارك بنوع أو بآخر، إلا إذا رأيت منكراً، وأردت أن تستنكره، فنشأت فتنة أكبر من المنكر، في هذه الحالة النادرة: لك أن تصمت، وتنكر بقلبك، أنت لست نبياً حتى يعد إقرارك تشريعًا، لكن عن أمكنك أن تنكر، فالأولى أن تنكر، أما إن أدى إنكارك لفتنة أكبر من الذي تنكره، فينبغي أن تنكر بقلبك، لكن لا يقبل منك أن تنكر بلسانك، وبإمكانك أن تقبل بيدك، كما أنه لا يقبل منك أن تنكر بقلبك، وبإمكانك أن تنكر بلسانك.

أيها الأخوة الكرام، عَن الشَّعْبِيِّ قالَ:

((لقِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَعْبًا بِعَرَفةَ، فسَألهُ عَنْ شَيْءٍ، فكَبَّرَ حَتَّى جَاوَبَتْهُ الْجِبَالُ، فقالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إنَّا بَنُو هَاشِمٍ، فقالَ كَعْبٌ: إنَّ اللَّهَ قسَمَ رُؤْيَتَهُ وَكَلَامَهُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَمُوسَى، فكَلَّمَ مُوسَى مَرَّتَيْنِ، وَرَآهُ مُحَمَّدٌ مَرَّتَيْنِ، قالَ مَسْرُوقٌ: فدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فقُلْتُ: هَلْ رَأى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فقالتْ: لقدْ تَكَلَّمْتَ بِشَيْءٍ قفَّ لهُ شَعْرِي، قُلْتُ: رُوَيْدًا، ثُمَّ قرَأْتُ: (لقدْ رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)، فقالتْ: أيْنَ يُذْهَبُ بِكَ؟ إنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ مَنْ أخْبَرَكَ أنَّ مُحَمَّدًا رَأى رَبَّهُ، أوْ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أُمِرَ بِهِ، أوْ يَعْلَمُ الْخَمْسَ الَّتِي قالَ اللَّهُ تَعَالَى: (إنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ)فقدْ أعْظَمَ الْفِرْيَةَ ...))

[أخرجه الترمذي في سننه]

لا يمكن أن يؤخر النبي البيان عن وقته وإلا لا يعد مبلغاً:

فقد قال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

[سورة المائدة الآية: ٦٧]

النبي -عليه الصلاة والسلام- أقول: ما من أمر، -ومن: لاستغراق أفراد النوع-، ما من أمر يقربنا إلى الله ولو بدا صغيراً إلا وذكره النبي، وما من أمر يبعدنا عن الله ولو بدا لكم صغيراً إلا ونهى عنه؛ لأنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغم، وجاهد في الله حق الجهاد، لذلك قال علماء الحديث:

لا يمكن أن يؤخر النبي البيان عن وقته، لو بين عن منكر بعد حين ما بلغ الناس.

يوجد شيء ثان: لا بد من أن يبلغ في الوقت المناسب، لو رأى منكراً فسكت، وبلغ في اليوم الثاني، هذا ليس تبليغاً بحق النبي، أما بحقك قد تستدرك، البارحة وجدت شيئًا ولم يعجبن، وقد غفلت عن أن أبلغكم إياه، الآن أبلغكم، هذا في حق المؤمنين، أما في حق النبي: فلا يقبل منه أن يؤخر البيان عن وقته، فإذا رأى شيئاً وسكت فهو صحيح، أما تقول: لعله بعد يوم أشار لبطلانه؟ لا.

النبي -عليه الصلاة والسلام- لا بد من أن يبلغ.

وأنا أقول لكم أيها الأخوة: أحياناً لو خيرت النبي -عليه الصلاة والسلام-، بين أن تعطيه ملء الدنيا ذهباً، وبين أن يسكت، لاختار أن يسكت، لأن الكفار كفروا بأصل رسالته، وبنبوته، وبالوحي الذي جاء به، يقول: ذهبت للقدس، ورجعت بدقائق، هو في غنى عن أن يبلغهم ذلك ، هم ينكرون عليه من دون هذه القصة، لكن الله أمره أن يبلغ، يبلغ شيء، وهو يعلم علم اليقين أنه سيلاقي سخرية وتهجماً، فالنبي مبلغ، والعالم ينبغي أن يبلغ، لكن وجوب التبليغ على العالم ليس في مستوى وجوب التبليغ للنبي.

النبي -عليه الصلاة والسلام- أصل هويته مبلغ، وهو معصوم، بمعنى أنه لا يخطئ، ولا يستطيع أحد أن يناله؛ أي يمنعه من التبليغ:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة الآية: ٦٧]

مناط التكليف في أن تبلغ بقدر ما تعلم:

أيها الأخوة الكرام، أسأل الله أن يكون هذا الدرس باعثاً لنا على التبليغ، شيء عملي، أنت لك جامع، تحضر الخطبة فيه، لعلك تحضر جامعاً تثق بخطيبه، وبعلمه، وبورعه، أو بمستوى خطبته، إن حضرت هذه الخطبة، أو ذاك الدرس، أو فتحت كتاب فقه، فلفت نظرك آية، أو حديث، أو حكم

فقهي، أو قصة عن الصحابة، ينبغي أن تبلغها طوال الأسبوع، حاول أن تحضر خطبة قيمة ثمينة، وأن تسجل بعض نقاطها، وتكون هذه النقاط مادة حديثك لمن حولك في هذا الأسبوع، إن فعلت هذا، فقد نفذت حديث رسول الله:

((بلغوا عني ولو آية))

حضرت خطبة جمعة، ثم زرت أختك، الشيخ اليوم قال كذا، جلست في الدائرة مع أصدقائك، تقول: سمعت اليوم هذه الخطبة، بلغ مضمون أو بعض مضمون الخطبة لمن حولك؛ من زملائك، وأصدقائك، وأقربائك، وجيرانك، وأهل بيتك، إن فعلت هذا فقد بلغت رسالتك، التبليغ فرض عين على كل مسلم، وإن لم تبلغ فلست متبعاً لرسول الله، وإن لم تكن متبعاً للنبي فلست محباً لله.

التساهل: أخي أنا لا علاقة لي، هذا عمل خطباء؟ لا، هذا عمل كل مسلم: الدعوة إلى الله، أو التبليغ فرض عين على كل مسلم، لكن رحمة بالمؤمنين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف فقط، لكن على كل منكم حينما يرتاد بيت الله، هو عند أهله شيخ، جاء شيخ مثلاً من باب التحبب مثلاً: أنت يا من تحضر درس علم، يا من لك مسجد ترجع إليه، يا من لك مرجعية دينية، أنت بالنسبة لمن حولك من أقاربك، أنت نافذة إلى السماء، تستشار ويؤخذ رأيك، وتسأل عن آية، أنت هنا طالب علم، تجلس وتصمت، لكنك إذا رجعت إلى البيت، فأنت معلم أمام أهلك الذين لم يطلبوا العلم، أنت تعد شيخاً لهم، فلا يوجد واحد منا بمكان يتلقى، وبالمكان الآخر عليه أن يلقي، أما أربعون سنة أتلقى! إلى متى؟ متى تلقي؟ إلى متى تستمع وتخزن؟ غير معقول! فلا بد من أن تلقي، لذلك:

اعلموا علم اليقين، أن تبليغ العلم فرض عين، وأنا لن أكلفك تتبحر، وتقرأ كتاب الأم للشافعي، وتقرأ الأصول، لا، الخطبة التي حضرتها، أو الدرس الذي سمعته، أو الندوة التي شاهدتها، أو الصديق الذي أخبرك، هذا الذي علمته ينبغي أن تبلغه.

بقدر ما تهتم بطعامك اهتم بدينك:

أقول هذه القصة الطريفة: أعرف رجلاً يسكن أحد أحياء دمشق المتطرفة، وهو يركب مركبته، ويدير المحرك ربع ساعة، حتى تكون مهيأة في أيام الشتاء، وينطلق لطرف المدينة الآخر ليشتري كيلو فول، يحب الفول من عند هذا الإنسان، أما إذا حضرت صلاة الجمعة، فيختار أي جامع، ويأتي بعد أن تنتهي الخطبة ويتبجح، ويقول: الحمد لله أدركت الركعة الثانية مع الإمام، أما كيلو فول أغلى عليك من كل دينك!؟ من أجل أن يأكل طعام معين، يهيئ المركبة ربع ساعة، وينتقل لطرف المدينة الآخر، أما من أجل دينه، أي خطيب، أي جامع، خطبة عميقة، غير عميقة، الخطيب متقن، غير متقن، ابحث عن خطيب ترتاح لخطبته، واجعل خطبته مجال الحديث طوال الجمعة، أنت بهذا تكون قد نفذت كلام النبي: بلغوا عني ولو آية.

هذا وقت، لذلك حينما يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الجمعة الآية: ٩]

ما معنى الآية؟ أي لسماع الخطبة من أولها:

من دخل للمسجد في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، في الساعة الثانية بقرة، في الثالثة شاة، في الرابعة دجاجة، في الخامسة ديكا، -والخطيب لم يصعد بعد للمنبر-، فإذا صعد الخطيب المنبر، أغلقت الصحف، وجلست الملائكة تستمع الخطبة.

أخطر فكرة بالخطبة أولها، هي مفتاح الخطبة، يأتي قبل انتهاء الخطبة بكلمتين، ماذا فعلت أنت؟ من أجل عملك تأتي قبل ربع ساعة، إذا كان لك عمل مهم، ومدير شركة ضابط أموره، ويقيمك تقييما شديدا إذا تأخرت، تأتي قبل ربع ساعة، لماذا في سماع الخطبة، وفي تلقي دينك، لم يبق غير الخطبة، والخطبة عبادة تعليمية، وهذا من عظمة هذا الدين، مهما قمع الدين في بلد، لا يستطيع أن يلغي الخطبة والدرس، أما خطبة لا، لا يستطيع، فرض على كل مسلم.

عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ، وَكَانَ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُنًا بِهَا، طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

قضية الدعوة إلى الله كفرض عين، مبدئياً اكتف بالخطبة، واكتب عندك الملاحظات، واستوعب، وحاول نقل ما في الخطبة لمن حولك من الأقارب؛ زوجتك، أولادك، أخواتك، جيرانك، زملاءك، أصدقاءك، تكون قد أديت ما أمرك به النبي.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٢٠-٣٢) : الجود

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

من آمن بالآخرة ينفق من ماله ومن لم يؤمن لا ينفق:

الخلق اليوم الجود .

أيها الأخوة، الخلق اليوم الجود، والجود بالتعريف الدقيق إعطاء ما ينبغي لا لعوض، ولا لغرض، والجواد هو الذي يعطي بلا مسألة صيانة للآخذ من ذل السؤال، والجود هو صفة ذاتية للجواد، لا يستحق بالاستحقاق، ولا بالسؤال، يعني أعلى درجة من العطاء أن تعطي من دون سؤال، ومن دون عوض، ومن دون هدف .

الله جواد من دون سؤال، ومن دون عوض، ومن دون هدف .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((دَارَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَوْرَةً قَالَ: أَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ - هذا بيت سيد الخلق، هذا بيت حبيب الحق، هذا بيت زعيم الأمة، هذا بيت قائد الأمة، ما عنده شيء- قَالَ: فَأَنَا صَائِمٌ، قَالَتْ: ثُمَّ دَارَ عَلَيَّ الثَّانِيَةَ وَقَدْ أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ فَعَجِبْتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَخَلْتَ عَلَيَّ وَأَنْتَ صَائِمٌ ثُمَّ أَكَلْتَ حَيْسًا، قَالَ: نَعَمْ يَا عَائِشَةُ، إِنَّمَا مَنْزِلَةُ مَنْ صَامَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ أَوْ غَيْرِ قَضَاءِ رَمَضَانَ أَوْ فِي التَّطَوُّعِ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ أَخْرَجَ صَدَقَةَ مَالِهِ فَجَادَ مِنْهَا بِمَا شَاءَ فَأَمْضَاهُ وَبَخِلَ مِنْهَا بِمَا بَقِيَ فَأَمْسَكَهُ))

هذا بيت سيد الخلق، هذا بيت حبيب الحق، هذا بيت زعيم الأمة، هذا بيت قائد الأمة ما عنده شيء، الآن إذا تأخر الطعام تقود الدنيا ، ولا تقعد في البيت إذا تأخر ، أما ليس عندي شيء فإني صائم .

((ثُمَّ دَارَ عَلَيَّ الثَّانِيَةَ وَقَدْ أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ – أي تمر وسمن- فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ فَعَجِبْتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَخَلْتَ عَلَيَّ وَأَنْتَ صَائِمٌ ثُمَّ أَكَلْتَ حَيْسًا، قَالَ: نَعَمْ يَا عَائِشَةُ، إِنَّمَا مَنْزِلَةُ مَنْ صَامَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ أَوْ غَيْرِ قَضَاءِ رَمَضَانَ أَوْ فِي التَّطَوُّعِ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ أَخْرَجَ صَدَقَةَ مَالِهِ فَجَادَ مِنْهَا بِمَا شَاءَ فَأَمْضَاهُ وَبَخِلَ مِنْهَا بِمَا بَقِيَ فَأَمْسَكَهُ))

الصائم نفلاً أمير نفسه، إن شاء صام، وإن شاء أمسك .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ، عُرْيٍ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا، قَالَ: وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ، قَالَ: وَكَانَ فَرَسًا يُبَطَّأُ))

والعجيب -أيها الأخوة- أن صفة الشجاعة في الأعم الأغلب تقترن بصفة الكرم، فالبخيل جبان، والكريم شجاع، فكان عليه الصلاة والسلام جواداً، وكان شجاعاً، فلما سمعت صوتاً انطلق، وسبق الناس جميعاً، فلما ذهبوا ليتفقدوا الصوت رأوه راجعاً، أما حينما ضربت أمريكا في الحادي عشر من أيلول الذي على رأس هذا المجتمع ولى هارباً .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والنسائي في سننه]

بصراحة المؤمن بنى حياته على العطاء، لأنه أيقن أنه مخلوق للجنة، وأن ثمن الجنة يدفع في الدنيا عطاءً، قضية عقدية، بالتعبير المعاصر إيديولوجية، فأنت إن آمنت بالآخرة قطعاً تنعكس مقاييسك، إن لم تؤمن بالآخرة رأيتَ نفسك ذكياً، وموفقاً، وناجحاً، وفائزاً إذا أخذت، إن آمنت بالآخرة رأيت الذكاء والتفوق والنجاح والفلاح في أن تعطي، لذلك الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والطغاة أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم، والأقوياء ملكوا الرقاب بقوتهم، إذاً قضية عقدية، أنت حينما تؤمن بالآخرة السلوك الأمثل والأقوى أن تعطي، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

-واتقى أن يعصي الله، لماذا؟ لأنه صدق بالحسنى، أي بالجنة، والذي بخل لماذا بخل، ولماذا استغنى عن طاعة الله؟ لأنه كذب بالحسنى، فالقضية عقدية، إذا آمن الواحد، هناك شخص محترم جداً في حياته إذا طمع بعطائه الكبير يقدم له كل شيء واحد، وإن لم يطمع بعطائه لم يقدم له شيئاً واحد، القضية ملخصة في هاتين الآيتين-:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية: ٥-٦]

أعطى واتقى أن يعصي الله لأنه صدق بالحسنى، وبخل واستغنى عن طاعة الله لأنه كذب بالحسنى، فكل إنسان يؤمن بالآخرة يرى أمتع شيء في حياته العطاء، العطاء مطلق:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٣]

ينفق من وقته واحد من ماله واحد من خبرته واحد من علمه واحد من جاهه واحد من أي شيء منحه الله إياه واحد، والحديث القدسي الصحيح الذين تعرفونه:

عَنْ أبي ذرٍّ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

الله عز وجل عطاؤه كن فيكون .

طرفة:

للطرفة: كل إنسان على وجه الأرض لو أراد الله أن يعطيه سؤله، كل إنسان عنده طائرة خاصة، ويخت، وبيت، وقصر ضمن مساحة ألف متر مربع، وأعلى مركبة، لكنه خلقنا لجنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونحن في الدنيا من أجل أن ندفع ثمن هذه الجنة لذلك يضيق علينا .

أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي، وتضيقي، وتكدري على أوليائي حتى يحبوا لقائي .

أخطر شيء أن نركن إلى الدنيا، وأن نطمئن لها، وأن ننسى الآخرة التي خلقنا من أجلها، لكن أدق فيما هذا الحديث:

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

الإنسان عبد الإحسان فأعتقه بإحسانك:

النبي صلى الله عليه وسلم ما سئل شيئاً فقال: لا، حتى قال بعضهم مادحاً له:

لولا التشهد كانت لاؤه نعم .

عنده بالتشهد أشهد أن لا إله إلا الله، لولا هذه (لا) لكانت لاؤه نعم، هذا مقام النبوة، مقام المؤمن مقام عطاء لا مقام أخذ، إذا دلك على محل تجاري لم يقل لك: ما يطلع لنا شيء ، ما يمكن أن يقدم لك خدمة من دون مقابل، المؤمن يقدم لك روحه ماله علمه بلا مقابل.

عَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ))

أيها الأخوة، لا أعجب إلا من إنسان أتاه الله مالاً وفيراً، ويستطيع بهذا المال أن يصل إلى أعلى درجات الآخرة، ويسابق العلماء، لأن المال شقيق الروح، وهو من هذا المال لا ينتفع إلا بالذي يأكله، ويلبسه، ويتنعم به، وما سوى ذلك مالا يسمى عند علماء القلوب كسباً لا تنتفع به، لكنك محاسب عليه، كم تستطيع أن تدخل الفرحة إلى بيت؟ كم تستطيع أن تزوج شاباً؟ أن تطعم جائعاً؟ أن تعالج مريضاً؟ هذا المال شقيق الروح، لذلك المال أحد أكبر وسائل الناجعة للجنة .

سيدنا أبو ذر قال: حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي.

ما وجدت كلمة جامعة مانعة للمال كهذه الكلمة، أصون به عرضي، يطعم أولاده، يكسوهم، يطعم أهل بيته، يعطيهم حاجاتهم الأساسية، فيلتصقون به، ويحبونه، الأب المحسن محبوب .

بالمناسبة: أيها الأخوة، كل أب ينبغي أن يحترم هكذا، لكن ما كل أب لا يحب إلا إذا كان كاملاً، إلا إذا كان محسناً، أنت بالإحسان تملك القلوب .

عجبت لمن لا يشتري الناس بإحسانه، أنت قد تشتري إنساناً بمالك، قد تشتري عبداً بمالك قديماً، الآن العبودية للشعوب، وليست للأفراد، قد تشتري عبداً بمالك، لكن تستطيع أن تشتري الأحرار بإحسانك .

يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها .

هناك إنسان كان سفيهاً جداً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: من يقص لسانه؟ فهمَ أحدهم النص ظاهرا، فهم أن يحضر مقصًا، ويقص له لسانه، لكن النبي صلى الله عليه وسلم قصد مَن يقص لسانه بالإحسان إليه، أنت حينما تحسن الإحسان يسكت، بل يرضى، بل يثني .

مواطن عادي قال: إن رجالك قد دخلوا أرضي في عهد معاوية، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن والسلام، ليس من المعقول من مواطن عادي يواجه أمير المؤمنين بهذه القسوة وهذا الجفاء، سيدنا معاوية أعطى هذا الكتاب لابنه يزيد، ماذا تفعل؟ يدرّبه، قال: أرى أن ترسل له جيشاً أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه، قال: غير هذا أفضل، جاء بكاتبه، فقال له: اكتب، أما بعد؛ قد وقفت على كتاب ولدي حواري رسول الله، هو ابن الزبير، وقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلها هينة جنب رضاه، لقد بذلت له الأرض، ومن فيها، يأتي الجواب : أما بعد؛ فيا أمير المؤمنين أطال الله

بقاءك، ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا المحل، جاء لابنه يزيد، تفضل، ماذا كنت تنوي أن تفعل، أن ترسل له جيشاً يحضرون رأسه ، قال: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب .

أنت بالمال يمكن أن تفعل شيئاً لا يصدق، أنا لا أعتب على فقير، أعتب على غني، بدل أن يقيم لابنه عرساً في فندق كبير بثمانية ملايين يمكن أن يكون في قلوب ثمانين ألف إنسان إذا أحسن إليهم، ولا يعرف طعم الإنفاق إلا المنفق، لذلك الله عز وجل أجبر الفقير المدقع برمضان أن يؤدي زكاة صيامه، الذي عنده وجبة طعام واحدة، عنده بيضتان عليه أن يؤدي زكاة الفطر ليذوق طعم الإنفاق مرةً في العام .

الله عز وجل كريم، وكلما اشتققت من كماله اسماً ترتاح، إذا أعطيت، إذا حللت مشاكل الناس، إذا أطعمتهم طعامًا طيبًا، إذا كسوتهم كسوة جيدة، إذا حللت مشكلاتهم، لذلك الخير بيدي والشر بيدي، فطوبى لمن قدرت على يده الخير، والويل لمن قدرت على يده الشر.

لا تكن مثل فلان دخل النار بلقمة أولاده:

إن أردت أن تعلم ما إن كنت من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة فالقضية سهلة جداً، انظر ما الذي يفرحك، أن تعطي أم أن تأخذ، أهل الدنيا يفرحون بالأخذ، وأهل الآخرة يفرحون بالعطاء، لذلك من أدق تعريفات الغني أنه الغني بالعمل الصالح، ومن أدق تعريفات الفقير أنه الفقير بالعمل الصالح، والدليل لما سيدنا موسى سقى للفتاتين:

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[سورة القصص الآية:٢٤]

قد تجد إنساناً بمقياس الغنى معه مليار مليار، هو فقير بأعماله الصالحة، قد تجد إنساناً معه مليار مليار، لكن هو فقير، ليس له عمل صالح، هذا المال كله تخسره بثانية واحدة، توقف القلب المئة مليار للورثة، سألوا شابًا بعد أن مات أبوه بيومين: إلى أين أنت ذاهب؟ قال : ذاهب لأسكر على روح أبي، لأنه ترك له أموالاً طائلة، ومات، تخلصنا منه .

فالإنسان إذا لم يعرف ربه يعمل ليلاً نهاراً لجمع الأموال من حرام ومن حلال، ثم يعطيها لأولاده الجهلاء لقمة سائغة، ويموت من بيت ثمنه ثمانون مليونًا إلى مقبرة باب الصغير، والمال للأولاد، أندم إنسان على وجه الأرض عالم دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل بعلمه النار، لذلك قرأت دعاءً ترك في نفسي أثراً بالغاً، هذا الدعاء: " اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك، اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك .

قميص أبيض غال جداً، وقلم لطيف، ومسبحة تركواز، وعطر مسك، ويقضي الليلة فيما لا يرضي الله عز وجل .

اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني، اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرةً لأحد من خلقك .

من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى:

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَيْنَمَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ، اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَانْتَهَى إِلَى الْحَرَّةِ، فَإِذَا هُوَ فِي أَذْنَابِ شِرَاجٍ، وَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ، قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَبِعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ بِالِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ، يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا، قَالَ: أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثَهُ وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ))

جاءني أخ من بلد إسلامي هو تاجر ألبسة، دخل إلى أضخم محل في جدة، عرض عليه ألبسة، قال: أريد الماركة الفلانية، تصنع في الشام، غير هذه الماركة لا أريدها، قال : لم؟ قال: والله عندي أصناف غربية تفوق هذا الصنف بمئات المرات أجمل بكثير، وأمتن بكثير، وأرخص بكثير، والناس جميعاً هنا يطلبون هذه الماركة، شيء عجيب، ثم علمت سابقاً أن هذا المعمل كان وليس الآن يعطي ثلث دخله للفقراء، يعطي هذا الثلث للفقراء، لذلك راجت بضاعته رواجاً، هذا اسمه تسويق إسلامي، أما التسويق الأمريكاني التابع لإدارة الأعمال يجب أن تعرض امرأة عارية مع السلعة حتى تباع، يجب أن تسحق العمال، وأن تضع إعلانات كثيرة ،ينفق ملايين مملينة على العمل، وتسحق موظفينك، أما التسويق الإسلامي فأنت حينما تعطي الفقراء والمساكين يلقي الله في قلب هؤلاء الناس حب هذه البضاعة، هذا يحتاج إلى إيمان، التسويق الإسلامي يحتاج إلى إيمان، أما إذا كان الإنسان غير مؤمن لا يرى من طريقة للربح إلا الدعاية بالملايين، يقول لك: الدقيقة بمئتين وخمسين ألفًا في ساعات الذروة، أي راقصة ترقص مع اسم الإعلان بمئتين وخمسين ألفًا للدقيقة، هذه ماذا يفعل بها؟ يزوجون عدة أشخاص .

التسويق غير الإسلامي أساسه الإعلان والمرأة، التسويق الإسلامي أساسه الإحسان، يلقي الله في قلب الناس محبة هذه البضاعة، طبعاً أنا لا أحارب الإعلان، ولكن يوجد إعلان منضبط، الإعلان ممكن أن يكون إعلاناً مغطى شرعياً ومنضبطًا، أما أن أثير غرائز الناس حتى يشتروا هذه السلعة

فهذا إعلان مبني على المعصية، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى، فسمع صوتاً في السحاب يقول: اسق حديقة فلان، فلان ماذا يعمل ؟ يعطي ثلث أرباحه أو إنتاج هذه المزرعة للفقراء، وثلث له، وثلث يرده في الحديقة.

بالبر يستعبد الحر وبالتقوى تملك غنى النفس من الأدران:

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَال: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ:

((أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ قُلْتُ مِثْلَهُ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا))

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين الآية: ٢٦]

عَن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ:

((وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

بالبر يستعبد الحر، بالبر ينقلب العدو صديقاً، الدراهم لها مفعول كبير في العلاقات الاجتماعية، والدراهم قوام الحياة، قال الحسن البصري: " بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود .

المؤمن كريم في كل حالاته، لا يحب أن يؤذي جاره، ولا يفتقر أحد من أقربائه، ثم يبكي ، ويقول: هو مع ذلك غني القلب، ولا يملك من الدنيا شيئاً، قد تجد إنساناً لا يملك شيئاً، وهو أغنى الأغنياء، غني بالله، الله عز وجل يحفظه، ويؤيده، و يغنيه، وقد تجد إنساناً معه ملايين مملينة، أخ كريم من المحسنين التقى بإنسان هنا في الشام بمكتبه التجاري، أقسم لي بالله أنه يملك أربعة آلاف مليون ليرة، قال لي: شكا لي همه وضيقه بأهله وأولاده، والبلد، والتجارة، والأسواق باردة، قال لي: كدت أبرك، وهو يملك أربعة آلاف مليون .

قال: ذهب إلى محل تجاري جاءته امرأة محجبة تطلب منه مساعدة، قالت له: أنت من أين؟ قالت له: من داريا، قال له: أنا في المساء عندي اجتماع مع الجمعية الخيرية أعطنا عنوانك، فبعد أن انتهى الاجتماع قال: هناك امرأة هذا عنوانها، لو تمدونها بمساعدة شهرية، قالوا: الآن اذهب معنا، قال: دخلت بيتاً لا يمكن أن يسكنه أحد، هو تحت درج، القسم العالي غرفة، والقسم المتدني حمام ومطبخ، وله فسحة صغيرة، البيت نظيف جداً، والأولاد مرتبون ، والزوج مريض مضطجع على السرير، فالوضع مؤلم جداً، لكن شعرت بسعادة عجيبة، هذا البيت مستحيل أن يسكن فيه، فيه نور،

فقال: أعطوها ألفين في الشهر، هي طلبت ألفاً، قالت: لا، أريد ألف، يكفينا راتب زوجي، يكفي لإطعامنا، نحتاج ألفًا أجرة هذا البيت، رفضت أن تأخذ ألفين، الذي عنده أربعة آلاف مليون من كثرة ما شكا له لعلك تتمنى أن تساعده، وهذه المرأة الفقيرة التي تسكن في هذا البيت رفضت أن تأخذ الألفين، قالت: ألف يكفينا، إن الغنى غنى النفس، قد تجد إنساناً أكبر رأسماله معرفته بالله، واستقامته على أمره، ومحبته للناس، هذا بعين الله:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

الغنى غنى النفس، وقد تجد إنساناً غنياً أحرص على الدرهم من الفقير .

فيا أيها الأخوة، نحن في رمضان، وكان عليه الصلاة والسلام جواداً، وكان أجود ما يكون في رمضان.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

لن تنال بما عند الله إلا بالصبر:

أيها الأخوة الكرام، الخلق اليوم خلق الصبر، فالصبر -أيها الأخوة- على طاعة الله، وطاعة الله مكلفة، لذلك سميت الأوامر بالتكاليف لأنها ذات كلفة، والصبر عن معصية الله، معصية الله مغرية، والصبر على قضاء الله وقدره، ينبغي أن تصبر على طاعته، وعن معصيته، وعلى قضاء الله وقدره، والصبر حتمي، بمعنى أن الابتلاء حتمي، الصبر قدرنا، لأن الإمام الشافعي سئل:

أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى.

ولأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٣٠]

فالبلاء حتمي، إذاً: من لوازم البلاء أن تصبر، وفلسفة الصبر أن الإنسان أودعت فيه الشهوات، ولأنه مخير، بإمكانه أن يتحرك بدافع هذه الشهوات مئة وثمانين درجة، ولكن منهج الله سمح له بزاوية ثمانين، سبعين، تسعين، ما هو الصبر؟ أن توقع حركتك اليومية وفق هذا الجانب، وفق هذا الحيز.

أيها الأخوة، الإيمان هو الصبر، ما هو ثمن الجنة؟ أن تأتي حركتك وفق المنهج الإلهي، أنت مخير، بإمكانك أن تفعل كل شيء، بإمكانك أن تلتقي مع من تشاء، وأن تأكل ما تشاء، و أن تأخذ من الأموال ما تشاء، ولكن منهج الله سمح لك بزاوية محددة، فأن توقع الحركة اليومية وفق هذه الزاوية هذا هو الصبر.

الصبر هو الضبط، فأبرز صفة من صفات المؤمن أنه منضبط، ليس في الإسلام حرمان ، ولكن في الإسلام نظام، سمح لك من النساء بزوجة والمحارم، ولكن لا يوجد بالإسلام سكرتيرة، سمح لك من المال الكسب الحلال، ولكن لا يوجد سرقة، ولا رشوة، ولا ابتزاز، و لا احتكار، ولا تدليس، ولا كذب، ولا خبث، ليس في الإسلام حرمان قطعاً، ولكن في الإسلام تنظيم، فالصبر قدرنا، لأن الابتلاء قدرنا أيضاً، الابتلاء قدرنا، من لوازم الابتلاء أن نصبر، و لا يوجد إنسان ليس عنده مشكلة، بتقدير الله عز وجل، لأن الإنسان لا يمتحن بالرخاء، يمتحن بالشدة، لا يوجد إنسان يمتحن سيارة بالنزول -بالطريق النازل-، لا تمتحن المركبة إلا بالطريق الصاعد.

فضل الصبر:

عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ:

((أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ))

نحن في أيام الصبر عن الشهوات، الشهوات مبذولة في أي مكان، وليس هناك من يحاسبك على هذه الشهوات إطلاقاً، أنظمة العالم كلها لا تحاسبك على الشهوات التي هي مبذولة، ولكن الله وحده يحاسبك، إذاً: لا بد من الصبر.

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ قَالَ:

((أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ تَبِعَكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: حُرٌّ وَعَبْدٌ، قُلْتُ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: طِيبُ الْكَلَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، قُلْتُ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ.

-الصبر سلبي، والسماحة عطاء، أن تتحمل المكاره وأن تبذل ما في وسعك-

قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ.

-أي سلمت سمعة المسلمين من لسانه ويده، أما الذي يشوه الإسلام يكون قد سبّب للمسلمين حرجاً-

قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: خُلُقٌ حَسَنٌ، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: طُولُ الْقُنُوتِ، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ:

((أَرْسَلَتْ ابْنَةُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَيْهِ، إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ، قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنَّهَا شَنٌّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ))

تتقعقع: أي تنازع، كأنها شن: كأنها قربة صغيرة.

هذا المعنى دقيق جداً، الصبر لا يتناقض مع الحزن، أنت بشر؛ إذا فقدت عزيزاً، وحزنت لا مانع، بل الأصح أن تحزن، لأن في قلبك رحمة، أما أن تقول كلاماً فيه اعتراض على قضاء الله وقدره هنا المشكلة، أما أن تحزن، وأن تدمع العين، هذا لا يتناقض مع الصبر، النبي -عليه الصلاة والسلام- ينهانا عن أن نطلب المصائب.

عَنْ سَالِمٍ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَكَانَ كَاتِبًا لَهُ قَالَ:

((كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فَقَرَأْتُهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا، انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتْ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا))

الإنسان مهما سمع عن أجر الصابرين، فلا ينبغي أن يسأل الله مصيبة، هذا منتهى الحمق، ومنتهى الثقة المفرطة بالنفس، لكن عافيتك أوسع لي.

قال:

((لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا))

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إِنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ:

((مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ))

عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ:

((قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا))

هذا الحديث يبنى عليه حكم شرعي خطير جداً، أي المعالجة لك أن تأخذ بها من المرض، ولك ألا تأخذ بها ولا شيء عليك، يوجد عمليات تريد ثمانية ملايين، أي هذه العملية تفقر أسرة بأكملها، الأب موظف، لو باع بيته، وباع كل ممتلكاته، وأخوته جميعاً باعوا كل ممتلكاتهم، لا تكفي هذه الممتلكات لإجراء هذه العملية، في مثل هذه الحالة لا عليك إن لم تجر هذه العملية، وهذا الدليل: إن شئت صبرت، وإن شئت دعوت لك.

أحياناً عملية قد تدمر أربع أسر ونجاحها بالمئة ثلاثون، لم تنجح هذا في علم الله، أما عملية الزائدة عملية بسيطة، هذه يرتقي إجراؤها إلى مستوى الواجب، إلا أن هناك عمليات لا يملك الإنسان أجورها، وهي باهظة جداً، ففي مثل هذه الحالة يعد العلاج اختيارياً، حينما يكون العلاج فوق طاقة الإنسان، أحياناً على المنفثة، كل يوم أربعة آلاف أو ثمانية آلاف، باعوا كل شيء، كادوا يبيعون البيت، هذا موت دماغ، ممكن أن يعيش عشرين عاماً على المنفثة، لا يتكلم، ولا يسمع، ولا يرى، ولا يوجد أي مظهر من مظاهر الحياة، إلا أن هذه المنفثة مع هذا القلب الاصطناعي يجعل الدم يجري في الجسم، في مثل هذه الحالة لا عليك إن لم تتابع المريض على هذه المنفثة، هذا الحديث يحل مشكلة كبيرة جداً:

إن شئت صبرت، وإن شئت دعوت لك.

كلية توقفت، الأب يجبر ابنته أن تعطي كليتها لأخيها، الزوج رفض، فلما أصرت طلقها، والأخ مات بعد ذلك، معقول أن ندمر أسرة، الله عافى البنت من هذا المرض، يجب أن نجبر الابنة على التبرع بكليتها لأخيها، والنجاح نسبته متدنية؟ الابن مات، والابنة فقدت كليتها، وطلقت من زوجها، ما كلفنا فوق طاقتنا، هذه مشكلة كبيرة الآن، الله عز وجل شاء لهذا الإنسان أن يصاب بهذا المرض، إذا كان العلاج موفورًا فلا مشكلة، إذا الأمر ميسور لا مشكلة، أما أن ندمر الأسر من أجل عملية قد تنجح، وقد لا تنجح، هذا فوق طاقتنا.

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

إن أردت ألا تصبر هذه مياه البحر فاشربها.

اصبر ولك الأجر.

قالوا: الصبر عند الصدمة الأولى.

لكن بعد الصدمة الأولى الصبر واقع لا محالة، أما المفروض أن تصبر.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ إِذَا ذَهَبَ بِصَفِيِّهِ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ، وَقَالَ: مَا أُمِرَ بِهِ بِثَوَابٍ دُونَ الْجَنَّةِ))

[أخرجه النسائي في سننه]

أي له ابن حبيب، له زوجة يحبها كثيراً، الزوجة لها زوج تحبه كثيراً، لك أخ تحبه كثيراً ، إذا أخذ الله صفيك من الدنيا لا يرضى بثواب دون الجنة، معنى ذلك: الصبر قيمة عالية جداً ، بالتعبير

المعاصر: الصبر شيك مفتوح وقع لك إياه، وقال لك: املأه، تستطيع أن تضع مئة مليار، ضع مليار مليار، موقع، عليك أن تملأ الخانة بأي رقم تريده. الدليل:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة الزمر الآية: ١٠]

يوجد آية يخاطب بها الله نبيه أيوب تقشعر منها الأبدان:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

[سورة ص الآية: ٤٣]

أن تصبر وألا تشكو الله عز وجل، لكن قالوا:

من شكا مصيبته لمؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن شكا مصيبته إلى كافر فكأنما اشتكى على الله. تشتكي لكافر، يقول لك رأساً: أنا قلت لك: هذا الطريق ما كنت تريده، ادفع الثمن، لا يوجد إنسان يشتكي إلى كافر إلا و يشمت به، تماسك أمام الكافر.

أخواننا الكرام، لكن هناك معنى رائع جداً:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

إذا الشخص آتاه الله مالاً، وأنفقه في طاعة الله، آتاه صحة فأنفقها في خدمة الخلق، هذا أجره ليس أقل من أجر الصائم، كما أن الصبر له جزاء كبير، الشكر له جزاء لا يقل عنه.

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي والنسائي في سننهما]

أي أخوة كثيرون يقولون في حالة صعبة من مرض أو سجن أو بلية: كنا في أسعد أحوالنا مع الله، الصبر نافذة إلى الله، والنبي يعجب.

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

بالتعبير العامي: كالمنشار، بالرخاء يرقى، وبالبلاء يرقى، بالبلاء يصبر، وبالرخاء يشكر، في كلا الحالين فهو رابح.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:

((كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقَالَ: يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فقَالَ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا))

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

[سورة البقرة الآية: ١٢٤]

أي لا يتاح للإنسان أن يسمح الله له أن يكون إماماً إلا إذا كان صابراً.

لكن الحديث الدقيق: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

الحمد لله، هذه الحمد لله عقب سماع خبر سيء لا تقدر بثمن، معنى ذلك: أنك تعرف الله، و أنك نجحت في الامتحان، لكن هذا الذي يسب، ويكسر، و يضرب، ويصرخ بويله، ثم يصبر، هذا ما صبر.

الصبر عند الصدمة الأولى.

الآن: من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن، البنت قبل أن تتزوج مشكلة، تنتظر شاباً مؤمناً يرعاها، ويكرمها، وأحياناً لا توفق بهذا العريس، فتأتي متاعب لا تنتهي بعد زواجها، كل يوم عند أهلها يوجد مشكلة.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ الْبَنَاتِ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ))

إذا كان الإنسان مزوجًا بناته، وعنده مشكلات، هذه ترتقي به إلى الجنة إن شاء الله.

الآن: أنت في مجموعة، في مجتمع مسلم، لهذا المجتمع أمير، والأمير أخطأ، أفضل ألف مرة أن تصبر عليه، وأن تبقى وحدة المسلمين من أن تثور عليه، وتسفك الدماء، وتكون سبباً لفتنة عمياء.

عن ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً))

تلاحظون: أن هناك أعمالاً سببت تدمير ممتلكات ودول وأمم وشعوب وثروات، عمل يعجبك لحين، ثم يسبب للمسلمين هلاكاً ودماراً وفقراً لا يعلمها إلا الله، ما كل عمل نسمعه نطرب له قد يكون غير شرعي، أنت إذا عملت عملاً سبب دمار ألف مسلم، ماذا فعلت؟ العمل غير مخطط له .

يروى: أن عالم الشام الكبير الشيخ بدر الدين الحسني -رحمه الله، هذا كان أم، كان يمشي مع أخوانه في بستان، والبستان قد سقي حديثاً، فجاء إنسان يركب بغلاً وهو بأخلاق البغل، فصار يسبب أذى للمارة بهذا الطين، فلما اقترب من الشيخ صاحوا به: إياك إياك، فلم يعبأ بكلامهم، و سبب للشيخ متاعب في ثيابه، ومعه أخوان، أحد الأخوة لم يتحمل ذلك، ضرب هذا الذي يركب البغلة ضرباً شفى صدور من حول الشيخ، -وهذا يحصل أحياناً مع عمل ترتاح له، ولك أعاننا الله على العواقب-، فلما سئل الشيخ عن الحكم الشرعي في هذا الذي فعله هذا الأخ، -لا يستطيع أن يقره طبعاً-، قال: والله ما أفلح قوم لا سفيه لهم، هذا الشاب أراح كل الحاضرين، ولكن عمله غير شرعي.

فلذلك أيها الأخوة: ما كل عمل نطرب له،ويدغدغ مشاعرنا، قد تكون له عواقب وخيمة جداً على المسلمين.

فلما سيدنا خالد سحب الجيش، واتهم في المدينة أنه فرار، قال عليه الصلاة والسلام: بل كرار.

عدّ انسحابه نصراً، الإنسان غال، أن تضحي بالمئات، بالملايين، بمئات الألوف من المسلمين، من أجل أن تقوم بعمل تدغدغ مشاعر المسلمين، أنا لست مع العمل الطائش، مع العمل المرتجل، مع العمل غير المغطى بأحكام شرعية، مع أنه يريحنا، ونطرب له، لكن النتائج قد تكون وخيمة جداً.

قَالَ:

((مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً))

إلا أن يرى كفراً مباحاً.

مرة حاكم الصومال جمع علماء المسلمين في ساحة المدينة و أحرقهم بالبنزين، وقال: سأصحح القرآن بالقلم الأحمر، إلا إذا رأيت كفراً مباحاً، لكن إن لم يوجد كفر مباح، فالظاهر يوجد التزام، إذا أنكرت منكراً سبب فتنة تفوق المنكر فأنت لست فقيهاً، يجب أن تنكر منكراً لا يسبب فتنة أكبر من المنكر.

الآن: إنسان يخالط الناس تأتيه متاعب لا شك، إنسان آخر يرى نفسه ذكياً جداً هو لا يخالط، ولا يتحمل أي مشكلة، من قال لك: إن هذا الذي لا يخالط الناس، ونجا من كل المشكلات هو أقرب إلى

الله؟

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ))

أوضح مثل: العوام يقولون: امش بجنازة، ولا تمش بزواج.

ويوجد بعض الآثار عن النبي أنه: أفضل شفاعة: أن تشفع بين اثنين في نكاح.

من مشى بتزويج رجل بامرأة، كان له بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها عبادة سنة، قام ليلها، وصام نهارها، إذا كنت سببا بزواج إنسانين، وما داموا متوافقين، لا يبلغوك عن شيء أبداً، يغيبون سنتين، تنشأ مشكلة، يأتون إليك، أنت اخترت لنا إياها يا أستاذ، هناك متاعب طبعاً أنت تكون سببا في زواج إنسانين، هناك متاعب طبعاً مستمرة، أي مشكلة يرجع إليك، أما الرخاء والرفاه والتوافق فلا أحد يأتي إليك، ولا أحد يشكرك، إلا عند المشكلة يأتون إليك، يأتي إنسان يظن نفسه أذكى، لا يتدخل، ولا يقدم شيئاً، لأنه أريح، طبعاً أريح، ولكن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أقرب إلى الله مئات المرات ممن لم يخالطهم، ولا يصبر على أذاهم.

الحياة فيها متاعب، وطن نفسك على أن ترضي الله مع تحمل المتاعب، أما الذي ليس مستعدا أن يفعل شيئاً .....

جاءني إلى جامع الطاووسية قبل أسبوعين إنسان دخل بمسجد، ويرتدي معطفاً فيه ستة عشر ألف ليرة، علقه ليتوضأ، فذهب المعطف، ليس لديه أجرة سفر إلى إدلب، يريد مئتي ليرة، دخل إلى المسجد فطرده من في المسجد، ما عندنا، هذا انهز كيانه، جاء لمسجد آخر أنا موجود فيه، فرضه كذاب، ثلاثمئة ليرة، ماذا يفعل؟ قلت له: هذه هدية، قال: بل دين، فبكى من شدة ألمه من ذاك الرجل، ما له علاقة به، أنا إنسان مليء بإدلب، الآن أريد أجرة سيارة حتى أصل إلى إدلب، فإنسان ما يهمه المسلمين، أريح طبعاً، أما الذي يهمه أمر المسلمين يقرض، لا يرجع القرض، يعاون، تأتي متاعب من هذه المعاونة، يتوسط، تأتي متاعب.

((الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ))

عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ، أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

يعني إذا أحبك الله يعالجك واحدةً بواحدة، دليل أنك ضمن العناية المشددة، أما إذا أهملك وأنت تعصيه، دليل أنه أبعدك.

عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ،

فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَ: أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما، ومالك في الموطأ]

إلا أن أم سلمة لها زوج يكاد يكون مثالا نادرا في المجتمع، -حدث عن شجاعته، وعن وفائه، وعن كرمه، وعن أخلاقه، وعن ... فمات، وسمعت هذا الحديث ما استوعبته-، لا أحسن من أبي سلمة، -لا أحسن منه إطلاقاً-، فكيف يأتيني الله بزوج أفضل من أبي سلمة؟ فتزوجها النبي عليه الصلاة والسلام.

الآن بشارة لكل من يبتلى:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَا مِنْ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا مُسْلِمٌ، إِلَّا كُفِّرَ عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوْ الْمُؤْمِنَةِ فِي جَسَدِهِ وَفِي مَالِهِ وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ))

ما لك يا بنيتي؟ قالت: حمى لعنها اللَّهُ -السيدة فاطمة-، قال: لا تلعنيها، فو الذي نفس محمد بيده، لا تدع المؤمن وعليه من ذنب تكفير.

الآن مصائب واسعة جداً.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ))

يعني إذا أكل حبة صبارة، ودخلت شوكة بيده، تحتاج إلى ملقط دقيق جداً، هذه تكفر عنه بعض خطاياه، يعني ابتسم ابتسامة، يجب ألا يبتسم، دخلت الشوكة.

إن لم ترض عن الله بنقمته لن ترضى عنه بنعمته:

يطوف رجل حول الكعبة، قال: يا رب هل أنت راض عني؟ وراءه الإمام الشافعي قال: يا هذا، هل أنت راض عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: يا سبحان الله! ومن أنت؟ قال: أنا محمد بن إدريس، كيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه؟ -ما هذا الكلام؟-، قال: إذا كان سرورك بنقمة كسرورك بالنعمة، فقد رضيت عن الله.

لأن الله يقول:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

[سورة المائدة الآية: ١١٩]

أنت راض عن الله، راض عن الله في دخلك، في شكلك، في زوجتك، في بيتك، في وظيفتك ، معظم الناس ساخطون، معظم الناس ساخط على قضاء الله وقدره، أما المؤمن الراقي راض عن الله.

لي صديق توفي في مرض خبيث، بقي سنتين يعالج من هذا المرض ما لا يحتمل، تقول زوجته لأبيها، -وأبوها صديقي-: ما سمعته مرة إلا يقول: يا رب لك الحمد، هل أنت راض عني؟ وهو يعاني من آلام السرطان في أحشائه ما لا يحتمل.

حدثنا دكتور طبيب في مستشفى، جاء مريض بمرض السرطان بالأمعاء، إيمانه عجيب، كلما دخل زائر يقول له: اشهد أني راض عن الله، يا ربي لك الحمد، هذا الطبيب من أخواننا، هذا الطبيب ندخل إلى غرفته، يوجد راحة نفسية عجيبة، إذا قرع الجرس يتهافت الأطباء و الممرضات لخدمته، وما دخل إنسان إلى غرفته إلا وخرج مرتاحاً، وما دخل إنسان إلا أشهده أنه راض عن الله، قال لي: عجيب هذا المريض! جذب كل من في المستشفى من أطباء وممرضين، وخدم خدمة عالية جداً، وتوفي بعد أيام ثلاثة.

قال لي: بقدرة قادر جاء مريض آخر بالمرض نفسه، في الغرفة نفسها، لم يدع نبياً إلا و سبه، قال لي: مقيت، غرفته مظلمة، أخلاقه لا تحتمل، يقرع الأجراس لا أحد يرد عليه، يرفع صوته بالسباب، ثم مات بعد ثلاثة أيام، قال لي: هذين المريضين كانوا درساً للمستشفى.

انظر إلى مرض واحد، آلامه واحدة، انظر إلى هذا المرض عند المؤمن، وعند غير المؤمن، لذلك: اكتشفوا بالعلم شيئا لا يصدق: أن طريق الآلام يبدأ من النهايات العصبية، إلى النخاع الشوكي، إلى الدماغ، في قشرة الدماغ الإنسان يشعر بالألم، إذا قطع طبيب الأسنان عصب السن لثانية أو لثانيتين، تشعر بألم تكاد تخرج من جلدك، هذا الألم أين تشعر به؟ بالدماغ، بالدماغ مكان الإحساس بالألم، وطريق الآلام يبدأ من النهايات العصبية، إلى النخاع الشوكي، إلى الدماغ، قال: على هذا الطريق بوابات هذه تغلق أحياناً، فإذا أغلقت الألم هبط إلى العشر، هذه البوابات تتحكم بها الحالة النفسية للمريض، المؤمن تسعون بالمئة من آلام المرض تذهب عنه، تغلق البوابات، يصل من الألم النذر اليسير، أما إذا كان غير مؤمن البوابات مفتوحة، -هكذا قرأت في بحث علمي-، تتحكم بها الحالة النفسية للمريض، المريض المؤمن صابر بالضراء، وشاكر بالسراء، وفي الحالتين يكسب شيئاً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٢٢-٣٢) : الحياء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياء زينة المؤمن:

أيها الأخوة الكرام، الخلق اليوم الحياء، حقيقة الحياء خلق يبعث على فعل الحسن وترك القبيح، وسببه رؤية آلاء الله عز وجل، ورؤية التقصير في العبد، فيتولد حالة تسمى الحياء، رؤية فضل الله عليك، ورؤية تقصيرك تجاهه، من اندماج هاتين الحالتين يتولد الحياء، والحياء من صفات المولى جل جلاله:

((إن ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده إذا بسط يديه أن يردهما خائبتين))

ومن عقوبات المعاصي ذهاب الحياء، الذي هو مادة حياة القلب، والحياء أصل كل خير، وذهابه ذهاب كل خير، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الحياء خير كله))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود في سننه]

لكن الحياء الحقيقي لا يمنع من الأمر بالمعروف، ومن النهي عن المنكر، لذلك فرق العلماء بين الحياء والخجل؛ الحياء فضيلة والخجل ضعف النفس.

ويقول بعض العلماء: الحياء حالة حاصلة من امتزاج التعظيم بالمودة، فإذا اقترنا تولد بينهما الحياء، بشكل واضح: إن كنت ذا مكانة علية، ولك إحسان إلى إنسان، مكانتك العلية مضاف إليها إحسانك إليه، تنشأ حالة تسمى الحياء.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: إن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه، أورثه هذا العلم حياء منه، فيجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة.

وردت كلمة الحياء في القرآن الكريم في آيتين:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾

[سورة القصص الآية: ٢٥]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾

[سورة الأحزاب الآية: ٥٣]

من علامات قيام الساعة: أن يرفع الحياء من وجوه النساء، وأن تزيل النخوة من رؤوس الرجال، وأن تنزع الرحمة من قلوب الأمراء.

كتاب الحياء:

ما الذي قاله عليه الصلاة والسلام في خلق الحياء؟:

إن رجلاً قال:

((يا رسول الله أوصني، فقال عليه الصلاة والسلام: أوصيك أن تستحيي من الله عز وجل كما تستحيي رجلاً من صالح قومك))

أنت من أسرة، ولهذه الأسرة عميد على درجة عالية من الوقار والعلم والفضل، فإذا زارك في البيت، ترتدي ثيابك المحتشمة، وتجلس أمامه بأدب، وتسأله عن صحته، فحينما تستحيي من رجل كبير في قومك، قس عليه -ولله المثل الأعلى- كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أوصيك أن تستحيي من الله عز وجل، كما تستحيي رجلاً من صالح قومك))

أربع من سنن المرسلين؛ الحياء، والتعطر، والسواك، والنكاح.

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْبِكْرَ تَسْتَحِي، قَالَ: رِضَاهَا صَمْتُهَا))

لأنها تستحيي إذا عرض عليها شاب ليتزوجها، فسكتت فهذا رضاها.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إن ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يدعوه، أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء))

عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ))

[أخرجه ابن ماجة في سننه]

أبرز خلق للمسلم أنه يستحيي.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ))

ولهذا الحديث وقفة متأنية، إذا لم تستح من الله فيما تفعل، فلا تعبأ بالناس، قد يكون هناك طاعة، لكنها ليست مقبولة في مجتمع، لو أن الإنسان وقع في خيار صعب بين أن يبقى ملتزماً وطائعاً ومنيباً، ويتزوج زوجة ثانية، أو بين أن ينحرف ويعصي، وهو بين الناس له زوجة واحدة مثلاً، نقول له: إذا لم تستح من الله في هذا الزواج الثاني، فاصنع ما شئت.

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ))

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

إن لم تكن مؤمناً أنت لا تستحيي، وإن لم تستحي أنت لست بمؤمنٍ، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر))

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ))

وكان عليه الصلاة والسلام أشد من العذراء في خدرها.

المعروف: أن أشد كائن في المجتمع البشري حياء الفتاة العذراء.

وكان عليه الصلاة والسلام أشد من العذراء في خدرها، والدليل:

عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((كَيْفَ أَغْتَسِلُ مِنَ الْمَحِيضِ؟ قَالَ: خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَوَضَّئِي ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اسْتَحْيَا، فَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ، أَوْ قَالَ: تَوَضَّئِي بِهَا، فَأَخَذْتُهَا فَجَذَبْتُهَا، فَأَخْبَرْتُهَا بِمَا يُرِيدُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّه عَنْه-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الْأُكْلَةُ وَالْأُكْلَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى وَيَسْتَحْيِي أَوْ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

لذلك:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة المعارج الآية: ٢٤-٢٥]

المحروم يستحيي أن يسأل فيحرم، أما السائل فيقتحم عليك بقوة فيأخذ، أما المحروم فهو المؤمن الذي يستحيي أن يسأل.

ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه، أي إنسان يتكلم بكلام فاحش لا يستحيي، هذا الإنسان مخدوش المروءة، موقفه ضعيف، ولا كان الحياء في شيء إلا زانه، لا يكون الفحش في شيء إلا شانه، ولا يكون الحياء في شيء إلا زانه.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم، ومالك في الموطأ]

إن لم تكن مؤمناً فأنت لا تستحيي، مهما وعظت أن تكون حيياً، ومن شدة حياء النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنه لا يواجه أحد بما يكره.

يوجد شخص وقح، يشير إلى العيب أمام الناس بوقاحة.

كان عليه الصلاة والسلام لا يحرج أحداً.

-وقد ورد في الأثر: لا تحمروا الوجوه.

يتكلم إنسان بمجلس عام في شيء ليس له علاقة بالعقيدة، ولا بالدين، ولا بالشرع، ولا بالحلال، ولا بالحرام، هناك من يسفهه.

فالنبي -عليه الصلاة والسلام- كان لا يحرج أحداً-.

وكان يقول:

((لا تحمروا الوجوه))

من جاءه أخوه متنصلاً محقاً كان أم مبطلاً فليقبل منه.

لا أنت كاذب، هذا الكلام ليس من الحياء.

ما قيل عن الحياء:

يقول سيدنا عمر: من قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه.

ويقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: من لا يستحيي من الناس لا يستحيي من الله.

وسيدنا عمر بن عبد العزيز ذكر عنده الحياء، فالذي ذكر عنده الحياء قال: الحياء من الدين، فقال عمر: بل هو الدين كله.

وقال بعضهم: الإيمان عريان لباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله العفة.

بالمناسبة: رجلان لا يتعلمان، مستح ومستكبر، قفز إلى ذهنه سؤال يستحيي أن يسأل، لئلا يأتي الجواب محرجًا، لذلك المعلم الناجح هو الذي يقبل أي سؤال، ويجيب عنه بأدب من دون استهزاء، يكفي أن يسأل الطالب أستاذه سؤالاً، فيأتيه التهكم والاستهزاء من المعلم، هذا الطالب لن يسأل بعد اليوم، لذلك: إن أردت أن تشجع الطالب على العلم، فأصغ إلى سؤاله، وأجبه بأدب من دون استهزاء.

طرفة: أبو حنيفة -رضي الله عنه- دخل رجل إلى درسه، وكان عظيم الهيئة، طويل القامة، عريض المنكبين، ذي عمامة، كان به –أي أبو حنيفة- ألم من رجله، وقد مدها، ومعه العذر أمام أخوانه، فلما دخل هذا الإنسان، رفع أبو حنيفة رجله حياء منه، -هو معذور.

النبي -عليه الصلاة والسلام-: ما رئي ماداً رجليه قط، أما إذا وجد عذر لك، ومن حولك هم تلاميذك، تحبهم ويحبونك، قد يكون هناك تغطية لهذا السلوك-.

فالدرس كان عن صلاة الصبح، فبعد حديث طويل من أبي حنيفة عن أحكام ووقت وشروط الصلاة، سأل هذا الرجل سؤالا: قال: كيف نصلي إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ قال: عندئذ يمد أبو حنيفة رجله.

فالمستحيي لا يتعلم، والمتكبر لا يتعلم.

لذلك قالوا: تعلموا قبل أن ترأسوا، فإن ترأستم فلن تعلموا.

إذا بلغ إنسان مكانة معينة أو منصبًا رفيع لم يعد يتعلم، لو أنه طلب العلم على يد إنسان ، وقد يكون هذا الإنسان لا يتمتع بخلق عال، فلان تلميذي، فلان كان عندي البارحة، فيحرجه ، فلذلك: ينبغي أن يتواضع المعلم لمن يعلم، والمتعلم إذا كان مستحييًا أو مستكبر لا يتعلم.

أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم -عليه السلام-: أن يا عيسى عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ غيرك، وإلا فاستح مني.

ما أنصفني عبدي، يدعوني عبدي فأستحيي أن أرده، ويعصيني فلا يستحيي مني.

يقول بعض العلماء: من استحيا من الله مطيعاً، استحيا الله منه وهو مذنب.

ويقول الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

خلاصة القول:

بشكل مختصر: الحياء يتولد من رؤية عظمة الله عز وجل، ورؤية فضله، ومن رؤية التقصير في طاعته، وفي البذل والعطاء، إذا اجتمعت رؤية التعظيم، ورؤية الفضل مع رؤية التقصير، تولد الحياء، وشيء واقع جداً.

إنسان له على إنسان فضل كبير، والإنسان عظيم له مكان كبير، وله على إنسان فضل كبير، لذلك هذا الإنسان يستحيي منه لعلو مقامه ولفضله عليه، فما لم تكن لك رؤية ترى بها عظمة الله عز وجل، لا يمكن أن تستحيي منه.

من هنا جاء في بعض الآثار القدسية: يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال:

((تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي على أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب تعلم إنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وبنعمائي كي يحبوني، وببلائي كي يخافوني))

لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله، ومحبة له، وخوفاً منه، والحياء -كما قلت قبل قليل-: لا يأتي إلا بخير، والحياء شيء، والخجل شيء آخر، فالخجل نقطة ضعف في حياة الإنسان، يخجل أن يطالب بحقه، أو يدلي بكلمة حق، هذا خجول، أما الحياء فلا يمنع أن يأمر بالمعروف، أو أن ينهى عن المنكر، الحياء لا ينهى عن أن تطالب بحقك، ولا يمنع من أن توقف الناس عند حدهم، هذا موقف معتدل متوازن.

وقد قيل: الفضيلة وسط بين طرفين.

فالوقاحة طرف، والخجل طرف، والحياء بينهما، ومن الإيمان، وقد قرن الحياء والإيمان جميعاً، وإذا رفع الأول رفع الثاني.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٢٣-٣٢) : الدعوة إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

كل مسلم داعية فليكن على بصيرة:

أيها الأخوة الكرام، الخلق اليوم الدعوة إلى الله، فكأن الدعوة إلى الله خُلق من أخلاق المؤمن، وسلوك ثابت، ذلك أن الإناء لا يفيض إلا إذا امتلأ، فإذا امتلأ فاض على غيره، أما أن تستقر حقيقة الإيمان في نفس المؤمن، ثم لا تعبر عنها بحركة نحو الآخرين فهذا مستحيل، ما دامت قد استقرت حقيقة الإيمان في قلب المؤمن، فلا بد من أن يتحرك بها داعياً، ناصحاً، مرشداً، موجهاً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر.

الدعوة إلى الله حركة نحو الخلق، أما أن يبقى الإنسان معجباً بهذا الدين إعجاباً سلبياً لا يعنيه من حوله، فهذا يعد مأخذاً كبيراً في إيمانه، علامة إيمانك أنك تسعى لهداية الخلق، وعندما نقول هذا الكلام، لا نطالبك أن تكون عالماً جهبذا، ولا متبحراً، ولا متوسعاً، ولا متعمقاً، يكفي أن تنقل إلى الآخرين ما سمعت في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، كل واحد من الأخوة الكرام في محيطه يعد شيخاً، أنت لك درس علم، لك مرجع ديني، فأنت أمام من حولك تعد داعية إلى الله عز وجل، تسأل، تُستشار، فما من إنسان يحضر مجلس علم وله طلب للعلم، إلا ينبغي أن يفيض على من حوله، لذلك في أخلاق المؤمن الدعوة إلى الله، وهي من بنود أخلاقه.

أولاً: يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: إذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم، ما كل عالم بداعية، لكن كل داعية ينبغي أن يكون عالماً، تدعو إلى ماذا؟ تدعو إلى الله بعلم، إذاً: إذا كانت الدعوة أشرف مقامات العبد، فلا تحصل إلا بالعلم.

قيل في تعريف الدعوة إلى الله: هي دعوة الناس إلى الإسلام بالقول والعمل، إذا بقيت بالقول لا تؤثر أبداً، لذلك: لا بد من أن نلحظ أن هناك دعوة صامتة؛ وهي دعوة بليغة، بل يمكن أن تكون أكبر داعية دون أن تحرك شفتيك، أمانتك دعوة، عفتك دعوة، أن تكون صادقاً دعوة، أن تؤثر الحكم الشرعي على مصالحك فيمن حولك فأنت داعية، بهذا تتوسع الدعوة دائرتها إلى درجة أن كل موقف أخلاقي تقفه، هو في الحقيقة دعوة إلى الله.

بعضهم قال في تفسير قوله تعالى:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة النحل الآية: ١٢٥]

فالمتشوق للحق، الطالب له، الباحث عنه، هذا يدعى إلى الله، لكن الغارق في الباطل، لكن المنصف هو توهم أن هذا هو الحق، فلو أقنعته بالحق لانضم إليك، هذا يدعى إلى الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة، الترغيب والترهيب، أما المعاند المصر على ما هو عليه المنتفع، فقال الله عن هذا:

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة النحل الآية: ١٢٥]

هناك دعوة بالحكمة، وهناك موعظة وجدل، المعاند يحتاج إلى جدل، والبعيد لكنه لا ينتفع بكفره، هذا يحتاج إلى موعظة حسنة، أما الأول الطالب فيكفي أن تدعوه إلى الله، وينتهي الأمر. الحقيقة: الآيات كثيرة، على رأسها:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف الآية: ١٠٨]

فإن لم تدع إلى الله على بصيرة، فلست متبعاً لرسول الله، والذي لا يتبعه، ولا يتبعه، لا يحب الله، بدليل قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران الآية: ٣١]

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة النحل الآية: ١٢٥]

(وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٧]

الآيات كثيرة أيها الأخوة.

أصول الدعوة:

ولكن من الأحاديث التي وردت في الدعوة:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَتْ:

((لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ .... جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ،

لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ...))

هناك ملمح في حديث للنبي -عليه الصلاة والسلام-، حينما بعث معاذ إلى اليمن:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ مُعَاذًا قَالَ:

((بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ: إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

هذا الحديث -أيها الأخوة الكرام- يعد أصلاً في التدرج بالدعوة، قال: لا معنى أن تأمر إنسان بالصلاة، وهو لم يؤمن بالله بعد، إيمانه بوجود الله موضع شك، هذا لا يصلي، فإذا أحرجته صلى بلا وضوء، ولكن ابدأ معه بالإيمان بالله، فإن أطاعك بالإيمان بالله فادعه إلى الصلاة، إن أطاعك في الصلاة فادعه إلى الزكاة.

إن هذا الحديث أصل في التدرج، أما أن يدخل إنسان على بيت، ويرى صورة أهل هذا البيت لا يصلون، أهل هذا البيت بعيدون عن الدين بعد السماء عن الأرض، ووضع صورة على الحائط من جزئيات الدين ، منهي عنها طبعاً، لكن أن تبدأ من بهذه، هذا الحديث يعلمك التدرج، وأن تبدأ بالأصول قبل الفروع.

عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ:

((دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ: فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ))

إنسان يأتي بالرخاء، ويبتعد في الشدة، إنسان يتفوق قبل الزواج، ينحسر عنه دينه بعد الزواج، إنسان في الغنى يصلي، في الفقر لا يصلي، هذا مرفوض، الإيمان موقف مصيري، ينبغي أن تتابع الله على طاعته في المنشط والمكره، في إقبال الدنيا وفي إدبارها، في الغنى وفي الفقر، في الصحة وفي المرض، هذا قرار يسمونه مصيريًا، لذلك: الله عز وجل أثنى على هؤلاء فقال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب الآية: ٢٣]

لا يغير ولا يبدل.

في حجة الوداع للنبي -عليه الصلاة والسلام- خطبة شهيرة، خَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ:

((إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا))

أول شيء بالدعوة: أن يكف المدعو عن الحرام، دماؤكم، وأموالكم، وأعراضكم، فإذا وُجد خرق بهذه القاعدة، فلا معنى للدعوة أصلاً، الحد الأدنى في المدعو: أن يكف عن مال لا يحل، أو عن عرض لا يحل له، أو عن دم لا يحل له.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، والترمذي في سننه]

باب من دل على خير:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: مَا عِنْدِي، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))

وكبشارة للدعاة إلى الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا))

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ؛ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ))

قال بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما تلا قوله تعالى:

(ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين)

قال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله في دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفة الله.

لذلك: أجمع المفسرون على أنه: ما من إنسان أقرب من الله ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وقال: إنني من المسلمين.

دعا إلى الله لا إلى ذاته، ودعم دعوته، كان قدوة، الذي قاله طبقه، ثم عزا كل فضائله إلى الله عز وجل، وقال: إنني من المسلمين.

إذا أديت ما سمعت فقد بلغت فعلى الخاصة رد الشبهة بالبرهان المبين:

أيها الأخوة الكرام، كختام لهذا الموضوع: الدعوة إلى الله فرض عين، وفرض كفاية؛ فرض كفاية هي: التبحر، والتعمق، والتفرغ، والقدرة على الإتيان بالأدلة التفصيلية، والقدرة على مواجهة الشبهات بالحجج الدامغة، هذه الدعوة هي فرض كفاية، إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، ولكن الدعوة إلى الله التي هي فرض عين: أن تبلغ ما سمعت:

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري في الصحيح، والترمذي في سننه]

وتواصوا بالحق ربع أركان النجاة، ليس لك فيه خيار إطلاقاً، لذلك: الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، وأنت بالنسبة لمن حولك تعد نافذةً إلى السماء، فلا بد من أن تسعى لنقل إنسان من الضياع إلى الإيمان.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٢٤-٣٢) : الحكمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها:

أيها الأخوة الكرام، الخلق اليوم الحكمة، وما من عطاء إلهي على الإطلاق يوفق أن يؤتيك الله الحكمة، فأنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة العاشرة، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، بالحكمة تحسن كسب المال وإنفاقه، ومن دون حكمة تكسبه حراماً ، وتتلفه في غير وجوهه، بالحكمة تحول الأعداء إلى أصدقاء، ومن دون حكمة تحول الأصدقاء إلى أعداء.

وترون أيها الأخوة: أن جهات في الأرض في أعلى درجة من الذكاء، وفي أعلى درجة من الغنى، وفي أعلى درجة من القدرات، ومع ذلك ترتكب حماقات ما بعدها حماقات، لأنها فقدت الحكمة، الحكمة خاصة بالمؤمن، ولا يمكن لغير المؤمن أن يكون حكيماً، لأن الحكمة تؤتى ولا تؤخذ، ومن يؤت الحكمة لا يمكن أن تكتسب إلا عن طريق الدين، لكن قبل كل شيء الله جل جلاله هو الحكيم، فمن لوازم مقام الألوهية: ثبوت الغايات المحمودة، ووضع الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه.

قال بعض العلماء: الحكمة الفهم عن الله، الحكمة الإصابة في القول، الحكمة ما يشهد العقل بصحته، الحكمة نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، الحكمة سرعة الجور بالصواب.

وقال بعضهم: الحكمة العلم المشتمل على المعرفة بالله مع نفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك.

تعريف الحكمة:

الحكمة في القرآن الكريم الموعظة، قال تعالى:

(حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)

[سورة القمر الآية: ٥]

والحكمة هي السنة، قال تعالى:

(وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

[سورة البقرة الآية: ١٥١]

الكتاب القرآن الكريم، والحكمة السنة، والحكمة هي الفهم، قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

[سورة لقمان الآية: ١٢]

والحكمة هي النبوة، قال تعالى:

(وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ)

[سورة ص الآية: ٢٠]

والحكمة علوم القرآن، قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٩]

تعريفات دقيقة جداً للحكمة، لكن بشكل أو بآخر: الحكمة: أن تضع الشيء في موضعه، أن تقول الكلمة المناسبة في الوقت المناسب، في القدر المناسب، مع الرجل المناسب.

الحكمة القرآن الكريم، والحكمة النبوة، والحكمة هي الفقه والعلم، والحكمة هي الإصابة، والحكمة هي الخشية، والحكمة هي العقل.

معنى الحكمة:

أيها الأخوة الكرام، الحكمة وردت في آيات كثيرة في مئة وعشر آيات، الحكمة وردت مقترنة بالعلم، قال تعالى:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

[سورة البقرة الآية: ٣٢]

وردت الحكمة مقترنة بالعلم في آيات كثيرة، والحكمة وردت مقترنة بالعزة، قال تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة البقرة الآية: ١٢٩]

وردت الحكمة مع العلم، ووردت مع العز، ووردت الحكمة –أيضاً- مع الخبرة، قال تعالى:

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

[سورة الأنعام الآية: ١٨]

ووردت مع العلو، قال تعالى:

(إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)

[سورة الشورى الآية: ٥١]

ووردت مع التوبة، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحجرات الآية: ١٢]

كل بند في عدة آيات، ووردت مقترنة بالحمد، قال تعالى:

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

[سورة فصلت الآية: ٤٢]

وردت مقترنة بالسعة، قال تعالى:

(وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً)

[سورة النساء الآية: ١٣٠]

والحكمة من صفات القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

[سورة آل عمران الآية: ٥٧-٥٨]

والحكمة بمعنى البيان؛ بيان الشرائع والسنة، قال تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة آل عمران الآية: ١٦٤]

والحكمة بمعنى النبوة:

(فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ)

[سورة البقرة الآية: ٢٥١]

والحكمة بمعنى الفقه، قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٩]

بمعنى المواعظ، قال تعالى:

(وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً)

[سورة النساء الآية: ٥٤]

وهناك تفريعات كثيرة جداً للحكمة في القرآن الكريم.

سياق الكلام في القرآن الكريم:

لكن كقاعدة أيها الأخوة:

الكلمة لها سياق، ولها سباق، ولها لحاق، ولا تفهم الكلمة إلا بالسياق.

فمثلاً: كلمة الوحي؛ قال تعالى:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)

[سورة الزلزلة الآية: ١-٥]

أوحى لها: بمعنى أمرها، فأوحى لها إذا كان السياق متعلقاً بالجماد فهو الأمر، الآن قال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[سورة النحل الآية: ٦٨]

وإذا كان السياق متعلقًا بحيوان فهي الغريزة، الآن قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى)

[سورة القصص الآية: ٧]

وإذا كان السياق متعلقًا بإنسان، وليس بنبي فمعناها الإلهام، وإذا كانت كلمة الوحي متعلقة بنبي، فهي الوحي الذي يأتي عن طريق جبريل، كلمة الوحي مع الجماد لها معنى، ومع الحيوان لها معنى، ومع الإنسان غير النبي لها معنى، ومع النبي لها معنى.

يعني أوضح مثل: لو كانت الكلمة مألوفة جداً، لو سمعت أمرًا من واحد رشّ، والمكان ساحة معركة يعني اقتله، إذا كان المكان مسبحًا يعني بالماء، نفس الكلمة بموطن يعني اقتله، بموطن آخر داعبه، ما الذي يحكم على معنى هذه الكلمة؟ السياق، لذلك: الكلمة في القرآن معناها يتحدد بسياقها.

الشعر حسنه حسن وقبيحه قبيح:

عن أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكْمَةً))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود في سننه]

يعني الشعر فيه حكم كثيرة، حتى إن حكم الفقهاء في الشعر: أنه كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فالنبي -عليه الصلاة والسلام- ردد الشطر الأول من هذا البيت:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

لكن ما قال الشطر الثاني، لأن الشاعر كذب، الشطر الثاني:

وكل نعيم لا محالة زائل

لكن نعيم أهل الجنة لا يزول، ما نطق إلا بالحق صلى الله عليه وسلم، أما الشعر فكلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح، مثلاً:

والظلم من شيم النفوس وإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم.

هذا كلام منتهى الجهل، الله عز وجل فطر الإنسان على الظلم؟ فطره فطرةً عالية، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْق اللَّهِ)

[سورة الروم الآية: ٣٠]

إذاً: الشعر كلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكْمَةً))

إن (من): للتبعيض:

((إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكْمَةً))

فضيلة الحكمة:

من الأحاديث الواردة في الحكمة:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ:

((أَنَّ رَجُلَيْنِ تَيَمَّمَا وَصَلَّيَا، ثُمَّ وَجَدَا مَاءً فِي الْوَقْتِ، فَتَوَضَّأَ أَحَدُهُمَا وَعَادَ لِصَلَاتِهِ مَا كَانَ فِي الْوَقْتِ، وَلَمْ يُعِدْ الْآخَرُ، فَسَأَلَا النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يُعِدْ: أَصَبْتَ السُّنَّةَ وَأَجْزَأَتْكَ صَلَاتُكَ، وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَمَّا أَنْتَ فَلَكَ مِثْلُ سَهْمِ جَمْعٍ))

اثنان تيمما وصليا، ثم وجدا ماء، فواحد توضأ وصلى، والثاني ما توضأ ولا صلى.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ:

((أَنَّ رَجُلَيْنِ تَيَمَّمَا وَصَلَّيَا، ثُمَّ وَجَدَا مَاءً فِي الْوَقْتِ، فَتَوَضَّأَ أَحَدُهُمَا وَعَادَ لِصَلَاتِهِ مَا كَانَ فِي الْوَقْتِ، وَلَمْ يُعِدْ الْآخَرُ، فَسَأَلَا النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يُعِدْ: أَصَبْتَ السُّنَّةَ وَأَجْزَأَتْكَ صَلَاتُكَ، وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَمَّا أَنْتَ فَلَكَ مِثْلُ سَهْمِ جَمْعٍ))

أرأيت إلى حكمة النبي صلى الله عليه وسلم؟.

الأخذ بالرخصة والعزيمة في موطنهما مقبولتان شرعاً:

أنا ما أنسى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما قبض مسيلمة الكذاب على صحابيين، وقال للأول: أتشهد أني رسول الله؟ فقال: ما سمعت شيئاً، فقتله، وقال للآخر: أتشهد أني رسول الله؟ فشهد له أنه رسول الله، ماذا قال النبي عن هذين الصحابيين؟.

قال: فأما الأول فقد أعز دين الله فأعزه الله، -وأما الثاني معناها هلك-، قال: وأما الثاني فقد قبل رخصة الله.

واحد قبل الرخصة فلا شيء عليه، والثاني أخذ بالعزيمة، فقد أعز دين الله فأعزه الله، أرأيت إلى هذا الدين: ما أوسعه، وما أرحمه، وما أحكمه!؟ يسع الناس جميعاً.

إنسان أحياناً يكتب الله له الجهاد، جيد وبارك الله به، لكن لا يحق له أن يأخذ إلى الذي اجتهد فلم يذهب، هذا له عند الله حكم، وهذا له عند الله حكم، أما كل إنسان في موقعه يتهم الآخرين، هذا موقف غير حكيم.

نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة:

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:

((سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا))

أيها الأخوة، عن عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَقَالَ: تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ: أَتُرَى بِي بَأْسٌ؟ أَمَجْنُونٌ أَنَا؟ اذْهَبْ))

رفض نصيحة النبي، لو تعوذ الغاضب بالله، لذهب عنه غضبه.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُونُوا رَبَّانِيِّينَ حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ.

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً، محزوناً، حكيماً، حليماً، سكيناً.

نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة، وترجى فيه الرحمة.

هناك مجلس كله كذب بكذب؛ كذب، على نفاق، على فحش، وهناك مجلس كله حكمة.

مواعظ وعبر:

عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ يَقُولُ:

((لَيْسَ هَدِيَّةٌ أَفْضَلَ مِنْ كَلِمَةِ حِكْمَةٍ تُهْدِيهَا لِأَخِيكَ))

[أخرجه الدارمي في سننه]

أجمع الأطباء: على أن رأس الطب، وأجمع الحكماء: على أن رأس الحكمة الصمت، لا تجد إنساناً كثير الكلام إلا كان كثير الخطأ، ورأس الحكمة الصمت.

عن وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ يَقُولُ: يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِالْحِكْمَةِ، فَإِنَّ الْخَيْرَ فِي الْحِكْمَةِ كُلِّهِ، وَتُشَرِّفُ الصَّغِيرَ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْعَبْدَ عَلَى الْحُرِّ، وَتَزِيدُ السَّيِّدَ سُؤْدُدًا، وَتُجْلِسُ الْفَقِيرَ مَجَالِسَ الْمُلُوكِ)

[أخرجه الدارمي في سننه]

واحد فقير، ونسبه غير معروف، بالحكمة يجلس مجالس الملوك.

عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ قَالَ:

((لَا تُحَدِّثْ الْبَاطِلَ الْحُكَمَاءَ فَيَمْقُتُوكَ، وَلَا تُحَدِّثْ الْحِكْمَةَ لِلسُّفَهَاءِ فَيُكَذِّبُوكَ، وَلَا تَمْنَعْ الْعِلْمَ أَهْلَهُ فَتَأْثَمَ، وَلَا تَضَعْهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ فَتُجَهَّلَ، إِنَّ عَلَيْكَ فِي عِلْمِكَ حَقًّا، كَمَا أَنَّ عَلَيْكَ فِي مَالِكَ حَقًّا))

[أخرجه الدارمي في سننه]

إذا كان المجلس فيه حكماء، والكلام هذر وسخيف يمقتوه:

((وَلَا تُحَدِّثْ الْحِكْمَةَ لِلسُّفَهَاءِ فَيُكَذِّبُوكَ.

-أحيانا تتكلم بكلمة حق، أو كلمة عن إنجاز علمي، يقول لك: غير معقول، لأنه سفيه، جاهل، من الحكمة ألا تحدث الحكمة للسفهاء، يكذبونك-.

لَا تَمْنَعْ الْعِلْمَ أَهْلَهُ فَتَأْثَمَ، وَلَا تَضَعْهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ فَتُجَهَّلَ، إِنَّ عَلَيْكَ فِي عِلْمِكَ حَقًّا، كَمَا أَنَّ عَلَيْكَ فِي مَالِكَ حَقًّا))

ما قيل عن الحكمة:

يؤتي الحكمة من يشاء، قيل: الخشية، لأن خشية الله رأس كل حكمة.

وقيل: إن الحكمة خشية الله، والعلم به، والرفق رأس الحكمة.

هناك قول لابن القيم، لكن نحتاجه جميعاً، يقول هذا العالم الجليل: إذا جرى على عبد مقدور يكرهه مرض، فله فيه ستة مشاهد: الأول مشهد التوحيد، هذا الذي أصابني من فعل الله، لأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

المشهد الثاني: مشهد العدل: وأنه ماض في حكمك، عدل في قضائك.

والمشهد الثالث: مشهد الرحمة: وأن رحمته في هذا المقدر غالبة لغضبه وانتقامه.

والرابع: مشهد الحكمة: وأن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت ذلك، لم يقدره سدى، ولا قضاه عبثاً.

الخامس: مشهد الحمد: وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

والمشهد السادس: مشهد العبودية: وأنه عبد محض في كل وجه تجري فيه الأحكام.

أي قضاء وقدر، يجب أن تشهد فيه ستة مشاهد: التوحيد، والعدل، والرحمة، والحكمة، والحمد، والعبودية.

وقال بعضهم: زين المرأة الحياء، وزين الحكيم الصمت.

الغفلة عاقبتها الندامة والحكمة جزاؤها السداد في القول والعمل:

وفي نهاية هذا الموضوع: الآية الجامعة المانعة:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٩]

الإنسان في ساعة الغفلة قد يشتت أسرته، قد يفقد عمله بساعة الغفلة، قد يفقد أنصاره، الحمق لا يأتي إلا بالشر، والحكمة لا تأتي إلا بالخير، والحكمة أكبر عطاء إلهي للمؤمن، الحكمة تقلب الأشياء على ضدها.

الفقير الحكيم يغتني بمال حلال، والغني الأحمق يفتقر بماله، ويعود محطم النفس، في أي مكان، في مجال، في أي نشاط الحكيم هو الفائز، والله هو الحكيم، فإذا كنت مع الحكيم كنت حكيماً، والحكيم دائماً يسلك المسلك الصحيح الكامل الذي يقتضيه الظرف، إصابة في القول، وسداد في الفعل، والحكمة أن تعمل وفق الشرع، وأن تتعرف على الله عز وجل مع نفاذ البصيرة، والحكمة دليل كمال العقل، ويلبس صاحبها تاج الكرامة في الدنيا والآخرة، وينفع الله لصاحبها طلاب العلم، ومريدي الخير، ويدرأ الله لصاحبها أبواب كثيرة من الشر، وإنها سمة من سمات الأنبياء الصالحين والعلماء العاملين.

تطبيق عملي على خلقي الحكمة والحمق:

كنا طلاباً في التعليم الثانوي، وكان ثمة مدرس غضوب، وسريع الانفعال، فيأتي الطلاب ويضعون على الطاولة أشياء مزعجة، أوراق طعام قديم، أحياناً حذاء، فإذا نظر إلى هذا ثار وغضب، وأزبد وتكلم بكلام قاس، والطلاب يضحكون، لأن هذا هو القصد، أن يستمتعوا بغضبه وثورته، جاءنا أستاذ آخر، وضعوا له مثل ما وضعوا للأول، قال: أين العريف؟ ائت بالمستخدم، أزل هذه، ما تكلم ولا كلمة، وما أعادها الطلاب عليه ثانية إطلاقاً، الثاني حكيم، القصد أن يستفز، ما استفز، جاء بالمستخدم، وقال له: أزل هذه، وتابع الدرس.

ممكن بالحكمة أن تنهي أكبر مشكلة، ممكن بالحمق تفجر أصغر مشكلة، بالحمق قضية تافهة جداً تطلق زوجتك، الأولاد تشردوا، الأمر تفاقم، تقول: أنا شقيت بهذه الكلمة، بهذا الطلاق في ساعة غضب، في ساعة حمق، في ساعة غفلة عن الله عز وجل، يمكن بالحمق أن تفقد شريكك، كان لك دخل جيد ومرتاح، بهذه الكلمة الحمقاء فقدت الشريك.

القضية هي عطاء إلهي، سببه الاتصال بالله، إذا كنت مع الحكيم فأنت حكيم، والحكمة متعلقة في بيتك، ومع زوجتك، ومع أسرتك، ومع من حولك، ومع الناس جميعاً، وإذا آتانا الله الحكمة، آتانا خيري الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٢٥-٣٢) : الإنفاق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١١-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أنفق من مالك ولا تخش من ذي العرش إقلالا:

أيها الأخوة الكرام، الخلق اليوم الإنفاق، والله سبحانه وتعالى في مطلع سورة البقرة يصف المؤمنين بأنهم: مما رزقناهم ينفقون، وهذا أوسع معاني الإنفاق، أية خصيصة خصك الله بها، ينبغي أن تنفق بها، فإن أنفقتها أقرها الله لك، وإن حبستها حولها عنك إلى غيرك.

أيها الأخوة، الإنفاق بمعنى الزكاة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٣]

قال بعض المفسرين: يؤدون الزكاة، وبمعنى صدقة التطوع:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٤]

وبمعنى الإنفاق في سبيل الله:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩٥]

في الدعوة، وفي تجهيز الجيوش، وبمعنى الإنفاق على العيال:

(وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ)

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ)

[سورة الطلاق الآية: ٧]

بمعنى الفقر والإملاق، إذاً: لأمسكتم خشية الإنفاق، هذه المعاني المستنبطة من الآيات التي وردت في الإنفاق.

لكن هناك شيء يلفت النظر هو: أن خالق الكون، جبار السموات والأرض، الذي بيده ملكوت كل شيء، يطلب منك قرضاً، قال:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

[سورة البقرة الآية: ٢٤٥]

قال ابن القيم: إن أصل هذه الآية تشير إلى المال الذي أنفقته محفوظ عند الله، ثم يأتيك الثواب والعطاء والإكرام، لأن المال محبب إلى الناس.

فأنت إذا زكيت مالك، أو تصدقت من مالك، فهذا المال الذي أنفقته زكاة أو صدقة سوف يعود إليك، وهذا معنى القرض، الإله العظيم يقول للعبد الفقير: أقرضني يا عبدي، وأنا أعطيك أضعافاً مضاعفة.

فضل النفقة:

أيها الأخوة، الآيات التي تقترن بمعاني الإنفاق حوالي أربعين آية، ولكن الأحاديث تعطي تفصيلات دقيقة حول الإنفاق:

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا: مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللَّهُ بِهِ وَيُغْنِيهِمْ؟))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

ابدأ بمن تعول، طبعاً فيما هو أساسي، أما الإنفاق الذي فيه ترف فالفقير أولى به، الإنفاق الأساسي هؤلاء الذين تعيش معهم، زوجتك وأولادك ليس لهم غيرك، لذلك هم أولى الناس بأن تنفق عليهم، أن تنفق عليهم نفقة تبعدهم عن أن يتطلعوا إلى غيرك.

حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

دينار تنفقه، وديناران تنشر الحق بهما على دابتك في سبيل الله، وعلى أصحابك في سبيل الله، لكن أراد النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يبين: أن المعطي أفضل عند الله من الآخذ، أن تأخذ مال غيرك، هذا شيء لا يكلف جهداً، ولكنه يعلم كسلاً، أما أن تعمل عملاً صالحاً، أن تكدح بالمعنى القرآني، وأن تكسب مالاً بكد يمينك، وعرق جبينك، ثم تنفقه على فقير، فاليد العليا خير من اليد السفلى، اليد العليا هي المنفقة، واليد السفلى هي اليد السائلة.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والنسائي في سننه]

بعد أن تؤمن، كل حركاتك وسكناتك أعمال صالحة، حتى إذا جئت أهلك بطعام، أو بفاكهة، أو بحلويات، أو بشيء يفرح أهل البيت، لأنك تريد أن تأخذ بيدهم إلى الله، وتريد أن تمتن علاقتك بهم، وأن تمتن علاقتهم بك، فهذا الإنفاق يشد الأهل إليك.

أقول لكم أيها الأخوة: هناك آباء بخلاء، لذلك ينسلخ عنه أبناءه، ويتطلعون على غيره، قد يصاحبون رفقاء السوء، وقد يتعلمون منهم الانحراف، من أجل أن يأكلوا معهم، أو ينفقوا عليهم، فحينما ينفق الإنسان على أهله فيكفيهم، ويبعدهم عن التطلع إلى سواه، فهذا من العمل الصالح:

((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً))

ومن الأحاديث القدسية:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بْنَ آدَمَ! أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))

أنا لا أشك أنه ما من واحد منكم إلا وله مع الله بهذا الموضوع تجربة، ينفق، فإذا ربنا عز وجل يشجعه، فيأتيه الأجر أضعافاً مضاعفة، فأنفق أنفق عليك، هذا حديث جامع مانع.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ))

أعيد وأكرر: الإنفاق المعتدل الذي يغطي الأساسيات، أما إنفاق الترف والإسراف والتبذير، هذا لا يرضي الله عز وجل، لأن هناك بطونا جائعة، هناك أسرًا تعاني من الجوع، ومن العري، ومن الحاجات الأساسية، فأنت أنفق على أهلك ما هم بحاجة إليك، فإذا فضلت فضلة فالفقير أولى بها.

سيدنا سعد أراد أن ينفق قبل أن يموت ثلثي ماله، قال له: كثير، فقال: الثلث، قال كثير .

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْه- قَالَ:

((جَاءَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَعُودُنِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا، قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ، قَالَ: لَا، قُلْتُ: فَالشَّطْرُ، قَالَ: لَا، قُلْتُ: الثُّلُثُ، قَالَ: فَالثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ، فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا ابْنَةٌ))

إنسان يموت، ويدع لأهله شيئاً يقيهم أودهم، هذا عمل طيب، أما أن تتصدق بكل ما عندك، وأهلك جياع فقراء، أحياناً يترك بيتًا مئة متر، يوصي بثلثه للفقراء، عندك خمسة أولاد وزوجة، أين

يسكنون؟ أبق لهم هذا البيت، احفظ لهم ماء وجههم، فهذا الذي لا يعبأ بمن بعده، كلنا سيغادر هذه الدنيا، ولكن دع لهؤلاء الأولاد شيئاً يعيشون به.

فالنبي -عليه الصلاة والسلام- لما عرض عليه سيدنا سعد أن ينفق ثلثي ماله، قال: لا كثير، قال: والثلث؟ قال: لا والثلث كثير، لذلك: العلماء بتوجيه النبي -عليه الصلاة والسلام- يفضلون ألا تزيد الوصية على الربع، ربع المال في سبيل الله، في الإنفاق على المساجد، والفقراء، والمساكين، وطلبة العلم، إلى آخره، أما يجب ألا تزيد الوصية على الربع.

قال:

((ومَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ))

أية نفقة تبتغي بها وجه الله أجرت عليها، ولو وضعت لقمة في فم امرأتك.

عَنْ أَسْمَاءَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((أَنْفِقِي وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

أنا أعبر عن هذا المعنى بكلمة أجمل، خطأ أن ترتكب هذا الخطأ في أداء الزكاة، هناك إنسان يدقق لدرجة لا يستعد أن يعطي درهمًا واحدًا زيادة عما هو مفروض عليه، فيبالغ في التدقيق، فالتوجيه هنا لا تحصي فيحصي الله عليك، مجموع الأموال كذا، لكن يوجد قسم منهم مال مجمد، هذا معفى من الزكاة، كم نسبة هذا المال إلى هذا المال؟ يدخل في متاهات الحسابات من أجل ألا يدفع درهمًا واحداً زيادة عما افترض عليه، لو كنت متسامحاً في أداء الزكاة، فهذا قد يسمى خطأ بالحسابات:

((أَنْفِقِي وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّه عَنْه-، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

والله عز وجل قادر أن يتلف لك كل أموالك، أحياناً ترتكب خطأ يكلف ملايين أو مئات الألوف، فأن يسترد المال منك قضية سهلة جداً، تدفعه وأنت مرتاح.

حدثني أخ أنجبت زوجة ابنه غلاماً، فمهد لهذا الحديث، قال لي: إذا رزق الله الإنسان مولودًا سليمًا معافى، كأن مع هذا المولود مليون ليرة، قلت له: كيف؟ قال: أنجبت زوجة ابني غلاماً فيه خطأ في الوريد والشريان بالقلب، فمعنا أربع وعشرون ساعة، إما أن نجري عملية ، أو يموت! ليس في كل

سوريا من يجري هذه العملية، في لبنان طلب الطبيب أربعمائة ألف وثلاثمائة من المستشفى، وخمسة وعشرين ألفًا لنقله من مستشفى إلى مستشفى، فقال لي: دفعت خلال اثنتي عشرة ساعة سبعمئة وخمسة وعشرين ألفًا، الله عز وجل قادر أن يجعلك تدفع كل ما تملك، فلا تدقق كثيراً في موضوع الإنفاق، لا تحص فيحصي الله عليكَ.

ورد في بعض الآثار القدسية: أن الله يسأل العبد يوم القيامة: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول هذا العبد: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله عز وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يقول لعبد آخر: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، بثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فقال: يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك.
وأنا أقول لكم هذه الحقيقة: أي إنسان ينفق في حياته، الله عز وجل يحفظ له أولاده بعد مماته، وأي إنسان يمسك في حياته من أجل أولاده، الله عز وجل قد يتلف له ماله بعد مماته، هذا إن لم يفعل أولاده المعاصي والآثام.

قال: أين تذهب؟ قال: ذاهب لأسكر على روح أبي!

ترك له مالاً، ولم يترك له علماً، ترك له مالاً، ولم يعتن بدينه ولا بأخلاقه.

عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ))

أيها الأخوة، عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

((أَعْتَقَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ عَبْدًا لَهُ عَنْ دُبُرٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: أَلَكَ مَالٌ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِيهِ مِنِّي؟ فَاشْتَرَاهُ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَدَوِيُّ بِثَمَانِمِئَةِ دِرْهَمٍ، فَجَاءَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ، فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ، فَهَكَذَا وَهَكَذَا، يَقُولُ: فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ))

يوجد أولويات؛ أن تكفي نفسك، وأهلك، وقرابتك، وبعد ذلك تنفق هكذا وهكذا، سبحانك يا رب.

الحث على الصدقة وآدابها:

عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إنَّ الْخَازِنَ الْمُسْلِمَ الْأَمِينَ الَّذِي يُنْفِذُ، وَرُبَّمَا قَالَ يُعْطِي، مَا أُمِرَ بِهِ فَيُعْطِيهِ كَامِلًا مُوَفَّرًا، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ))

ما هذا الحديث؟ أمين الصندوق إذا كان أميناً ونفذ التعليمات بدقة، فهو أحد المتصدقين.

عَن الرَّبَابِ، عَنْ عَمِّهَا سَلْمَانَ ابْن عَامِرٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَالْمَاءُ، فَإِنَّهُ طَهُورٌ، وقَالَ: الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ ثنتان؛ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما]

إذا أنفقت على ذي قرابتك، فلك أجران؛ أجر الصدقة وأجر الصلة.

الحقيقة: ثمار الزكاة لا تقطف اليوم، لأنه يوجد إحصاء دقيق: أن الذين يدفعون زكاة أموالهم من أغنياء المسلمين لا يزيدون على خمسة بالمئة، ولو دفعت الزكاة كما أراد الله عز وجل لما وجدت فقراء، وهذا حصل في عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز، كان الرجل يحمل زكاة ماله، ويجوب كل الأماكن رجاء أن يعثر على إنسان يقبلها فلا يجد! تنبأ النبي بهذه الثمرة اليانعة للزكاة.

يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((تَصَدَّقُوا، فَيُوشِكُ الرَّجُلُ يَمْشِي بِصَدَقَتِهِ، فَيَقُولُ الَّذِي أُعْطِيَهَا: لَوْ جِئْتَنَا بِهَا بِالْأَمْسِ قَبِلْتُهَا، فَأَمَّا الْآنَ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والنسائي في سننه]

يوجد تعفف أيضاً، اليوم إذا أردت أن تدفع شيئًا علانية، يبدأ الأغنياء بالطلب، العفة التي كانت بأصحاب النبي شيء لا يصدق، والفقير الذي لا يجد ما ينفق طمأنه النبي.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه]

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنَّمَارِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:

((ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ؛ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ،

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ))

كلام خطير، في اللحظة التي تشرع بسؤال الناس والتضعضع لهم، وإظهار مسكنتك أمامهم، فتحت على نفسك باب المسألة، ففتح الله عليك باب الفقر، كن عزيزاً، قم واسعَ:

بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق.

شيء خطير.

أتمنى -أيها الأخوة- أن أوضح ما في ذهني: لو ذهبنا إلى بستان مزروع تفاحًا في الزبداني، دخلنا هذا البستان، الشجرة السابعة، الغصن الثالث، التفاحة الرابعة، هذه لفلان! فلان كيف تصل إليه هذه التفاحة؟ باختياره؛ إما أن يأكلها تسولاً، أو سرقة، أو ضيافة، أو هدية، أو شراءً، طريقة وصولها إليه باختياره، أما هي فله! لذلك: ورد في الحديث:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه]

ما لك لك، لن يأخذه غيرك، وما ليس لك ليس لك، لن تحصله، ولو فعلت ما فعلت.

الملاحظة: أن الإنسان على فراش الموت يصير سخيًا، المال لم يعد له معنى بالنسبة له، أعطوا فلانًا، أعطوا فلانًا ...

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِي اللَّه عَنْه- قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلَا تُمْهِلُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ))

البطولة: وأنت شاب، وأنت في أمس الحاجة إلى المال، وأنت في وقت المال يفعل معك كل شيء، في هذا الوقت الحرج تنفق من مالك، أن تصدق وأنت صحيح شحيح.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

نصف تمرة استتر بها من النار.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ؛ مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ))

من لم يحمل هم المسلمين ليس منهم:

أيها الأخوة الكرام، يبدو أن هذا الموضوع كبير جداً في الدين، بدليل: أن النبي الكريم أعطى كَمّاً كبيراً جداً في الإنفاق، لأن علة مجيئك إلى الدنيا أن تعمل عملاً صالحاً يكون سبب دخولك الجنة، والدليل: أن الإنسان إذا وافته المنية يقول:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون الآية: ٩٩-١٠٠]

وأن الفقر الحقيقي هو فقر العمل الصالح، وأن الغنى الحقيقي هو غنى العمل الصالح ، وأن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وأعظم أعمالك الصالحة ما استمر بعد الموت!.

كنا في بيروت قبل أيام، يوجد مؤسسة بحي الأوزاعي ضخمة جداً، أوقفها طبيب محسن في سبيل الله، مستشفيات، مستوصفات، دور أيتام، إطعام فقراء، مات من عشر سنوات أو أكثر هذا الطبيب، لكن هذا العمل مستمر، ندعى كل عام مرتين لإلقاء محاضرات في العجزة والمعاقين، طبعاً تنقل على الإذاعة، لكن أنا أقول: يا رب، هذا الإنسان تحت أطباق الثرى، أما الخير مستمر ويتنامى، والله عز وجل سخر أيدي أمينة لهذه المؤسسة، هذا عمل، يجب أن تكون بطلاً، لا أن تكون رقماً. أحياناً يكون الإنسان رقمًا، لا يقدم ولا يؤخر، همه أن ينام ويأكل ويشرب فقط، هذا لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً، همه نفسه، وكلما اتسعت الهموم ترقى عند الله، إذا كان همك فقط فأنت صغير في عين الله.

يوجد آباء لا يعتنون بأولادهم إطلاقاً، ولا يعنى بزواجهم، ولا استقرارهم، ولا عملهم، افعل ما تشاء، كن عصامياً، لا، هناك من يهتم بأولاده، وبقرابته، وبأبناء بلدته، ومن يهتم بالمسلمين ، كلما اتسعت دائرة اهتمامك كبرت عند الله، وكلما ضاقت دائرة اهتمامك صغرت من عين الله، ما الذي يعنيك؟ من لم يحمل هم المسلمين ليس من المسلمين.

أنا إذا قال لي واحد: أنا الحمد لله، أنا ما عندي مشكلة، يصغر من عيني، رغم كل ما يجري في العالم الإسلامي ليس عندك مشكلة!؟ أنت مرتاح أن يقتل المسلمون، أن يشردوا، وتنهب أموالهم، أنت مرتاح!؟ يعني هذا أنك أنت المشكلة، إذا لم يوجد عندك مشكلة، مثل هذا الإنسان الذي لا يهتم للآخرين هو نفسه مشكلة، أين حرصك على المسلمين؟ أين انتماؤك لهم؟ أين حرصك على سعادتهم؟.

على كل؛ المسلم الصادق يحمل هم المسلمين، ويخفف عنهم قدر ما يستطيع؛ إما بإنفاق المال، أو بتقديم خدمات، أو بتوعية، يقدم شيئًا يكون له يوم القيامة شفيعاً.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١٢-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

لسانك حصانك إن صنته صانك:

أيها الأخوة الكرام، من أخص صفات المؤمن: الصمت وحفظ اللسان، ولعل الكلام أوسع نشاط يقوم به الإنسان، والإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- عدد من آفات اللسان ما يزيد .....

عَنْ مُعَاذٍ، عَنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

والسيدة عائشة -رضي الله عنها- حينما خاطبها النبي -عليها الصلاة والسلام-، بعد أن قالت لأختها صفية: قصيرة.

فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلًا فقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا: هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

أريد من هذه المقدمة أن يعتقد المؤمن اعتقاداً جازماً أن كلامه من عمله، فالإنسان قد يتكلم بالكلمة، ولا يلقي لها بالاً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا، يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

واللسان يذل، وقد تكون كلمة قاضية على مصير الإنسان:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه شجعان

فالكلام -أيها الأخوة- نشاط واسع جداً في حياة الإنسان، والكلام خاضع لمنهج الله، فرُب كلمة ارتقيت بها إلى أعلى عليين، ورب كلمة هويت بها على أسفل سافلين.

بادئ ذي بدء: ما تعريف الصمت؟.

قال بعض العلماء: الصمت إمساك عن قول باطل دون الحق، لأن الذي لا يتكلم بالحق شيطان. ينبغي أن تنطق بالحق وتصمت عن الباطل، إنك إن ذكرت الباطل أشرت إليه، وإن ذكرت الباطل وروجته، وأغريت الناس به، فالباطل ينبغي أن تكف عنه.

بعض علماء الفلاسفة قالوا: الصمت فقد الخاطر بوجد الحاضر.

حينما ترى حقيقة الخواطر تنتهي، الخواطر المتشككة والمتطلعة، حينما ترى الحقيقة أمامك ماثلة، تكف هذه الخواطر فتصمت.

وقيل: الصمت سقوط النطق بظهور الحق.

وقيل: انقطاع اللسان بظهور العيان.

الحقيقة مسكتة!.

لكن العلماء فرقوا بين السكوت والصمت؛ السكوت شيء، والصمت شيء آخر، فالسكوت ترك الكلام مع القدرة عليه، فالسكوت فضيلة، ويوجد قاعدة أنه:

ينبغي أن تسكت حيث سكت القرآن.

لكن هناك من يتطلع إلى تفاصيل وجزئيات أغفلها القرآن، فالذي سقط عنه القرآن ينبغي أن تسكت عنه، والذي فصله القرآن ينبغي أن تفصل فيه، لئلا تفسد على الله حكمته من إيجاز القول في بعض القصص، لأن هذه القصص في الحقيقة نماذج بشرية، جاءت مقتضبة موجزة من أجل أن تشعر أنها نموذج متكرر، أما إذا بالغت في البحث عن تفصيلات سكت عنها القرآن، فكأنك تريد أن تقول: إنها وقعت، ولا تريد أن تقع، فحكمة الباري جل وعلا من حكمة سكوته عن بعض التفاصيل: من أجل أن تكون هذه القصة نموذجاً متكرراً.

إذاً: السكوت هو ترك التكلم مع القدرة عليه، بينما الصمت سكوت مطلق.

أنت قادر أن تتكلم أو لست بقادر، ما دمت لم تتكلم فأنت صامت، أما إذا كنت قادراً أن تتكلم ولم تتكلم فأنت ساكت، يوجد فرق آخر، الصمت يراعى فيه الطول النسبي، فمن ضم شفتيه آناً قصيراً يكون ساكتاً، أما من طال سكوته يكون صامتاً، الفرق بين الصمت والسكوت المدة؛ السكوت إمساك عن الكلام حقاً كان أم باطلاً، أما الصمت فهو إمساك عن القول الباطل حصراً.

الآن من التعاريف الدقيقة لحفظ اللسان: حفظ اللسان أن يصون المرء لسانه عن الكذب ، والغيبة، والنميمة، وقول الزور، وغير ذلك مما نهى عنه الشرع الحكيم.

هل تصدقون أيها الأخوة: أن من بعض معاصي اللسان وجوب النار؟.

لا يدخل الجنة قتات.

القتات هو الذي يتحدث بما قاله الناس عن رجل ينقله إليه، فيحدِث شرخًا كبيرًا في العلاقات الاجتماعية، معظم المسلمين ولست مبالغاً في معظم لقاءاتهم وسهراتهم يتحدثون عن بعضهم بعضاً غيبة ونميمة، والغيبة أشد من الزنا كما قال عليه الصلاة والسلام، والنميمة تمنع النمام من دخول الجنة.

لا يدخل الجنة نمام.

والنمام هو القتات، الوعيد على معاصي اللسان يصل إلى النار، فحفظ اللسان أن يصون المرء لسانه عن الكذب، المؤمن لا يكذب ولا يخون.

فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

فإن الكذب والخيانة تتناقضان مع الإيمان، والمعنى الدقيق: أن الشيئان قد يتعاكسان، قد تجد على حائط لونًا أسود ولونًا أبيض، والأبيض والأسود متعاكسان، الشيئان المتعاكسان يجتمعان ، ولكن الشيئين المتناقضين لا يجتمعان، وجود أحدهما ينقض الآخر.

الكذب والخيانة تنقض الإيمان، لحديث أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

فإذا كذب وخان فليس بالمؤمن.

فأخواننا الكرام، أصحاب الأعمال عندك موظف احتمل منه كل خطأ، إلا أن يكذب أو يخون.

من أركان الخلق الرفيع: الصدق والأمانة والعفة، فإذا حدثك فهو صادق، وإذا عاملك فهو أمين، وإذا استثيرت شهوته فهو عفيف.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَتْ:

((كَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا

عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ))

[أخرجه ابن خزيمة في صحيحه]

إن عاملك فهو أمين، وإن حدثك فهو صادق، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف.

كما قلت قبل قليل: الآفات التي أساسها اللسان تزيد عن عشرين آفة، وكلها آفات مهلكة.

مرة أراد إنسان أن يستسمح من إنسان اغتابه، فقال له: لقد اغتبتني، قال له: ومن أنت حتى أغتابك؟ لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أمي وأبي –إنسان-، لأنهم أحق بحسناتي منك.

معنى ذلك: أن الذي يغتاب يخسر حسناته لمن اغتابه يوم القيامة، والغيبة أشد من الزنا، وصدق: أنك لا تكون ورعاً إلا إذا صنت لسانك عن الغيبة والنميمة.

وكما تعلمون: النبي الكريم يقول:

((إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

يقول: كلام في كلام.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا، فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا))

قالت:

((قصيرة، فقال: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

و:

((قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة))

بعض الأدباء يقول: إن من الأخلاق الفاضلة الإخبار عن الشيء على ما هو به.

هذا الخلق مستحسن: أن تصف الشيء على ما هو به، إلا إذا كانت موضوعيتك مسيئة لإنسان، فينبغي أن تصمت، أو أن تكون فاضحة لإنسان.

واحد سألك: هل ارتكبت الفاحشة؟ قل له: ما هذا السؤال؟ وما شأنك بي؟ أما لو كنت صادقاً، وفضحت نفسك، خرقت ستر الله عليك، فالأصل أن تنطق بما هو كائن، لكن ربما تصمت مراعاة لحقوق الآخرين أو لمكانتك.

كما تعلمون دائماً: أن الإنسان مخير، فكل شيء في حياته من حظوظ وجوارح وشهوات وخصائص حيادية، فاللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، صغير بجرمه.

دخل على سيدنا عمر بن عبد العزيز وفد من الحجازيين تقدمهم غلام صغير، فغضب، وقال : اجلس، وليقم من هو أكبر منك سناً، قال: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه. فإذا وهب الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول، لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس، صغير في جرمه عظيم في فعله، كلمة تفرق زوجة عن زوجها، وقد أبالغ فأقول: وحركة قد تسبب طلاق امرأة، كيف فلانة الله أعلم طلقها زوجها، ف: قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة.

الإيمان لا يستبين إلا بنطق اللسان، ما هو الإيمان؟ ما وقر في القلب وأقر به اللسان وصدقه العمل، ويوجد كفر قولي، هناك من ينطق بكلمة الكفر، يوجد كفر اعتقادي وكفر عملي وكفر لساني، يوجد كلمات هي الكفر بعينه.

إذا أردت أن تنجو من شر لسانك فعليك بالصمت:

قال: أعصى الأعضاء على الإنسان هو اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مكنة في تحريكه، إذا أطلقته لا تتعب، وإذا حركته لا يحتاج على مؤونة، ويمكن بهذا اللسان أن يقوم من الشر ما لا يوصف.

اليوم قضية الشرور الناتجة من إطلاق اللسان في الأعراض وفي الغيبة والنميمة لا تنتهي، تجد المجتمع ممزق على مستوى مدينة أو حي أو أسرة أو أقارب، في أي مستوى المجتمع ممزق من آفات اللسان.

من كلام الإمام الغزالي: قد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وأهواله، والحذر عن مصائده وحبائله.

قال: هو أعظم آلة للشيطان في إغواء الإنسان اللسان، من أطلق لسانه، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة.

أخواننا الكرام، من طبع الإنسان الخوض في فضائح الناس.

الحقيقة: الحديث عن الفضائح شيء ممتع جداً، متعة، فعلاً خانت زوجها؟ هكذا قيل! مع من؟ يتتبع، فالطبع يميل إلى الخوض في فضائح الناس، لكن الشرع يقول لك: اسكت، احفظ لسانك، اصمت، لا تجعل الشيطان يقودك إلى النيران.

الإمام الغزالي يقول: إن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ صَمَتَ نَجَا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

مستحيل أن تندم على الصمت كما تندم على النطق، الندم على الصمت أهون بكثير من أن تندم على النطق، الإنسان إذا تكلم كلمة سجلت عليه، سنكتب ما قالوا ...

شروط الكلام الحسن:

أخواننا الكرام، العلماء بحثوا في هذا الموضوع، وضعوا للكلام الحسن الذي يليق بالمؤمن شروط، من هذه الشروط: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه.

أخواننا الحلاقون، يستخدمون المقص مئة قصة على الفارغ، وبعدها واحدة تصيب، وهكذا كلام الناس! كلام لا معنى له، ولا فائدة، ولا لزوم له، إلا أنه مضيعة للوقت، فلذلك: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، فإذا لم يكن لديك ما تقول فلا غناء في القول، وباللغات العامية: المصرية أرغي رغي، وبالشامية عي، كلام لا طائل منه، كلام وتفاصيل وحديث.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قال:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه، ومالك في الموطأ]

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[أخرجه البزار في مسنده]

أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتراء نفع أو دفع ضر، أما كلام هذيان لا طائل وراءه، فالأولى أن نصمت، والصمت حكمة وعقل ووقار، وقد يكون الصمت أبلغ من الكلام، الشق الأول أن يكون هناك داع إلى الكلام، يوجد سبب، أما الكلام للكلام، الكلام وسيلة ، وليس غاية.

الشيء الثاني: أن يأتي الكلام مناسباً لمقتضى الحال.

أحياناً هناك تفاصيل مملة، وإيجاز مخل، وهناك كلام ينبغي أن تسكت عنه، وكلام ينبغي أن تنطق به، فالحكمة في إلقاء الكلام أحد أكبر شروط هذا الكلام.

نضر الله امرأ اقتصر في كلامه على حاجته، وإياك وكثرة الكلام، فإن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً.

اختيار اللفظ من توفيق المؤمن: أنه يختار أدق الألفاظ.

سيدنا عمر مر بقوم قد أضرموا ناراً فقال لهم: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، ولم يقل لهم: السلام عليكم يا أصحاب النار، وفرق كبير بين أن تقول: يا أصحاب الضوء، وأن تقول: يا أصحاب النار، وكلما ارتقى المؤمن، يختار أدق الكلمات.

١-ألا تسرف في مدح، وألا تسرف في ذم:

من آداب الكلام: ألا تسرف في مدح، وألا تسرف في ذم، يوجد قاعدة أخلاقية:

((أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يـوماً ما))

[أخرجه الترمذي في سننه]

فلا تسرف لا في المديح ولا في الذم، ما الذي يحصل؟ .

إنسان يخطب من أسرة يتحدث عنه أهل الفتاة، ملك من السماء، تقوى، صلاح، ذكاء، فهم، أصل، نسب، حسب، ينشأ خلاف، يصبح سكة عطل، إنسان ساقط جاهل، لا يصلي، منافق، الأحكام الحادة دليل ضعف العقل، دائماً كن معتدلاً في أحكامك.

من آداب الكلام: ألا تسرف لا في المديح ولا في الذم.

٢-أن تضبط اللسان عن وعد ووعيد، لست قادراً على فعله:

ومن آداب الكلام: أن تضبط لسان عن وعد ووعيد، لست قادراً على فعله.

لي قريب مقيم ببلد بعيد، جاء إلى الشام لزيارة أهله، فله ابن صغير يبدو له أنه شوش، فقالت له جدته: اسكت، سآخذك مساء إلى مكان جميل فسكت، هو ينتظر تنفيذ وعدها، هي لا تفكر هكذا أبداً، فقال لها: أنت كاذبة وعمره سنوات!!!!.

إذا كنت تتكلم كلامًا لست قادرًا على تنفيذه، لا تنفيذ الوعد ولا تنفيذ الوعيد، سقطت من عين الناس، لا تتكلم كلامًا إلا وأنت قادر على تنفيذه.

من آداب الكلام: أنك إذا قلت قولاً، ينبغي أن تحققه بفعلك.

من لوازم الكلام: أنه إذا كان ترغيباً فلا بد من كلام لين، وإذا كان ليّنًا فلا بد من كلام فيه غلظة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية: ٧٣]

إذا كان الموطن موطن ترغيب فلا بد من اللين، وإذا كان الموطن موطن ترهيب فلا بد من الشدة.

يروى في اللغة العربية شاهد على عدم اختيار الكلمات المناسبة، أحدهم تغزّل بفتاة اسمها سلمى، قال: إن سلمى خلقت من قصب السكر لا عظم الجبل، وإذا قربت منها بصلاً، غلب المسك على ريح البصل، قال: هذا غزل مطبخي، جمل، وبصل، هل هذا غزل؟!!

كلمات غير مناسبة، فأنت لا تعرف قدرة الإنسان في الكلام إلا بحسن اختياره للكلمات.

٣- ألا ترفع بكلامك صوتاً مستكرهاً:

من آداب الكلام: ألا ترفع بكلامك صوتاً مستكرهاً، كلمة فاحشة بذيئة، ارتفاع صوت فجائي، ينبغي ألا يرفع المتكلم بصوته صوتاً مستخرجاً، ولا يزعج الإنسان إزعاجاً مستهجناً.

٤-أن يكف عن هجر القول ومستقبح الكلام:

الآن: أن يكف عن هجر القول ومستقبح الكلام، كلمة لا تليق، المؤمن تعيش معه ثلاثين سنة، لا تسمع منه كلمة نابية ولا قاسية ولا منحرفة، وهذا الذي يقول: لا حياء في الدين، أنا أقول: الدين كله حياء، والحياء من الإيمان، واستنبط من كلام الله عز وجل حينما قال:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٥-٧]

عبر عن كل انحراف جنسي بكلمة: ابتغى وراء ذلك! فالقرآن كله أدب، وكلام النبي كله أدب. أحياناً العوام لهم كلمات مبتذلة، ينبغي للمتكلم ألا يهبط في كلامه إلى مستوى العامة، والغوغاء، أن يقلد العلماء في كلامهم، لا أولئك الذين سقطوا من عين الناس.

أحاديث مشتركة تبين آفات اللسان:

أيها الأخوة الكرام، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ صَمَتَ نَجَا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))

الموضوع العي والرغي.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

يوجد مزاح يحدث صدمة، أنت تمزح، إلا أن ظنك أنك مازح أصيب بنوبة قلبية، أتمنى على كل أخ ألا يسلك المزاح في اللسان.

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ هَذَا))

ويقال: أكثر خطأ ابن آدم في لسانه.

عامة المسلمين لا يسرقون، ولا يزنون، ولا يقتلون، ولا يشربون الخمر، أليس كذلك؟ الأكثرية، هذه معاصٍ كبيرة ترتكبها قلة قليلة في المجتمع، لكن الخطأ المتفشي بين أفراد المجتمع خطأ اللسان، أكثر خطأ ابن آدم في لسانه.

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّه عَنْه- قَالَ:

((قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))

عَنِ الشَّعْبِيِّ حَدَّثَنِي كَاتِبُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ:

((كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنِ اكْتُبْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

حَتَّى بَلَغَ

(يَعْمَلُونَ)

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟))

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ هَذَا))

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وعالم الشام الجليل الشيخ بدر الدين الحسني -رحمه الله تعالى-: إذا تكلم إنسان في حضرته عن إنسان، يقول له: اسكت، أظلم قلبي.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ))

وكان عليه الصلاة والسلام لا يواجه أحداً بما يكره، إن أراد أن يعظ أصحابه، يخطب ويقول:

((ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟))

سبحانك يا رب!.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، والترمذي في سننه]

آفتان خطيرتان: اللسان والفرج، فإذا ضبط لسانك وفرجك بمنهج الله، ضمن لك النبي الجنة.

من أقوال السلف الصالح:

من أقوال الصحابة الكرام: من كثر كلامه كثر سخطه؛ أي خطؤه.

بأي جلسة الذي يكثر الكلام يكثر الخطأ، والصامت في حصن.

لا تمار حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقليك والسفيه يؤذيك، المراء الجنان.

أحد التابعين الأجلاء وهو الأحنف بن قيس كان في مجلس فأحرج، قيل له: ما تقول في يزيد؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت.

فكان هذا الكلام البليغ تلميحاً أبلغ من تصريح، إذا أحرج الإنسان، فالنبي علمنا ما يسمى بالمعاريض، إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب.

من أين أنتم؟ قال عليه الصلاة والسلام: من ماء، من هذا لسيدنا الصديق عن رسول الله في الهجرة، قال: هو رجل يهديني السبيل، قصد السبيل لله عز وجل.

فالإنسان ممكن أن ينطق بكلام صحيح الإنسان، لكنه يستخدم المعاريض الكنايات.

أيها الأخوة، من فوائد الصمت وحفظ اللسان: أن الصمت دليل كمال الإيمان، وحسن الإسلام، وأن الصمت دليل السلامة من العطب في المال والعرض، الإنسان والنفس، ودليل حسن الخلق، وطهارة النفس، وأن الصمت يثمر محبة الله، ثم محبة الناس، وأن الصمت يهيئ المجتمع الصالح والنشىء الصالح، وأن الصمت ينتهي بصاحبه إلى الجنة، والنجاة من النار.

قال النبي الكريم يخاطب صحابياً جليلاً:

((يا فلان، فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله، قال: ما هما يا رسول الله؟ قال: الصمت وحسن الخلق))

فالخوض في أخطاء الناس، وفي تقييمهم، وكشف عوراتهم، ونشر فضائحهم، هذا ليس من خلق المسلم .

أيها الأخوة الكرام، أسأل الله النجاة من آفات اللسان.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١٢-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

التفاؤل صفة ثابتة لا تتغير في طبيعة المؤمن:

أيها الأخوة الكرام، حينما ينطلق الإنسان من مقولة: أن طباع الإنسان ثابتة لا تتغير، وأن أخلاقه لا تتبدل، بهذا الكلام يلغي إمكانية الإنسان لإصلاح نفسه، ويلغي جدوى التربية، ويلغي عمل المصلحين، يجب أن تعتقد أن الإنسان يمكن أن يتغير تغيراً جذرياً، وقد يؤخذ هذا المعنى من قوله تعالى:

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)

[سورة الفرقان الآية: ٧٠]

كان جباناً فصار شجاعاً، كان بخيلاً فصار كريماً، كان محسناً فصار مسيئاً.

الحديث اليوم عن طبع من طباع الناس، هذا الطبع في الكافر تشاؤم، وفي المؤمن تفاؤل، مهما ألقيت على أذن إنسان من خبر طيب، ينفي ذلك، ويقول لك: أنت لا تعرف شيئاً، الأمر أسوأ من ذلك بكثير، فهذا التشاؤم واليأس والسوداوية، وأن ينظر للعالم بمنظار أسود، وكلما لاحت بشائر انفراج يغلقها لك، وكأنه شامت، وكأنه يتشفى منك إذا ألقيت على مسامعه خبراً طيباً.

أيها الأخوة، لذلك موضوع درس اليوم التفاؤل، التفاؤل ضد التشاؤم، ضد الطيرة.

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ، وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ))

تشاؤم من نظرة، من إنسان، من بيت، من أسبوع، هذا كله ليس وارداً إطلاقاً، إنه من فعل الشيطان، ليوقع بين الناس العداوة والبغضاء، المؤمن يتفاءل، والمؤمن يحسن الظن في الأعم الأغلب.

أيها الأخوة، الفأل: الكلمة الصالحة، أو الطيبة، أو الحسنة، الأمطار انقطعت، وخطوط المطر تبدلت، سوف نشهد جفافاً ما بعده جفاف، وسنشهد أزمة اقتصادية طاحنة بسبب نقص المياه، إن شاء الله لعل الله يرزقنا بغيث من السماء، هذا الموقف الكامل.

رجل طبيب توفي -رحمه الله- زارني قبل سبع سنوات، وقال لي: أنا عضو في لجنة حوض دمشق، وقال: منسوب هذا الحوض أصبح في وضع خطر، وأصبحت دمشق مهددة بالجفاف،

وسيضطر الناس لمغادرة هذه المدينة، والله تكلم كلامًا في الغرفة هناك، لم أستطع أن أقف على قدمي، طبيب ومثقف ثقافة عالية جداً، وعضو في لجنة حوض دمشق، يتكلم عن علم!! نحن إلى جفاف، وقحط، ويبس الأشجار ....

أيها الأخوة، في العام الذي تلا كلامه، هطل في دمشق أمطار بمعدل ثلاثمئة وخمسين ميليمترًا! كالعام الماضي تماماً، وهناك ينابيع من ثلاثين عامًا جفت تفجرت، ومياه منين وصلت إلى برزة، والشيء الذي لا يصدق: أن كل توقعات الناس باءت بالإخفاق، العام الماضي كان يوجد ثلاثمئة وخمسين ميليمترًا أيضاً، وإن شاء الله إذا جاء هذا العام كالعام الماضي: حلت أزمة المياه في المنطقة الجنوبية أصلاً.

أنا كنت في الغوطة في الصيف، أطلعني صاحب البستان على مستوى المياه في البئر، عنده بئر واسع، قال: كان عمق المياه أربعين ميليمترًا، بعد أمطار العام الماضي أصبح البعد خمسة عشر مترًا، ارتفع منسوب المياه الجوفية خمسة وعشرين متراً في المنطقة الجنوبية، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- يحب التفاؤل، والإنسان اليائس من رحمة الله يحب التشاؤم.

بنية في الإنسان، أقصد صفة عميقة، كلما سمع خبراً مبشراً نفاه، أو وجهه توجيهاً آخر، أو قال لك: كذب من أجل أن تبقى خائفًا أو مضطربًا أو يائسًا، التفاؤل من صفة المؤمن، والتشاؤم من صفات غير المؤمن.

عام الثلاثة والثلاثين سمع أحدهم كلامًا من إنسان من أصحاب القرار: أن عام الثلاثة والثمانين نهاية القطاع الخاص، باع آلاته، وأصابه غم وهم وحزن، ثم تنشط هذا القطاع نشاطاً لا حدود له. فأنت:

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطيك إذا ما منعك!؟

الفأل: الكلمة الطيبة الحسنة الصالحة، إنسان لا ينجب، تنجب إن شاء الله، كلمة طيب قلبه بها، وقد يسلك الأطباء هذا السلوك، يعطيه يأسًا كاملا، ويأتي الشفاء مخيبًا لظن الأطباء.

تأدب مع الله، وقل الأمر بيد الله عز وجل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَمِعَ كَلِمَةً فَأَعْجَبَتْهُ، فَقَالَ:

((أَخَذْنَا فَأْلَكَ مِنْ فِيكَ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

كان يحب الكلمة الطيبة، ويحب الفأل، ويحب البشارة.

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ الْحَسَنُ، وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ))

كان يكره التشاؤم، ويحب الفأل الحسن.

تساقط القيم الأرضية أمام قيم الإسلام ومبادئه:

أنا أقول لكم: إن شاء الله على الرغم من كل ما يجري في العالم الإسلامي؛ من إضلال، وإهلاك، وقصف، وهدم، وقتل، وإفساد، وإذلال، على الرغم من كل ما يجري في العالم العربي الإسلامي من شدة لم يسبق لها مثيل.

ذكرت في الخطبة: أن كل شِدة من الله للمؤمن وراءها شَدة، وأن كل محنة للمؤمن وراءها منحة لله عز وجل:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٦]

أيها الأخوة، عقب الأحداث الجسيمة بدءاً من الحادي عشر من أيلول حتى الآن، حصل تبدل في العالم الإسلامي، لا يمكن أن يتبدل من دون هذه الأحداث، لكن هذا التبدل لا يعلمه جميع الناس، تبدل خطير جداً في المفاهيم، والتصورات، والمعتقدات، والأهداف.

قبل أن آتي إليكم: كنت في حفل من أعلى مستوى، حفل أكاديمي، فألقيت كلمات، أنا قلت بالضبط: في ساحة القيم كان هناك كتل ثلاث؛ كتلة قيم الشرق الذين يؤمنون بأنه لا إله، وكتلة قيم الغرب، وكتلة الإسلام، الكتلة الشرقية تداعت من الداخل:

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

[سورة الأحزاب الآية: ٢٥]

تداعت من الداخل وانتهت، بقي في الساحة قيم الإسلام، وقيم الغرب، قيم الغرب رائعة، لا أكتمكم: رائعة جداً الحرية، قيمة ما بعدها قيمة؛ حقوق الإنسان، الديمقراطية، العدل، المساواة، تكافؤ الفرص، كل بحسب جهده، والفضل لله عز وجل: حينما وضعوا على المحك، أصبحوا وحوشاً، وهذه القيم التي نادوا بها، ورفعوها شعارات، أصبحت في الوحل، بقي الغرب قوة غاشمة، ولم يبق حضارة، أليس كذلك؟.

أنا في خطبة الجمعة أجريت حواراً مع صلاح الدين الأيوبي، قلت له: عذراً يا صلاح الدين، لقد أخرجت الفرنجة القدامى من العراق ومن الشام، ونحن وعدناهم بأخطائنا، عادوا للعراق، وفلسطين، و....

قلت له: لا تقلق علينا، حينما عادوا قالوا: إنما عدنا من أجل أن تنعموا بحرية كحريتنا، ورخاء كرخائنا، وسلام كسلامنا، ولا أتمنى عليك أن تسأل: هل حققوا هذه الأهداف بوسائل من جنسها، أم بالقتل والإفقار والإضلال والإفساد والإذلال؟.

الغرب كقيم سقط، بقي قوة مخيفة!.

أيها الأخوة، أقول كلاماً دقيقاً جداً: لم يبق في ساحة القيم والمبادئ إلا قيم الإسلام، وعلى الرغم من كل ما يجري، بل إني أقول: إن هناك حرباً عالمية ثالثة معلنة على الإسلام في القارات الخمس، وعلى الرغم من كل ذلك: أنا متفائل، لماذا؟ لأن الغرب كان منافساً للإسلام ، سقوطه كحضارة إنجاز كبير جداً، كان نخبة، قلة قليلة من المثقفين العرب والمسلمين يعرفون حقيقة الغرب، أما أطفالنا اليوم يعرفون حقيقة الغرب، هذا إنجاز لا يقدر بثمن، وضعوا بامتحان فسقطوا.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ:

((أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلًا سَأَلَ عَنِ اسْمِهِ، فَإِذَا أَعْجَبَهُ اسْمُهُ، فَرِحَ بِهِ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهُ، رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِذَا دَخَلَ قَرْيَةً سَأَلَ عَنِ اسْمِهَا، فَإِنْ أَعْجَبَهُ اسْمُهَا، فَرِحَ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهَا، رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ))

يحب الاسم الحسن، والخبر الطيب، والبشارة، والتفسير الطيب.

لذلك أيها الأخوة: جاءتني رسالة بالبريد، يمكن كررت مضمونها مئات المرات، ولا أشبع من تكرار مضمونها: عالم كبير في أمريكا هداه الله على الإسلام، وزار بريطانيا، والتقى بالجالية الإسلامية هناك، وقال: أنا لا أعتقد أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان: أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لأن خلاص العالم بالإسلام، ولكن بشرط أن يحسنوا فهم دينهم، وتطبيقه، وعرضه على العالم.

الآن: ساحة القيم والمبادئ فارغة إلا من قيم الإسلام ومبادئه، المنطلقات الجماعية، وأقصد بها: العالم الشرقي لم تنجح، والفردية كذلك، وأقصد بهم العالم الغربي، الشهوة وحدها ما نجحت في إسعاد الإنسان، المال وحده لم ينجح، العادات والتقاليد لم تنجح، ما من فكر طرح على الساحة، ونجح في إسعاد البشر، ولا يسعدهم إلا ربهم، ودينهم، وانتماؤهم لهذا الدين العظيم، لكن هذا الدين بقي شكلاً.

فيا أيها الأخوة، كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يحب الفأل الحسن، والكلمة الطيبة، والبشارة، ولا يسفه لك بشارتك، ولا حسن ظنك بالله عز وجل.

يقول ابن عباس -رضي الله عنه-: الفرق بين الفأل والطيرة: أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، وأن الطيرة لا تكون إلا في السوء فلذلك كرهت.

لن يسمح الله لأعداء البشرية في تنفيذ مخططاتهم إلا بما أراد:

أيها الأخوة، قبل الحادي عشر من أيلول كنت في أمريكا في مؤتمر كبير جداً، ومن عادة هذا المؤتمر: أنه يدعو الضيوف في حفل الختام لإلقاء كلمة لكل ضيف، مقدارها دقيقة واحدة، طبعاً الكلمات في المؤتمر كانت طويلة، مدتها ساعة ونصف، لكن حفل الختام دقيقة واحدة، هكذا قلت: حينما ترى قوة قوية في العالم تخطط لصالح شعوبها على حساب شعوب الآخرين، وعلى حساب ثروتهم وكرامتهم وثقافتهم، نجاح هذه الخطط في المدى البعيد يتناقض مع وجود الله، لأن الله لا يسمح لجهة في الأرض أن تتألّه.

لذلك: من سنن الله عز وجل: أنه يرخي الحبل للطاغي، حتى يتوهم جهلاً أنه يفعل ما يريد، إذا توهم كذلك، جاء بطش ربك:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

وقد تجدون: كيف أن القوي يتوهم أنه لا يمكن لأحد أن يقف أمامه، ثم يفاجأ باستنزاف قوته كل يوم كما يجري، وكل هذه الأسلحة الفتاكة، والصواريخ، والطائرات، والبوارج، وحاملات الطائرات، والقنابل العنقودية، والذكية، والانشطارية، والأقمار الصناعية لا تجدي مع إنسان جاء ليضحي بحياته ليهز أركان العدو، حتى إن بعض كبار الضباط في البنتاغون يقولون: ماذا نفعل بأسلحتنا مع إنسان جاء ليموت؟ لا بد من خطط جديدة كلياً، لذلك الله عز وجل لا يسمح لجهة أن تتألّه.

كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يعجبه الفأل، لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به.

أيها الأخوة، من فوائد التفاؤل: أنه يعبر عن حسن ظنك بالله عز وجل، وأنه يجلب السعادة إلى النفس والقلب، ولأنه ترويح للمؤمن، وسرور له، ولأن في الفأل تقوية للعزائم، ومعونة على الظفر، وباعثاً على الجد، لولا الأمل بطل العمل، وفي التفاؤل اقتداء بالسنة المطهرة، وأخذ بالأسوة الحسنة، حيث كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يتفاءل في حروبه وغزواته.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

باب في أعمال من البر متفرقة:

أيها الأخوة الكرام، هناك موضوع آخر هو البشاشة، وهي سرور يظهر في الوجه، يدل على ما في القلب من حب اللقاء، وفرح بالمقابلة، وجه مبتسم، وجه طليق بالتعبير اليومي ، يوجد وجه خاص لأخذ الخاطر، والعياذ بالله لا يبتسم أبداً، هذا مصمم خصيصاً للأحزان، أما المؤمن طليق الوجه، بالقرآن:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة الآية: ٢٢-٢٣]

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ)

[سورة عبس الآية: ٣٨-٣٩]

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

[سورة الغاشية الآية: ٨-٩]

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

[سورة المطففين الآية: ٢٤]

البشاشة: طلاقة في الوجه، ابتسامة مودة.

عن أَنَس يَقُولُ:

((قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَلَيَّ بَشَاشَةُ الْعُرْسِ، فَقُلْتُ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: كَمْ أَصْدَقْتَهَا؟ فَقُلْتُ: نَوَاةً، وَفِي حَدِيثِ إِسْحَقَ مِنْ ذَهَبٍ))

[أخرجه النسائي في سننه]

يوجد بشاشة خاصة في الزواج، وخاصة بالنجاح، نال شهادة عليا، يوجد بشاشة خاصة بالعمل، أحياناً بالتجارة: عنده صفقة لم يستطع أن يسوقها لمدة طويلة، ثم جاء من يشتريها، تشعر أنه يوجد بشاشة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ))

أكثر أوقاته في المساجد، من درس، لصلاة، لعبادة، لخدمة ....، هذا معنى دقيق جداً، يعني أن الله عز وجل يشعره، ويلقي في روعه أنه يحبه:

((إِلَّا تَبَشْبَشَ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ))

غائب غاب عشر سنوات، وعاد لأهله، كيف يلقى ترحيباً وبشاشة وطلاقاً وابتسامة وسروراً؟ لكن يوجد موقف يحتاج إلى توضيح.

عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ:

((بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ، تَطَلَّقَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ، قُلْتَ لَهُ: كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ، وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ))

كان عليه الصلاة والسلام يجعل وجهه طليقاً لكل الناس.

ورد أنه: كان يحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي بشره عن أحد.

كان طليق الوجه مع من يثق، ومع من لا يثق به.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما]

((مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ))

أحياناً: ابتسامتك تلقي في قلب أخيك السرور والطمأنينة، وتلقي في قلب من يعمل معك الراحة.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((قَالَ لِيَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

عَنْ أَنَسٍ -رَضِي اللَّه عَنْه-: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ يَخْطُبُ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ:

((قحَطَ الْمَطَرُ فَاسْتَسْقِ رَبَّكَ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ وَمَا نَرَى مِنْ سَحَابٍ فَاسْتَسْقَى، فَنَشَأَ السَّحَابُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ مُطِرُوا حَتَّى سَالَتْ مَثَاعِبُ الْمَدِينَةِ، فَمَا زَالَتْ إِلَى الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ مَا تُقْلِعُ، ثُمَّ قَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ، وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَخْطُبُ، فَقَالَ: غَرِقْنَا فَادْعُ رَبَّكَ يَحْبِسْهَا عَنَّا، فَضَحِكَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَعَلَ السَّحَابُ يَتَصَدَّعُ عَنِ الْمَدِينَةِ يَمِينًا وَشِمَالًا، يُمْطَرُ مَا حَوَالَيْنَا وَلَا يُمْطِرُ مِنْهَا شَيْءٌ، يُرِيهِمُ اللَّهُ كَرَامَةَ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَإِجَابَةَ دَعْوَتِهِ))

أيها الأخوة، لو أن الناس عادوا إلى ربهم، واستسقوا ربهم بنفوس مؤمنة تائبة، لرأيتم السماء أمطارها كأفواه التراب.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((جَاءَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَوْمًا، وَهُوَ يُرَى الْبِشْرُ فِي وَجْهِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَرَى فِي وَجْهِكَ بِشْرًا لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ، قَالَ: أَجَلْ، إِنَّ مَلَكًا أَتَانِي، فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ لَكَ: أَمَا يُرْضِيكَ أَنْ لَا يُصَلِّيَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يُسَلِّمَ عَلَيْكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى))

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا)، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَشْرَقَ وَجْهُهُ، وَسَرَّهُ يَعْنِي قَوْلَهُ))

كلمة طيبة تملأ نفس أخيك سروراً.

أنا أقول لكم أيها الأخوة: من هو البخيل الأحمق؟ الذي يضن بكلمة:

إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم.

كلمة تهنئة، نحن بشر ما تعودنا هذه الأساليب الرفيعة في التعامل، أخوك نجح في امتحان نهنئه، أو في عمل، أو في إلقاء كلمة هنئه، وقع في مشكلة، حاول أن تخفف عنه، الكلمة الطيبة صدقة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ، غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ))

وبإمكانه أن يلغي وجوده، أرأيت إلى حلم النبي!؟.

لن تنجح في مشروع حياتك إلا إذا كنت مقتفياً أثر الرسول:

أيها الأخوة الكرام، لسيدنا علي كلمة، قال: من الدهاء حسن اللقاء لو لم تكن طيباً، ولكن كن ذكياً.
الآن قضية سلوك حديث، أو سلوك في ذكاء، من الدهاء حسن اللقاء، أنت تلقاه ببشاشة، وافهم منه ما يريد، وهيئ جواً مريحاً لك وله، ثم حقق هدفك.

وقال بعض العلماء: يعجبني من القراء كل سهل طلق مضحاك.

-أحياناً لك مكانة كبيرة، وشأن كبير، تستخدم الجدية إلى أعلى درجة من أجل أن تنتزع إعجاب الناس، وتوقيرهم، وتعظيمهم، لا، هذا من قلة الذوق كما ذكرت في الخطبة.

كان عليه الصلاة والسلام يضحك مما يضحك منه أصحابه.

كن طبيعيًا، طرفة لطيفة الجميع تبسم، هو يبقى بهيبته وصمته وروزته وعبوسه، هذا من قلة الذوق مع من حولك.

كان عليه الصلاة والسلام يضحك مما يضحك منه أصحابه، ويعجب مما يعجبون منه.

ذكرت بالمقابل: أن المبالغة في الذوق من قلة الذوق.

النبي علمنا: أننا إذا عدنا مريضاً أن لا نطيل الزيارة.

ورد في بعض الآثار: أن العيادة مقدار حلب ناقة.

المريض قد يكون متألم أو بحاجة لدواء، أو لمعاملة خاصة، أو لقضاء حاجة، أو بوضع استثنائي، فأنت تعوده بمقدار حلب ناقة، لكن يوجد استثناءات، المريض مرتاح جداً، وليس عنده مشكلة، ولا يوجد ألم، ونام نومًا طويلاً، وأنت تحبه، وهو يحبك، جلست عنده مسافة قصيرة، ثم استأذنت بالخروج، ثم حلف عليك أن تبقى جالساً، إنني مستأنس بك، لكن النبي نهانا عن إطالة الزيارة، لكن أنا مرتاح، لا أبداً، أنا ذو ذوق، لا يجوز.

فقالوا: المبالغة في الذوق من قلة الذوق.

فلذلك-: يعجبني من القراء كل سهل طلق مضحاك، فأما من تلقاه ببشر، ويلقاك بضرس، يمن عليك بعمله، فلا كثر الله في الناس أمثاله، تلقاه ببشر يلقاك بعبوس.

في بعض الأحاديث: من المفارقات كفى بها خيانة، أو تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب، أن تبالغ في البشاشة له، وهو يبالغ في العبوس.

لذلك: الإنسان لا ينجح في علاقته مع الناس إلا إذا كان طبيعياً، لا تكن كهنوتياً، أو متصنعاً، أو بعيداً عن الناس، كن قريباً منهم.

من علامة النبي -عليه الصلاة والسلام-: أنه من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه.

ومن أدق ما في القرآن الكريم في قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم الآية: ٩٦]

قال: هذا الود سيلقي محبتهم في قلوب المؤمنين.

هذا معنى.

المعنى الثاني: يلقي محبتهم في قلوب الناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم.

يوجد معنى ثالث: يلقي محبتهم في قلوب المؤمنين، وهيبتهم في قلوب الكافرين.

لك محبة عند المؤمن، وهيبة عند غير المؤمن.

والمعنى الرابع:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم الآية: ٩٦]

فيما بينهم، كلام دقيق أقوله: ما دام بين المؤمنين مودة ومحبة، فهذه شهادة على أنهم مؤمنون، وما دام يوجد بغضاء وضغينة وحقد بين المؤمنين، فهذه شهادة على أنهم مقصرون في إيمانهم، لذلك:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة الآية: ١٤]

تبسمك في وجه أخيك صدقة:

أيها الأخوة، القصة سأرويها، ليس لأذكركم بشيء أفعله إطلاقاً، لا شهد الله، لكن مرة لنا أخ من أخواننا، اشترى بيتًا في بلدة في شرق دمشق، قال: كلما جاءت وجبة من الأثاث لبيتنا لنا جار تحت بيتي يخرج، ويساعدني بكل ما يملك، لفت نظره مرتين ثلاثا، مودة بالغة، ثم يأتيني بالضيافة بالشاي بما عندهم من فواكه، فقال: أنت من؟ قال: أنا من رواد جامع النابلسي، صار بينهما تعارف، -شيء جميل، المؤمنون أخوة، يتعاونون، هو يسكن تحته، بيت اشتراه حديثاً، ويفرشه، كلما أحضر شيئاً يساعده جاره-.

قال: أنت كيف عرفت هذا المسجد؟ قال: والله لي قصة! قال: ما قصتك؟ قال لي: ابن خالة من رواد المسجد، وقد أتعبني كثيراً، وقد ضيق علي، وهو دعاني لحضور الدروس، وأنا بعيد جداً عن الدروس، وعن الدين والعلم، هو من الطبقة الفقيرة جداً، غارق في همومه المعاشية، لكن من شدة ما ألح وضيق عليه، أردت أن ألبي دعوته مرة واحدة كي أسكته، فجاء للمسجد، فأثناء السلام يقول لي هذا الأخ القديم: هذا ابن خالتي، أنا بشكل لا شعوري صافحته بشعور بمودة بالغة، وبششت له، وسألته: هل أعجبك الدرس؟ وقلت لابن خالته: عينك عليه، ماذا كلفتني؟ لا شيء، لكن واحد أحضر ابن خالته للدرس، وهذا ابن خالتي أستاذ على عيني أهلاً وسهلاً بك، ومن باب التلطف: هل أعجبك الدرس؟ قال: أعجبني كثيراً، قلت له: عينك على ابن خالتك، هذا الأخ يقسم بالله، لم يترك درسًا بعدها من البشاشة فقط، لم يكلفني شيئًا، ممكن أن أسلم عليه سلامًا عاديًا وجافًا، وممكن أن لا أهتم

به، ابن خالتي خير إن شاء الله!! أما قلت له: عينك عليه، وإن شاء الله الدرس أعجبك، وبششت له بوجهه، وصافحته بحرارة؟ ممكن أن تكون هذه سبب متابعة الدروس، قال: لم أعد أغيب عن درس، هو في الحقيقة في وضع اجتماعي صعب جداً، أستاذ يصافحه بمودة وحرارة، هذه ليست قليلة!!.

أخ كان بجدة حدثني، هو مدرس، يوجد هناك فرّاشون، فبالمدرسة قرع الجرس والمدير شديد جداً، يحب أن يتوجه المدرسون للصف عند قرع الجرس، فقال هذا الأخ: صببت كأس شاي لأشربه، فإذا بالجرس قد قرع، لا يحب أن يكون عنده خطأ، رأى فراشًا فأعطاه الكأس، في اليوم التالي قال له الفراش: لماذا قدمت لي هذا الكأس؟ قال: والله أردت أن أكرمك به، قال: بقي لي هنا عامين لم يسلم علي أحد بكلمة، فلما قدم له هذا الكأس لفت نظره، هو قدمه مضطراً، قال: أنا أحمل ماجستير في العلوم من دول شرق آسيا، من الفلبين! قال: والله لم أصدقه، فدعاه للبيت، وأطلعه على موسوعة باللغة الإنكليزية بالعلوم، وابنتي في الصف الحادي عشر، عندها سؤال، قال: أجاب بطلاقة ما بعدها طلاقة، تأكدت أنه يحمل ماجستير بالعلوم، لكن من شدة الفقر ماذا عمل؟ فراشًا، قال: خلال شهر أو شهرين صار عندي كل جمعة سهرة أحضر أصدقاءه، أكثر من عشرين أسلموا على يده، قال: بسبب كأس شاي قدمتها لفرّاش!!!.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((قَالَ لِيَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

تبسمك في وجه أخيك صدقة، التواضع والبشر وطلاقة الوجه والتبسم والتفاؤل، هذه قد تنتهي بهداية الناس.

أنا ذكرت في الخطبة: أن طالبين مسلمين يدرسان في بريطانيا، يتكلمان العربية والإنكليزية، فإذا كانا بمفرديهما تكلما العربية، لهم صديق بريطاني، فإذا اقترب منهم الصديق، تكلما بالإنكليزية مرة مرتين ثلاثة، انتبه هذا الصديق فسألهم: ما السبب؟ قالوا: له نبينا -عليه الصلاة والسلام- نهانا إذا كنا ثلاثة: أن يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يؤذيه، ونحن ننفذ، فقال بما معناه: نبيكم حضاري جداً، ثم عكف على كتب الإسلام، وبعد ستة أشهر أعلن إسلامه ، وقال له كلمة: أنا ما كنت أظن أن في هذا الإسلام الذوق في التعامل، كلما جاء الصديق بدلا اللغة إلى الإنكليزية لئلا يتألم! أنت قاعد، كلنا مسلمون، وعرب يتكلمون بالإنكليزية، اثنان، والثالث ينظر إليهم، هذا احتقار للثالث، منتهى الاحتقار، ويوجد شيء أحياناً يكون فهما، تكون له لغة قوية، أحياناً يتكلمون بغير لغة، ليمنعوه من فهم ما يقولونه، يكون قد فهم لغتهم فيسقطا ، لذلك أيها الأخوة:

((لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ))

فموضوع البشاشة:

((إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٢٩-٣٢) : حفظ الفرج

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١٢-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

ثناء رباني للذين حفظوا فروجهم:

أيها الأخوة الكرام، في سلسلة دروس مكارم الأخلاق، ننتقل إلى موضوع كثر ذكره في القرآن الكريم، ألا وهو حفظ الفرج، فالله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين الفالحين بأنهم:

(لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٥]

ويصف في آية ثانية المؤمنين –أيضاً- بأنهم يحفظون فروجهم، ويأمرهم –أيضاً- فيقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

غض البصر وحفظ الفرج يحفظان المجتمع من الانهيار:

أيها الأخوة، آيات كثيرة تتحدث عن حفظ الفرج.

أولاً: حفظ الفرج يلزمه غض البصر، لأن الله سبحانه وتعالى بدأ بغض البصر، وثنى بحفظ الفرج:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية:٣٠]

طبعاً حينما يغض البصر ويحفظ الفرج، يتماسك المجتمع ويقوى، وكأن في الشريعة كلها قضيتين خطيرتين؛ كسب المال وحفظ الفرج، وإذا أردت أن تسأل عن أشد المجتمعات فساداً، ما خصائص هذا الفساد العريض؟ تفلت في العلاقة مع المرأة، وكسب للمال بغير ضوابط.

أيها الأخوة، يحفظ الفرج بالبعد عن الزنا، وما يشبهه من سفاح وبغاء وشذوذ، وما إلى ذلك ....، وقد قال الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المعارج الآية: ٢٩-٣٠]

منافذ الشريعة الإسلامية:

والحقيقة الدقيقة: أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان، إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فحينما أمر الله بحفظ الفرج شرع الزواج، وحينما أمر الله بغض البصر سمح له أن يطلق بصره فيمن تحل له، وحينما تصور الصحابة الكرام خطأ أن القرب من الله عز يستلزم الزهد في الدنيا، فقال أحدهم: أما أنا فلا أتزوج النساء، فرد عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-:

فعن أَنَس بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْه- يَقُولُ:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

مقاصد الزواج:

أيها الأخوة، الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- آراء لطيفة في هذا الموضوع، يقول: المقصد الأول للزواج: تكثير النسل -إنجاب الذرية-، والمقصد الثاني للزواج: حفظ الفرج.

أيها الأخوة، لحفظ الفرج منافع كثيرة، أولها أنه الأصل، وله شرّع أن يرزقك الله ولداً صالحاً ينفع الناس من بعدك، الزواج في أهدافه البعيدة: أن يكون لك عمل مستمر إلى يوم القيامة، والدليل: قول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

[سورة الطور الآية: ٢١]

ذريتك بأعمالها الصالحة إلى يوم القيامة في صحيفتك، معنى ذلك: أن الإنسان ينقطع عمله بالموت؛ ولكن إذا تزوج، وأنجب ولداً صالحاً، يستمر عمله في ابنه، وفي ابن ابنه، وفي ذريته إلى يوم القيامة، فهذا هو المقصد الأول، أن تزداد دوائر الحق، وتتقلص دوائر الباطل.

والمقصد الثاني: كسر الشهوة، لأن الإنسان حينما تسكن نفسه يلتفت إلى ربه، شيء ثالث من مقاصد الزواج كما يقول الإمام الغزالي: ترويح النفس، وإيناسها بالمجالسة، والنظر ولهوهما، وهذه المؤانسة تعينه على طاعة الله فيما بعد.

من مقاصد الزواج: تفريغ القلب والبدن من تدبير المنزل، وتهيئة أسباب المعيشة، تنظيف البيت، وكي الملابس وغسلها، وصنع الطعام يحتاج لصنع كبير، فلو أنك تعمل عملاً خارج البيت، وأنت

مكلف بهذه الأعمال لضاع الوقت كله، فهناك تكامل بين الرجل والمرأة، هي في البيت، وهو خارج البيت.

الزواج عن طريق رعاية المرأة، وعن طريق رعاية الأولاد يحقق أعمالا صالحة كثيرة جداً، وأنت في الدنيا من أجل العمل الصالح، بالزواج فرصة كبيرة، لأن تكون زوجاً وفياً، وأباً ناصحاً، وأخاً، ففي الزواج طرق كثيرة جداً.

ما قيل عن النكاح:

أحد الأئمة يقول: النكاح مأمور به شرعاً، وهو مستحسن وضعاً وطبعاً، لأن به بقاء النسل، وعمارة الأرض، وعبادة الله والقيام بالأحكام، هو سنة للذي يشتهيه، ولا يخاف الزنا، ولو كان فقيراً، والاشتغال به أفضل من التخلي لنوافل العبادة.

عنده زوجة وأولاد، يعمل، ويتعب، وتنجب زوجته، ويهتم بالصغير، ويأخذه للطبيب، الاشتغال بالزوجة والولد عند هذا الإمام أفضل من نوافل العبادات، هو مباح لمن لا يشتهيه، ولا يخاف على نفسه الزنا، لكن يقدم الزواج على الحج، إذا تاقت نفس الشاب للزواج يقدم على الحج، ولكن الزواج مكروه على إنسان غير مؤهل للزواج، وغير كفء له، لأن هذه التي تزوجها، أعطاها فرصة سيئة كي تكون مع زوج ليس مؤهلاً ليقودها إلى طريق الله عز وجل، منعها من زوج أكفأ منها، على كل؛ الزواج سنة الله في خلقه، والإنسان أودع الله فيه شهوة الطعام والشراب ليحافظ على وجوده، وأودع فيه شهوة النساء ليحافظ الجنس البشري على وجوده، وأودع في الإنسان شهوة التفوق ليؤكد الإنسان ذاته.

باب حق الزوج على الزوجة وما يتعلق بالحدود:

الآن: حديث لطيف جداً يؤكد للمرأة أن دينها سهل جداً: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَوْفٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

عَنِ الْمُطَّلِبِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ، أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

وفي حديث رائع جداً يقول عليه الصلاة والسلام:

((من حفظ فرجه فله الجنة))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

ليس من السهل أن ينضبط الإنسان هذا الانضباط، لأنه ما من شهوة أودعت في الإنسان متغلغلة في أعمق أعماقه كهذه الشهوة، فإذا ضبطت فهو في خير.

الحث على النكاح وما يتعلق بأهل البدع والأهواء:

وهناك أحاديث تحض على الزواج ولكن بشكل غير مباشر، فهذا الشاب الذي جاء النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، -الحقيقة لا يحتملها شيخ من الدرجة العاشرة لسيد الخلق-، وقد قام الصحابة إليه لتجرئه على سيد الخلق قال: دعوه، تعال أيها الشاب، تعال يا عبد الله: أتريده لأمك؟ تصور الشاب أمه تزني فاحمر وجهه قال: لا، قال: ولا الناس يريدونه لأمهاتهم، أتريده لأختك، لابنتك، لعمتك، لخالتك؟ فيقول هذا الشاب: دخلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- وليس شيء أحب إلي من الزنا، وخرجت من عنده وليس شيء أبغض إلي من الزنا.

أيها الأخوة الكرام، كيف أن النبي الكريم: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُقَيْلٍ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا يَقُولُ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

كذلك: عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلَّاتِ الْفِتَنِ))

أكثر شيء خطير يهلك الإنسان: شهوة البطن والفرج، مضلات الهوى: أن يكون لك أهواء تسيطر على الآخرين، هذه الشهوات الثلاث؛ تأكل لتبقى، تتزوج ليبقى النوع، تتفوق كي تؤكد ذاتك.

أحاديث مشتركة تبين آداب النفس:

والحقيقة: يوجد تعليق لطيف:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ))

أكثر شيء يدخل الناس الجنة: لو أنك تساهلت في كسب المال والعلاقة بالنساء، هذا هو الفساد بعينه من دون استثناء.

أيها الأخوة، عَنْ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((مَنْ تَوَكَّلَ لِي مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ وَمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، تَوَكَّلْتُ لَهُ بِالْجَنَّةِ))

إذا ضبط لسانه وفرجه، تكفل الله له بالجنة!

عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ:

((كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ فَلَقِيَهُ عُثْمَانُ بِمِنًى، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَخَلَوَا، فَقَالَ عُثْمَانُ: هَلْ لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي أَنْ نُزَوِّجَكَ بِكْرًا تُذَكِّرُكَ مَا كُنْتَ تَعْهَدُ؟ فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ اللَّهِ أَنْ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى هَذَا أَشَارَ إِلَيَّ، فَقَالَ: يَا عَلْقَمَةُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: أَمَا لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، لَقَدْ قَالَ لَنَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))

أي حصن له.

لطيفة نبوية فيما يتعلق بصوم الأيام البيض:

قبل يومين قدم لي أخ ورقتين فيهما موضوعًا علميًّا، أنا ذكرته في كتابي سابقاً، ولكن جاء بتفصيلات لطيفة قال: عالم كبير مسلم في بلاد بعيدة في ميامي بأمريكا، أجرى دراسة مستفيضة عن ضبوطات مراكز الشرطة هناك، جاء بهذه الضبوط، وبتواريخها، وقلب التواريخ من التواريخ الميلادية إلى التواريخ الهجرية، فالمفاجأة كانت أنه في أيام الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر تزداد النسبة ستين بالمئة؛ السرقة، الاغتصاب، القتل، الانتحار، المشاجرات، الضرب، الأعمال الناتجة عن انفعال شديد، هذه دراسة رائعة أجراها في بلاد بعيدة، ووجد أن الإنسان في هذه الأيام الثلاثة يشتد غضبه، ويشتد عنفه، يبدو بالتحليل أن القمر يكون في هذه الأيام الثلاثة بدراً، وأن القمر له جاذبية في هذه الأيام تفوق جاذبيته في أيام أخرى، أوضح شيء المد والجذر، يرتفع البحر عشرين متراً في هذه الأيام، هناك دراسات تؤكد أن البر يرتفع ميليمترات في هذه الأيام، فالقمر يجذب الماء واليابسة، والإنسان فيه ثمانون بالمائة ماء، والماء الذي في جسم الإنسان يضطرب في هذه الأيام، فحينما أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- الصوم في هذه الأيام الثلاثة خفض من مائه، كف عن شرب الماء، نسب الماء قلت، والاضطراب قل.

والشيء اللطيف: الحديث الذي يأمر بالصيام ثلاثة أيام من كل شهر يتبعه النبي فيقول:

((فإنهن يذهبن بوحر الصدر))

كالاضطراب، والحقد، الغضب الشديد، الميل للعنف، هكذا علمنا النبي عليه الصلاة والسلام.

ويجب أن نتأكد أن قول النبي: لا علاقة له لا بثقافته، ولا بمعطيات البيئة، ولا بخبرته، ولا بمعلومات تلقاها عن غيره:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية: ٤]

والحقيقة: أن الله سبحانه وتعالى وحده هو الخبير:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر الآية: ١٤]

((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ -الباءة هي القدرة على الزواج مالياً وجس- وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))

أي وقاية.

يوجد حديث شريف آخر: عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ قَالَ:

((قَالَ جَابِرٌ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: إِذَا أَحَدُكُمْ أَعْجَبَتْهُ الْمَرْأَةُ فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ، فَلْيَعْمِدْ إِلَى امْرَأَتِهِ فَلْيُوَاقِعْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هناك كبير بين النساء والشيطان، أحياناً يبالغ بإلقاء الإعجاب لمن لا تحل للإنسان، ويبالغ بتزهيد الإنسان لمن تحل له، وهذا مرض يزهده بمن تحل له، ويرغبه بمن لا تحل له، وهذا من فعل الشيطان، لأن الشيطان دأبه أن يفرق بين المرء وزوجه، لذلك: النساء سواء، هكذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام.

اتق الله يا أمة الله ولا تتبرجي بمفاتنك لتفسدي الشباب:

أذكر أن أخاً كريماً حدثني عن ندوة رآها في فضائية إسلامية: أن شاباً قتل أكثر من عشر فتيات قاصرات، بعد اغتصابهن أودع في السجن.

باحثة اجتماعية استأذنت النائب العام أن تلتقي به، وكان هذا اللقاء في هذه الفضائية، شيء لا يصدق، هذا الشاب جاهل جهل مطبق، الدليل: أن الباحثة سألته: هل تقرأ وتكتب؟ قالت له: هل تقرأ القرآن؟ طبعاً لا! ألم تحفظ منه شيئاً غيباً؟ قال: لا! قالت: هل تنطق بالشهادة؟ قال لها: وما الشهادة؟ قالت له: لا إله إلا الله كلمة كلمة.

الذي رأى هذه الندوة، يؤكد أنه حتى أتقن لفظ لا إله إلا الله، مر دقائق، ملخص الكلام: إنه جاهل جهلاً لا يوصف، ثم جاء السؤال المتعلق بموضوع الندوة: لم اغتصبت هؤلاء الفتيات وقتلتهن؟ بماذا أجاب؟ قال: السبب من ثيابهن، فلما سألته الباحثة: لو أنك رأيت فتاة محجبة ماذا تفعل؟ قال هذا الجاهل المجرم: والله الذي يتكلم معها كلمة أقتله!.

أنا لا أرى إنسانا أجهل من هذا الإنسان، ومع ذلك نطق بالحكمة! السبب: هذا التفلت الذي في ثياب المرأة، حينما تبرز المرأة مفاتنها في الطريق تقوم الدنيا ولا تقعد، كأنها تلقي بالقنابل في الطريق!

لأن الشاب بينه وبين الزواج سنوات وسنوات، وقد تزيد عن عشرين عاما، هي تبرز كل ما عندها من فتنة أكرمها الله بها كي تكون مؤنسة لزوجها، خرجت عن منهج الله عز وجل، لذلك قال: أما المحجبة لو أن أحداً كلمها كلمة لقتلته، لكن هذا العمل بسبب ثياب الفتيات الفاضحات.

المرأة تتحرش بالرجل حين تلبس ثيابا فاضحة:

وجدت مصطلح جديد رائع: كيف يتحرش الرجل بالمرأة؟ يسمعها بعض الكلمات، كما أن هناك تحرشاً من الرجل بالمرأة، هناك تحرش من المرأة بالرجل، لكن لا بالكلام، بل بالثياب فقط، ثياب المرأة الفاضحة تعد تحرشاً بالرجل، لذلك ثياب المرأة متعلقة بدينها، كل سنتيمتر من ثيابها، وبالتعبير الديناميكي: كل سماكة ثيابها، وكل اتساع أو تضييق في ثيابها متعلق بدينها، تفصيل الثوب واسع أم ضيق، وسماكة الثوب سميك أم رقيق، ومساحة الثوب ضاف أو منحسر المساحة، والسماكة، والتفصيل متعلق بدينها، وهذا الثوب الذي ترتديه المرأة، وهو سابغ، وثخين، وواسع، وبلون لا يلفت النظر هو جزء من دينها، بل إن سلوك المرأة المؤمنة الشريفة التي تخاف الله عز وجل أنا أعده عبادة هذا العصر.

إن سألت أخت كريمة عن عبادة خاصة بالنساء أقول لها: التستر هو العبادة الأولى للمرأة، هذه العبادة يمكن أن تسمى إعفاف الشباب، عبادة إعفاف الشباب.

الثمار التي نجنيها من غض البصر وحفظ الفرج:

من فوائد غض البصر: الفلاح والفوز برضوان الله تعالى، ومن فوائد حفظ الفرج: حفظ النسل، وطهارة الإنجاب، وبه ينشأ المجتمع النقي من الدنس، وأدران الزنا، ويحفظ القلوب من التعلق بالمحرمات، ويحفظ المسلمين من أن يسري فيهم داء الزنا، وما يتبعه من أوبئة، ويحفظ الصحة العامة من عاديات الأمراض الفتاكة كالزهر والإيدز، ويمنع المفاسد، ويطهر الذمم، ويؤلف القلوب، وينشر الأمن، ويحفظ الأعراض بين أفراد المجتمع.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٤ هـ - مكارم الأخلاق - الدرس (٣٠-٣٢) : حق الجار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-١٢-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إن لم تنشأ لجارك حق عليك فقد تدابرته:

أيها الأخوة الكرام، في سلسلة دروس مكارم الأخلاق، ننتقل إلى موضوع هو: حق الجار، حق الجار ينطلق من تعريف الجار، حد الجوار من سمع النداء فهو جار، مؤذن أذن، أين ينتهي صوت المؤذن بالمكبر فهو من جيرانك، يوجد أربعون بيتًا، أو بناء يميناً، وأربعون يساراً وشمالاً وجنوباً، وإذا كنا في بناء ناطحات السحاب، أربعون بناء نحو الأعلى، وإذا كنا في بلد في أقبية كثيرة، فنقول: وأربعون تحت الأرض، أربعون بيت بكل جهة، هذا بعض مصطلحات الجار، من سمع النداء فهو جار.

وقيل: من صلى معك الصبح فهو جار.

لو كان ساكن بمساكن برزة جار، ما دام صلى معك صلاة الفجر فهو جار، وفي رأي ثالث، هذا عن عائشة -رضي الله عنها- قالت:

حق الجوار أربعون داراً من كل جانب.

لكن: لو لك جار مسلم له عليك حقان؛ حق الجار وحق الإسلام، لك جار مسلم قريب له عليك حقوق ثلاثة؛ حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة، طبعاً الآيات الكريمة:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

يوجد جار قريب نسباً، وجار قريب مكاناً، وجار قريب في العمل، وهو الزميل.

عَنْ سُرَيْجٍ وَلَهُ صُحْبَةٌ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ، قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ؟ قَالَ: يَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ))

من علامة قربك من الله: أن من حولك يحبونك، ومن علامة بعدك عن الله: أن من حولك يبغضونك.

قال: إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف.

السلف الصالح كان فيه عادة في البلدة الطيبة اسمها: السكبة، كل جار يقدم صحنًا من طعامه إلى جاره تنشأ مودة، وأحياناً نوع من الانفراج، وأنا سمعت ببعض أحياء دمشق القديمة، إذا لمح الجيران أن جارهم معه ضيف، يأتي إلى هذا البيت بعشرات من الصحون، الضيف يذهل، أين هذا الطعام؟ متى صنع هذا؟ لمح الجيران أن جارهم معه ضيف، كانت العلاقات متينة جداً.

مرة أردت أن أزور زميل لي قديماً في التدريس، دلني على بناء في ركن الدين، صعدت إلى البناء، لم أعرف البيت، طرقت الباب، سألت عن الأستاذ فلان، وساكن في البناء من أربع سنوات، قال: لم نعرفه، فلما عاتبته قال: أنا أسكن فوق هؤلاء، طابق واحد بينهما، هذا من التدابر.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قدسية الجار في الإسلام:

دققوا في هذا الكلام: عن المِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَقُولُ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَصْحَابِهِ: مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟ قَالُوا: حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَصْحَابِهِ: لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ، قَالَ: فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟ قَالُوا: حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ))

حرمة الجار كأن الذنب يضاعف أضعافاً كثيرة، وهذا الجار الذي خان جاره في امرأته فأكله الكلب، فبلغ ذلك النبي -عليه الصلاة والسلام-، فقال: خان صاحبه، والكلب قتله، والكلب خير منه. وعنترة قال:

أغض طرفي إن بدت لي جارتي ....

يقول عليه الصلاة والسلام مستعيذاً من جار السوء ....

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَارِ السَّوْءِ فِي دَارِ الْمُقَامِ، فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ عَنْكَ))

جار البادية مؤقت، أما جار البناء ثابت، لذلك: كم من جار يرخص البيوت التي حوله بسوء معاملته؟ وكم من جار يرفع أسعار البيوت التي حوله من طيب معاملته؟.

ويروى: أن الأمير عبد القادر الجزائري -رحمه الله تعالى- بطل الجزائر كان مدفونًا في دمشق، وقد اختار أن يقيم في دمشق، له جار أراد أن يبيع بيته، عرضه للبيع، فدفع له مبلغًا قليلا، فغضب، وقال: والله لا أبيع جيرة الأمير بثلاثمائة ليرة ذهبية، بلغ الأمير هذا الكلام فاستدعاه، وقال له: هذه الثلاثمائة ليرة ذهبية خذها، وابق جارنا!.

الجار مقدس، بل عن التضامن الاجتماعي أساسه: علاقات النسب، وعلاقات الجوار، إذا في الإسلام تضامن اجتماعي أساسه: علاقات النسب.

باب حفظ الجار والنهي عن إيذائه:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

وفي حديث آخر:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم))

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيِ اللَّه عَنْهَا-، عَن النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما]

من سعادة المرء الجار الصالح، والمركب الهنيء، والمسكن الواسع، أحد أكبر أسباب السعادة الجار الصالح.

لنا أخ -جزاه الله خير- أقام عدة أبنية، فله طبع في بيع البيوت عجيب، لا يبيع البيوت إلا لمن حسنت سيرته، فتجد سكان البناء على مودة ما بعدها مودة، لأنه ما باع إلا ما صلح بين الناس، وكأنه يخطب ابنته، يسأل عنه؛ عن أخلاقه، عن صلاته، عن دينه، فإن ثبت له أنه صالح باعه البيت.

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ:

((سَمِعَتْ أُذُنَايَ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتَهُ قَالَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ، فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))

كأن النبي -عليه الصلاة والسلام- ربط إكرام الجار بالإيمان، أنت مؤمن يمكنك أن تكرم جارك في دعاء:

اللهم إني أعوذ بك من جار السوء؛ إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء؛ إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر.

أيها الأخوة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

خمس صلوات، والضحى، والأوابين، والزكاة، ومثلها صدقة، كلام الصادق المصدوق، كلام سيد الخلق في النار، تكثر من صلاتها وصيامها، لكنها تؤذي جيرانها، قال:

((هي في النار، وذكرت عنده امرأة أخرى قيل: مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

هل هناك كلام أبلغ من هذا الكلام؟.

((يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ))

تقل من صلاتها الفرض فقط المفروضات، وصدقتها الزكاة، وصيامها رمضان، غير أنها تحسن لجيرانها، قال:

((هي في الجنة))

لذلك: الدين المعاملة.

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّه عَنْهَا- قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا))

يوجد جار أقرب إليك باباً، وجار أقرب إليك نسباً، وجار أقرب إليك إيماناً، فلذلك القاعدة: الأقربون أولى بالمعروف.

عندك ثلاثة محاور؛ محور النسب، محور الفقر، محور الإيمان.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ ذَبَحَ شَاةً فَقَالَ:

((أَهْدَيْتُمْ لِجَارِي الْيَهُودِيِّ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ))

الجار في المعنى الدقيق العام: قبل أن تعرف ما إذا كان مسلماً أو غير مسلم، إذا مسلم له عليك حقان، وإذا كان قريباً له عليك ثلاثة حقوق، لكن أي جار ولو كان غير مسلم له حق عليك، فهذا الجار كن يهودي.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِي اللَّه عَنْه-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ))

لو قدمت عظماً عليه بعض اللحم، تنمي المودة بين الجارين، الهدية بين الجوار رائعة جداً. طبعاً الحديث:

((أتدرون ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا افتقدته عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات تبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب الريح عنه إلا بإذنه، ولا تؤذيه بريح قتار قدرك))

يوجد أكلات لها رائحة نفاذة وشهية كشي اللحم، يجب أن يكون الأكل النفيس الذي له رائحة يجب أن تقدم منه شيئاً، أو أن تسعى جهدك كي لا تنتقل الرائحة لبيت آخر، هذا من السنة، أو تبعث له منها، وإذا اشتريت فاكهة فأهدي له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ما هذه الآداب؟.

لن تعرف البشرية قيمة الحضارة إلا إذا ازدهرت بأخلاقها:

الإسلام يجعل المجتمع كتلة واحدة، من باب التفاؤل تنتهي إلي قصص عن جيران مؤمنين لهم مع بعضهم أعمال بطولية.

في بناء في هذه المنطقة عجيب أمره، بناء مؤلف من طوابق كثيرة جداً، وكل طابق أربع شقق، هؤلاء الجيران جميعاً لهم جلسة كل اثنين، يستضيفون أحد العلماء، كل اثنين لهم جلسة مع عالم من علماء دمشق، هيئوا للبناء في أيام أزمات الكهرباء مولدة، وحديقة لأطفالهم، وفي الطابق الأرضي دار لاستقبال الضيوف جميعاً ، وإقامة الولائم، والحفلات، وألعاب لأطفالهم.

جعلت من هذا البناء نموذج، كأنه بعيد عن مشكلات المدينة؛ مولدة خاصة، وحديقة للأطفال، وألعاب، وصالة استقبال للأفراح والأتراح، والولائم تواصل أسبوعي، حتى إنهم كانوا يحضرون جميعاً خطبة واحدة في جامع واحد، وهم على تباين في ثقافاتهم، ومشاربهم، واختصاصاتهم، لكنهم جميعاً من الطبقة الأخلاقية، فإذا كان للإنسان جار رائع، تصبح الحياة جنة.

حدثني أخ قال: والله بمنطقة يسكنها أناس مؤمنون، مستحيل أن امرأة خرجت إلى الشرفة أن يوجد رجل في شرفة ينسحبون أو بالعكس، هذا الجار أراد أن يبقى في الشرفة، لا يبقى رجل واقف في هذه الشرفة المقابلة، هكذا الإسلام.

أخواننا الكرام، حياتنا فيها متاعب، لكن بالمحبة تغدو جنة ومريحة، العبرة أن تكون مع من يحبك، ويقدرك، ويرعى مشاعرك، ومع من يأخذ بيدك، ومع من ينهض معك عند الشدة.

((مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ))

فأسأل الله أن نكون جميعاً في هذا المستوى الرفيع:

إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم.

أحياناً إنسان يبالغ في إيذاء جاره، لا يحلو له إلا أن ينظف شرفته ونوافذه بالماء الغزير، وهذا الماء ينزل على جاره في الطابق الأرضي، وعلى غسيله الأبيض، وعلى فسحته التي رتبها، ونظمها، ولا يعبأ بجاره.

الحضارة ليست باستعمال الهاتف الخلوي، ولا بالدخول على الإنترنت، ولا بركوب سيارة فارهة، الحضارة في هذه الأخلاق، وما عرف البشر حضارة أخلاقية أرقى من هذه الأخلاق.

كم إنسان يعطي ابنه للمدرسة قطعة حلويات غالية جداً، هو في بحبوحة، يوجد قطع ثمنها ثمانون ليرة، يجب أن تعطي ابنك الشيء الطبيعي المقبول الذي يستطيعه كل الناس، أما إن أردت أن تطعمه إطعاماً نفيساً، أطعمه في البيت، يجب أن تراعي حق الجار.

مرة كنت راكباً في سفر، الذي إلى جانبي لم يترك شيئًا إلا وأكله من فستق حلبي، موز، .....، وجانبه امرأة معها طفل، لم أجد رجل أقل ذوقاً منه، أطعم هذا الطفل، لأنه يشتهي، فيوجد إنسان عديم الذوق، وإنسان يلاحظ ملاحظة كبيرة جداً.

قال لي أخ: والله ما دخل بيتي طعام، إلا وأضفت منه كمية كبيرة، من جاء بهذا الطعام فقد يشتهيه.

هناك إنسان فضّاح، لو أن الجار اختلف مع زوجته ليلاً وتشاجروا، لا يترك إنسانًا إلا ويقول له: البارحة وصلوا للشيطان الرجيم! أنت لا تقدر أن تسكت!!؟ هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل، لذلك: النبي الكريم كان عالماً، وخطيباً، وقائداً، وزعيماً، ومفتياً، ومجتهداً، وكان، وكان، و.... كان قمة البشر، فلما أراد الله أن يمدحه قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم الآية: ٤]

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يملك صفة الصفح إلا أولو العزم من الرجال فلتكن في موضعها:

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في مكارم الأخلاق، واليوم موضوع الدرس: الصفح، فالصفح: الإعراض عن الذنب والتجاوز عنه، وهو أبلغ من العفو، العفو ألا تعاقب على الذنب، أما الصفح ألا يبقى في نفسك شيء تجاه المذنب، وأن تعطيه صفاحة وجهك المشرق، وأن تشعره أن هذا الذنب كأنه لم يكن، وهذا من أرقى مكارم الأخلاق.

الإنسان قد يعفو ولا يصفح، لكن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه الكريم فقال:

(فاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[سورة الحجر الآية: ٨٥]

وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وأنت حينما تصفح، تشعر أنك قريب من الله، وأنك أكبر من أية مشكلة في الأرض.

يقول بعض الشعراء:

حر ومذهب كل حر مذهب ما كنت بالغاوي ولا المتعصب

يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى حب الأذية من طباع العقرب

لي أن أرد مساءة بمساءة لو أنني أرقى ببرق الخلّد

حسب المسيء شعوره ومقاله في سره يا ليتني لم أذنب

أيها الأخوة، الإمام القرطبي يقول: الصفح إزالة أثر الذنب من النفس.

وهذا كلام دقيق، ينبغي أن يزول أثر ذنب من أذنب معك من نفسك، وينبغي أن تزيل أثر المذنب من نفسك، ينبغي أن تشعره أن هذا الذي وقع كأنه لم يقع، وينبغي أن توحد.

أيها الأخوة، ذكرت قبل حين أن الله عز وجل يقول:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

[سورة لقمان الآية: ١٧]

ينبغي أن تصبر.

لكن في آية أخرى يقول:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

[سورة الشورى الآية: ٤٣]

الحقيقة: أن قضاء الله وقدره قد يأتي من الله مباشرة، أب وقف ابنه على الشرفة، فوقع فنزل ميتاً، هذا قضاء من الله وقدره، لكنه أتى من الله مباشرة من دون تدخل إنسان، وأحياناً إنسان يركب مركبة يدهس ولداً، الوالد أمامه إنسان، كان السبب في قتل ابنه، وطبيعة البشر الشركية: قبل أن يعرف الله، يصب جام غضبه على هذا الذي كان هذا القدر على يديه، لذلك: ضعيف التوحيد يحقد، ويحقد أشد الحقد، وقد يحمله حقده على ارتكاب جريمة، ولكن المؤمن الموحد لا يحقد، لكنه يقف الموقف الكامل، لأن الله عز وجل يقول:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى الآية: ٣٩]

من دون حقد، من دون أن تشعر أن هذا الإنسان هو السبب الوحيد فيما جرى، هو السبب المباشر، لكن السبب الوحيد هو أن الله أراد الذي جرى، ف:

كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

فالإمام القرطبي يقول: الصفح إزالة أثر الذنب من النفس.

من نفس المذنب، ومن نفس من أذنبت معه، يعني أعطاه صفحة الوجه المشرقة ابتسامة، لكن لو أن إيقاع العقوبة لهذا المسرع في مركبته الطائش، الذي لا يبالي بأرواح الآخرين، هذا يحتاج إلى عقوبة، أكمل شيء معه أن تعاقبه لتردعه، أما أحياناً إنسان يكون متقيدًا بقوانين السير، ويقفز طفلاً أمامه، ولا ذنب له، لكن القانون يوقع به أشد العقاب، فإذا أيقنت أنه لا ذنب له إطلاقاً، والخطأ من خطأ ابنك، فطمأنته، وصفحت عنه، وابتسمت له، فهذا من كمال الإنسان، وقد يكون الصفح أحياناً سبب هداية الإنسان.

أبو حنيفة النعمان له جار أقلقه إقلاقاً شديداً، لا يسمح له أن ينام الليل، لأنه مغنٍّ وشارب الخمر، يسكر ويغني، ومعه عود يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا؟

مرة استيقظ على صلاة الفجر فلم يسمع صوت المغني، تفقده فإذا هو في السجن، فذهب إلى صاحب الشرطة، وطلب منه إطلاق سراحه، قال: إنه شارب خمر، قال: أطلقه من أجلي، فأطلقه، أركبه على برذونه، ولما وصل للبيت قال له: يا فتى هل أضعتك؟ فبكى الفتى وقال: عهداً لله ألا أعود إلى ذلك، وكانت توبته على يدي أبي حنيفة.

صفح عنه، يوجد إنسان تصفح عنه، فيحتقرك، ويراك ضعيفاً، وإنسان تصفح عنه، فيعظمك. واحد هجا النبي -عليه الصلاة والسلام-، وبالغ في إيذاء أصحابه، وقد قتل بعضهم، وقع في يد

النبي أسيراً، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- رقّ له، استعطفه، عنده بنات، عنده كذا، فعفا عنه، عاد لما كان عليه من إيذاء النبي وهجائه، ومن التنكيل بأصحابه، وقع في الأسر ثانية، فعاد لاستعطاف النبي، فقال:

((لن أعفو عنك لئلا تقول: خدعت محمداً مرتين))

أحياناً: إيقاع العقاب الصارم هو عين الحكمة.

هذا أرطون الذي احتل قلعة الكرك، وقطع الطريق على الحجاج المسلمين، وقتل الرجال، وسبى النساء، وقال لهم: نادوا محمداً لينتصر لكم، بلغ هذا صلاح الدين الأيوبي، فبكى بكاء شديداً، وقال: أنا أنوب عن محمد -صلى الله عليه وسلم- في نصرة أمتي، ولم يهدأ له بال، ولم تقر له عين حتى كانت موقعة حطين، وانتصر فيها على ملوك أوروبا وأمرائها، ووقع أرطون أسيراً بيده، وذكره بمقولته، وذكر له ما قال عقب مقولته، وقتله بيده.

في محلات العفو سذاجة وضعف، لكن المؤمن حكيم، قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٩]

في إنسان تعفو عنه فتملك قلبه، وإنسان تعفو عنه فيعيد الكرة كما كانت، ويستضعفك.

لذلك: حينما مشى بعض الصحابة متبختراً أمام الجيش، قال له عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يكره هذه المشية إلا في هذا الموقف))

فالتكبر على المتكبر صدقة.

والإنسان حينما لا يتكلم إلا بالحق يعلو شأنه بين الناس، أما إذا تكلم حقاً وباطلاً يسقط من عين الناس:

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

لأنه إذا مدح الفاسق اضطربت القيم.

قال المنصور لأبي حنيفة: يا أبا حنيفة لو تغشيتنا، قال: ولِمَ أتغشاكم وليس عندكم شيء أخاف عليه، وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟ إنك إن أكرمتني فتنتني –المنصور-، وإن أبعدتني أزريت بي.

قيل للحسن البصري: بم نلت هذا المقام؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

الآن عكست، من يعمل في الحقل الديني مستغن عن علمه، لكنه بحاجة إلى ما عند الناس، يجب أن تتعفف عما عند الناس، وأن يحتاج الناس إلى علمك.

توجيه قرآني يحض فيه المؤمنين على أن يلتزموا بخلق الصفح:

الله عز وجل قال:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا

-ألا يوقعوا العقاب-:

وَلْيَصْفَحُوا)

[سورة النور الآية: ٢٢]

أن يزيلوا أثر الذنب من نفس المذنب، وأن يزول أثر الذنب من نفس من أذنب معه المذنب:

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التغابن الآية: ١٤]

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

[سورة البقرة الآية: ١٠٩]

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة المائدة الآية: ١٣]

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[سورة الحجر الآية: ٨٥]

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ)

[سورة الزخرف الآية: ٨٩]

يوجد آيات كثيرة.

فضل الصفح:

عَنْ عَائِشَةَ سُئِلَتْ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ:

((لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا صَخَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ))

أحياناً إنسان لا ينادى بلقبه العلمي، يقيم الدنيا ولا يقعدها.

النبي في الطائف -عليه الصلاة والسلام- بالغ أهل الطائف في الأذية به؛ فمن شتم، إلى استهزاء، إلى تكذيب، إلى أذى، ولما جاءه جبريل، وهو طوع إرادته، قال: لا يا أخي، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ))

إن لم تنطق، ولم تعمل ما جاءك من خواطر في النفس، فأنت لا تحاسب عليها، ولكن هذه الخواطر إن لم تردها، ربما انقلبت إلى أعمال، لكن الحقيقة: أن الإنسان لا يحاسب لا على خواطره، ولا عن ما في نفسه، بل عن كلامه وأفعاله.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

رجل كان يداني الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال: فلقيا الله فتجاوز عنه.

أيها الأخوة، يقول النبيُّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود))

إنسان له مكانة ذلت قدمه، تقتضي المروءة والشرف أن تعفو عنه، وألا تشيع هذا الذي صدر منه، هؤلاء الذين لهم مكانة في مجتمعهم:

لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، ولكل حسام نبوة.

فالنبي -عليه الصلاة والسلام- يقول:

((أقيلوا عثرات المحسنين))

هذا من توجيه النبي عليه الصلاة والسلام.

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيِ اللَّهم عَنْهَا- قَالَتْ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

بالمناسبة: المسلم غير مكلف أن يرفع إلى الإمام معصية تستوجب حداً، ما لم يكلف من قبل الإمام، أما تطوعاً فغير مكلف، والذي وقع في معصية تستوجب الحد، أيضاً غير مكلف أن يفضح نفسه، لا مرتكب المعصية مكلف أن يفضح نفسه، ولا من رآها مكلف أن ينقل لولي أمر المسلمين هذا الخبر، لكن ولي أمر المسلمين إذا عين إنسان لتقصي هذه المخالفات، ووقعت تحت علم المكلف بتقصي هذه المخالفات، فلم يرفعه إلى الأمير وعفا عنه مباشرة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا عفا الله عنه))

يوجد نظام، هذا مكلف أن يتبع تلك المخالفات، أما غير إنسان غير مكلف.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا، أَقَالَهُ اللَّهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه]

ومضات من سير الصالحين:

لي صديق توفي -رحمه الله-، يقيم في لبنان، مرة كان في الشام، ومركبته ارتكبت حادثًا مع مركبة ثانية، وصاحب المركبة الثانية سائق على خط دمشق بيروت، والمركبة تضررت، وأنا كنت معه، نزل السائق، عجيب على خلاف المتوقع، ما زاد أن قال: اذهب سامحك الله، وهذا الذي ارتكب الحادث ميسور، ليس فقيراً، رأيت دمعة انحدرت على خده، لم أفهم ماذا جرى؟ إنسان ليس فقيراً لكي يقول: نجوت من ألفي ليرة، وهذا الذي تضررت مركبته ما الذي فعله؟ لم يفعل شيئاً، ولم يطلب درهماً، ولم يقل كلمة، قال: سامحك الله، وهذا الصديق رأيت على خده دمعة، سألته: فلم بكيت؟ قال: والله قبل سنتين كنت في بيروت، وسيارة من دمشق فيها نساء محجبات، ضربت مركبتي، أردت ألا أفسد عليهم نزهتهم، فقلت للسائق: سامحك الله انطلق، فتذكر أن هذا العمل الذي فعله في بيروت لم ينس عند الله عز وجل، لذلك: ورد في بعض الأحاديث:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ، إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

حدثني أخ، أنه أنقذ قطة كادت تدهس، فإذا بابنه بعد الانصراف من المدرسة اندفع نحو الطرف الآخر من الشارع، وكاد يدهس، فإذا بإنسان ينطلق من محل تجاري، ويمسك به ، وينقذه مما جرى، يوجد عدل بالكون، إذا كنت محسناً، توقع أن الله لن يسلمك لعدو.

تروي كتب العلم: أن يوسف -عليه السلام- قال لأخوته لما حضرته الوفاة: يا أخوتي، إنني لم أنتصف من مظلمة ظلمتها في الدنيا، -صار عزيز مصر، وكان بإمكانه أن ينتقم أشد الانتقام، وترون كيف ينتقمون الآن؟ كيف ينتقم الإنسان الجاهل أشد الانتقام؟-، وإني كنت أظهر الحسنة، وأدفن السيئة، -وهناك أناس يظهرون السيئة ويدفنون الحسنة-، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، -إن أحسنت لن يقبل، وإن أسأت لن يغفر-، فذلك زادي من الدنيا يا أخوتي، إني شاركت آبائي في صالح أعمالهم، فأشركوني في قبورهم.

أي اجعلوني في قبر الصالحين.

سيدنا معاوية جاءه كتاب من مواطن يقول له: أما بعد فيا معاوية، -لا يا أمير المؤمنين ولا شيء من هذا القبيل-، إن رجالك قد دخلوا أرضي فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن والسلام!.

معاوية أمير المؤمنين يحكم ثلث الأرض، إلى جانبه ابنه يزيد قال: يا يزيد ما ترى أن نفعل ؟ فلما قرأ الكتاب اضطرب! وغلا الدم في عروقه، قال: يا أبت أرى أن ترسل له جيش أوله عنده، وآخره عندك يأتوك برأسه، -مواطن عادي يتجرأ على مقام الخلافة بهذا الكلام القاسي؟-، فقال معاوية: لا يا ولدي، غير ذلك أفضل، فطلب كاتبه، وقال: اكتب: من أمير المؤمنين إلى ولد حواري رسول الله عبد الله بن الزبير، لقد ساءني ما ساءك، والدنيا كلها هينة جنب رضاك، لقد نزلت لك عن الأرض وما فيها، يأتي الجواب: أما بعد فيا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك، ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا المحل، فاستدعى ابنه يزيد، وقال له: اقرأ، قال: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب.

دائماً الصفوح كبير، والمنتقم صغير حقير، لا تنتقم.

يوجد أشخاص نكلوا بأصحاب رسول الله، هذا ثمامة وقع أسيراً فقال: ما وراءك يا ثمامة؟ قال: إن تقتل تقتلْ ذا دم، وإن تعفُ تعف عن شاكر، وإن تريد المال أعطيتك منه ما تريد، هو سيد بني حنيفة، زعيم قبيلة كبيرة، تركه النبي، أرسل له طعاماً من بيته، سأله ثانية فأجاب كما أجاب، سأله ثالثة فأجاب كما أجاب، قال: أطلقوا سراحه، فذهب، وتوضأ، واغتسل، وعاد إلى النبي، وأعلن إسلامه، وقال: يا رسول الله، ما كان على وجه الأرض رجل أبغض إلي منك، والآن ما على وجه الأرض إنسان أحب إلي منك، وما على وجه الأرض دين أبغض إلي من دينك، والآن: ما على وجه الأرض دين أحب إلي من دينك، هذا العفو والصفح، لكن قالوا:

العفو عند المقدرة.

إنسان سحقك تقول: أنا عفوت عنه، أنت لست بقادر عليه، هذا كلام خطأ.

العفو عند المقدرة.

صدقوا أيها الأخوة: قريش نكلت برسول الله وبأصحابه عشرين عاماً، ثم فتحت مكة، ومع النبي عشرة آلاف سيف متوهجة، والله لو قال: أبيدوهم لأبادوهم، قال:

((ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء))

النبوة قمة الخلق، ولا يوجد مؤمن إلا على خلق، الإيمان خلق، عفو، وصفح، وتواضع ، وسخاء، وإنصاف، ورحمة، لا شيء يظهر حقيقة المؤمن كمكارم الأخلاق التي يعيش بها ، لذلك في الإيمان مرتبة عليمة، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، المؤمن أخلاقي، أما معنى:

(فاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[سورة الحجر الآية: ٨٥]

قال: الرضا بغير عتاب.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-٠١-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه:

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في مكارم الأخلاق، واليوم موضوع الدرس الرفق، وهو لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالسهل، وهو ضد العنف، والنبي الكريم يقول:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف))

واحد قال لأمير: سأعظك، وأغلظ عليك قال: ولمَ الغلظة يا أخي، لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، قال له:

(فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى)

هذا القول لمن قال: أنا ربكم الأعلى، ولمن قال: ما علمت لكم من إله غيري، مع كل هذا: قولا له قولاً ليناً، هذه أخلاق الدعوة، أما الغلظة في الحرب.

لذلك: هناك أخلاق الدعوة، وأخلاق الجهاد في الجهاد:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة الآية: ٧٣]

أما في الدعوة:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت الآية: ٣٤]

آية الرفق:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

أنت لين لرحمة أودعت في قلبك بسبب اتصالك بالله.

وصدق أيها الأخ، ما من مؤمن يتصل بالله اتصالاً حقيقياً، إلا ويمتلئ قلبه رحمة، والرحمة تنعكس ليناً، القضية قانون فيزيائي، تتصل فيمتلئ القلب رحمة تنعكس ليناً، تنقطع يفرغ القلب من الرحمة، بل يمتلئ قسوة فتنعكس غلظة، يوجد إنسان فيه غلظة، وقسوة، وجفاء، وعنف، لأن قلبه امتلأ قسوة من بعده عن الله، والدليل:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾

[سورة الزمر الآية: ٢٢]

أبعد قلب عن الله القلب القاسي، وهي علاقة ترابطية، تبتعد عن الله فيقسو قلبك، ويقسو قلبك فتبتعد عن الله.

ما جاء في الرفق:

عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ، أَتَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِي، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا رَأَى شَوْقَنَا إِلَى أَهَالِينَا، قَالَ:

((ارْجِعُوا فَكُونُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ وَصَلُّوا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ))

إنسان اشتاق لأهله، النبي الكريم رفيق ولطيف.

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود في سننه]

كن رفيقاً، ويدعو النبي.

فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ قَالَ:

((أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَتْ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَ: مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا، إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ، وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ، فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي، أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هذا الكلام لأصحاب المناصب، ولمن يعمل في الضرائب والجمارك، ولمن له منصب حساس، وبإمكانه أن يوقع الأذى بالمسلمين، فإذا رفق بهم، ورحمهم، وقبل عذرهم، يرحمه الله يوم القيامة.
أخ توفي -رحمه الله-، دخل بيتي مرة، وسألني: كم تقدر عمري؟ نظرت إليه فقدرته في الستين، نظرت إليه قلت له: ستون؟! قال: لا ست وسبعون! أقسم بالله أنه يشعر بنشاط الشباب، وقال لي بالحرف الواحد: بإمكاني أن أهد هذا الجدار! ماذا تعمل يا أخي؟ قال: أعمل في الجمارك أربعين سنة، أقسم بالله العظيم أنه ما ضر إنساناً، ولا أكل درهماً حراماً، -وأنا أصدقه، سمعته عالية جداً-.

مرة أصابه المهربون برصاصات في صدره، وكاد يموت من نزف الدم، وناجى ربه، وقال: يا رب إن أوقعت الأذى بعبد من عبيدك طوال عمري فأمتني، وإلا فأنقذني، وأنقذه الله عز وجل.

هذا كلام موجه لمن بيده فرض ضريبة أو عقوبة لا تحتمل.

إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي.

أعرف أخاً لم أعد أره الآن، يعمل في عمل ومخالفة ليس له فيها سبب إطلاقاً، اشترى بضاعة، ولم يأخذ فاتورة، والبضاعة غير نظامية، ثم بلغني بعد حين: أن الذي باعه إياها هو الذي دله عليه ليأخذ المكافأة، وعلى أثر العقاب الأليم الذي دمره، أصيب بالصرع طول حياته، فهذا الذي ينزل أشد العقاب بالإنسان هو بريء ألا يخشى الله عز وجل، إن الله شديد العقاب، هؤلاء كل الناس عباده، وهو يحبهم.

الله عنده ورم خبيث، وورم في الدماغ، وفشل كلوي، وتشمع بالكبد، وعنده الله أمراض تجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، وهؤلاء عباده:

((إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

((أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا))

لأنها رحمت مخلوقاً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِي اللَّه عَنْه-، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ قَالَ:

((أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَتْ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَ: مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا، إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ، وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ، فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي، أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ فِي

بَيْتِي هَذَا: اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

وأنا أؤكد لكم: أنه يستطيع أي إنسان بمنصب أن يرحم الناس، ويأخذ الحد الأدنى، وينبههم، ويحذرهم قبل أن يوقع الأذى المدمر بهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي مَسِيرٍ لَهُ فَحَدَا الْحَادِي، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ارْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ وَيْحَكَ بِالْقَوَارِيرِ))

القوارير هم النساء.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أحد أبرز الكمالات البشرية: أن تكون رفيقاً لطيفاً، كلمتك، ونظرتك لطيفة، ما تضرب أحداً بيدك. يقول أنس: خدمت رسول الله عشر سنين، فما قال لي لشيء فعلته: لمَ فعلته؟ ولا لشيء تركته: لمَ تركته؟.

عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لَهَا:

((يَا عَائِشَةُ ارْفُقِي، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا، دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ:

((بِرَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنِّي أَقُولُ: اللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ، قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ، قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ -عَلَيْهِ السَّلَام-، وَهُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ، فَقُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ))

أيها الأخوة، النبي -عليه الصلاة والسلام- قبل أن ينتقل للرفيق الأعلى، جمع الناس وقال: من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي، ولا يخشى الشحناء، فإنها ليست من شأني ولا من طبيعتي.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

الحياة مع اللطف، والمودة، والرفق، والمسامحة، والعفو، والصفح، الحياة حلوة وجميلة، وكأنها جنة، والحياة بالعنف والمشاكسة والبغضاء والقضاء، الكلمة الطيبة صدقة، الاعتذار رائع.

أحياناً تقول لإنسان: سامحني أخطأت، لم يبق شيء، الشر انطفأ، الحقد زال، أما مشكلتنا فيمن يركب رأسه، يخطئ ويتبجح أنه على صواب.

لذلك: فمن الناس من يدري، ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه، ومنهم من يدري، ولا يدري أنه يدري فهذا غافل فنبهوه، ومنهم من لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطان فاحذروه، هذا جاهل مركب.

الأعراب قساة، دخل أعرابي شعر بحاجة للتبول، بال بالمسجد أمام الناس، والصحابة بكل بساطة.

-والنبي -عليه الصلاة والسلام- كان إذا أكل التمر -دققوا في هذا، لو أنه أمسك تمرة وأكلها-، فلما انتهى من مضغها، أمسك بالنواة بإصبعيه، ووضعها على الطبق، ما الذي حصل؟ لعابه من خلال النواة وصل لإصبعيه-، فإذا أكل تمرة ثانية، ورآها قاسية، وتركها إلى ثالثة، ما الذي حصل؟ لعابه الشريف أين وصل؟ إلى تمرة في الطبق، هذا خلاف اللباقة واللطف والذوق-.

فكان عليه الصلاة والسلام إذا أكل تمرة، وضع نواتها على ظهر إصبعيه لتبقى داخل إصبعيه جافة لا توصل لعابه على تمرة أخرى!.

على هذه الدرجة من الرقة والذوق، ويأتي أعرابي ويبول في المسجد-، فلما هبّ إليه الصحابة، قال: دعوه، -يوجد بها حكمة، البول محصور بمكان، دعوه لا تزرموا عليه بوله، يبدو أن الإنسان إذا بدأ بالبول، ثم قطعه إرادة، ففيه أذى كبير-، لذلك قال: دعوه وأهرقوا على بوله ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ:

((إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ، فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ))

عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْه-، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ:

((مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

أيها الأخوة الكرام، مرة ثانية: لا يكون الرفق في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، عليك أن تكون رفيقاً، لطيفاً، لين الجانب.

والملخص لهذا كله: أنك إذا اتصلت بالله، امتلأ قلبك رحمة، انعكست الرحمة ليناً في تعاملك مع الناس، وإذا كنت منقطعاً عن الله، امتلأ قلبك بالقسوة، وانعكست القسوة غلظة وفظاظة في تعاملك مع الخلق، والدليل القوي على ذلك-:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

والحمد لله رب العالمين

الفهرس